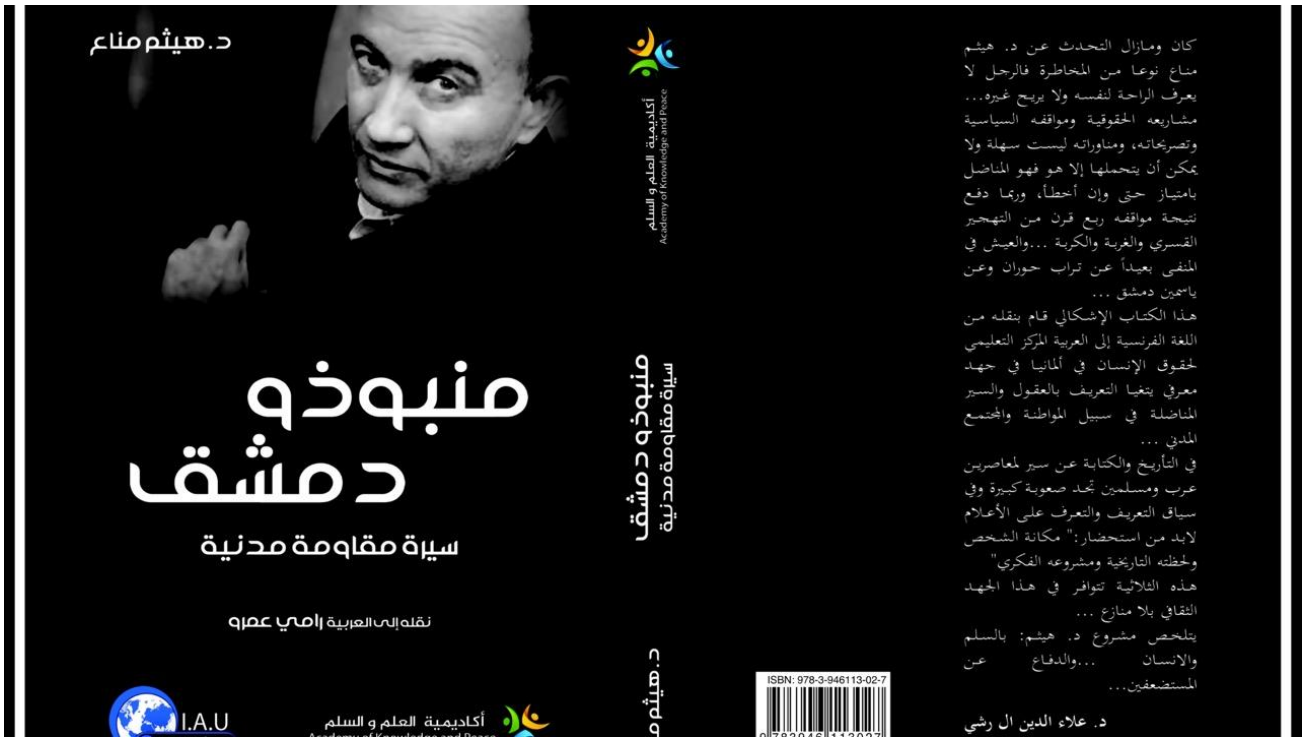

منبوذو دمشق

هيثم مناع

الإصدار الورقي: أكاديمية العلم و السلم

ترجمة : رامي عمرو

النسخة الإلكترونية:

مراجعة وإصدار: جمعية الصداقة العربية الأوربية

توطئة

ربّما من حسن حظي أو من سوئه أن عشت قصّة تكاد تكون رواية حقيقية. أنا لست روائيا. فمع دراستي للثانوية بفرعها العلمي ثم للطب والانثروبولوجيا وشغفي بالتحليل النفسي والتزاماتي الحقوقية والقانونية، بات الأدب بالنسبة لي ترفا لم أختر منه إلا روائع ما كتب. فمن جهة لم يكن الوقت متوفراً ومن جهة أخرى لم أمتلك الرغبة والشغف للرواية.

اعتقدت دائماً أنّ أحد الناجين سيكتب قصتنا في ظل حالة الطوارئ أو أنه سيكتب قصته الشخصية. لا فرق فالقصص تتشابه كثيراً.

لو أن الله خلق الإنسان ومعه أربعين شبيها كما يقول المثل العربي، إلا أنّ الحكم الاستبدادي سيكون قادراً على فعل ذلك بشكل أفضل. أنا لست محترفا في رواية قصص البؤس ولكن قصّة منبوذي دمشق هذه هي واحدة منها بلا ريب.

إنّ عدم الفهم ميزة يتمتع بها الفئران فقط ولكنني هنا بصفتي إنسانا لذا فأنا مجبر على أن أستمع وأكون شاهداً وأبذل قصارى جهدي لكي أفهم. لقد طلبت من أصدقائي الّذين كانوا معتقلين أن يكتبوا لكنّ كابوسهم كان حاجزاً بوجه أي عمل خلاق. لقد تحدثت مع روائيين أكثر خبرة منّي في الموضوع ولكنّ الطغمة الحاكمة تخيف كل الناس فلا يجدون بدّا من الصّمت. وها أنا ذا أقص عليكم ما يتعلق بالجانب السوري من حياتي بعد نحو أربعين كتابا لا علاقة لها بالأدب. ها أنا ذا أكشف لكم عن الوجه المخبأ من بلدي سوريا، من منطقتي، من العالم العربي ومن هذا الجانب الثقافي الّذي عرفته جيداً من عالم الشرق.

هل هي سيرة ذاتية؟ نعم ولا. نعم لأنها تتعلّق بالجانب السوري من حياتي. ولا، لأنّ الجانب العالمي كان دائماً موجوداً في حياتي. ذلك الجانب الّذي رفض مبدأ الحدود واعتبر أنّ كلمة "الفعل" ليس لها لون أو عرق أو جنس أو مكان.

أنا من مدرسة ذلك الروسي المنفي المعادي للستالينية، الّذي حارب ستالين عندما كان حيّاً وكرّس نفسه للفلسفة بعد موته. أنا معه حينما يقول: إنه يجب علينا أن نقضي على الحكم الاستبدادي قبل اختفائه طبيعيا وإلا فإن المثقف الملتزم سيشارك في إعادة انتاج هذا الحكم الاستبدادي وإن بأشكال أخرى.

بقي أن أقول أن كاتب هذه السطور ليس لديه طموح الإجابة عن الأسئلة المشهورة للفيلسوفة الألمانية "حنا أرندت" (ماذا حصل ولماذا وكيف كان له أن يحصل؟) إنّ إجابة كهذه لا يمكنها أن تكون موجودة في شهادة ستفتح ربّما لاحقاً جدلا حادّا حول هذه الأسئلة نفسها.

وأخيراً... أهدي هذا الكتاب إلى أحرار سورية، من رحل منهم ومن لم يزل على قيد الحياة، الّذين قالوا "لا" للطغيان في ظروف لا يقول فيها "نعم" إلا العبيد

درعا

من الصعب على المرء أن يعيش قصّة حبّ دون زواج في جنوب سوريا إبّان حرب عام 1948 وولادة دولة إسرائيل. لقد سهّلت الخطوبة لقاءات هذين العاشقين اللّذين قرّرا العيش والنضال معا.

هو، ابن فلاح كان على استعداد لبذل كل شي في سبيل ابنه الوحيد. هي، ابنة محام كان قائداً للحركة الوطنية ضد الإنتداب. حكم عليه الفرنسيون بالإعدام وخرج بعفو عام من قبل أتباع "الجنرال دو غول" بعد يومين من إعلان الإستقلال في 17 نيسان عام 1946م.

هو، كان يميل إلى الحزب الشيوعي عندما كان طالباً ولكنه سرعان ما أصيب بخيبة أمل جرّاء موقف الحزب من قيام دولة يهودية في فلسطين. كونه علمانياً متشدّداً واشتراكيا معادياً للإنتداب، وكان يرى دولة اسرائيل معادية للسامية ومشروعا علمانياً تحت ستار ديني في منطقة مبتلاة حتى النخاع بكل ماهو ديني، وقاعدة عسكرية يديرها بعض المرتزقة التابعين لوطنيين يهود.

"كيف لنا أن ندافع عن دولة علمانية في الشرق وندعم في الوقت ذاته دولة قائمة على الأساطير والطائفية" كانت هذه الكلمات آخر ما قاله للشيوعيين قبل تخلّيه النهائي عن الماركسية. ونتيجة لذلك انضم إلى حزب البعث العربي وكان ذلك قبل ولادتي.

لم يكتب لي النجاح بعد في اكتشاف أصول عائلة أبي. لكننا، بحسب أقوال جدي، ننحدر من عائلة آل عود. ما يعني أن "عودات" سوريا ولبنان وفلسطين والأردن هم جميعهم من قبيلة عربية كانت قد انقسمت قبل الإسلام بين يهود ومسيحيين ووثنيين. البعض الآخر يقول أننا من أحد فروع هذه القبيلة الّذين دخلوا في الإسلام. يزعم ابن عمي حسين العودات الّذي يعشق هذا النوع من القصص الّتي تبحث في الانساب أننا من الغجر ذوو الأصول الهنغارية ما يفسّر وجود العيون الزرقاء في عائلتنا. لكن أخاه غير الشقيق (العم حسّن) يقول: إن حسين ينسى أنّ العرب لم يتركوا النساء الشركسيات والسلافيات بسلام وأنه لم يكن يخلو بيت عربي من امرأة شقراء وأخرى سوداء خلال خمسين عاماً من التوسع الإسلامي.

أمّا من جهة أمّي فإنّ الأمور أبسط بكثير. أمّها من أصول مصرية ولكنّ عائلتها كانت تعيش في دمشق منذ ثلاثة أجيال. بينما كان أبوها ابنا لأحد كبار القضاة ومن هنا جاء اسم العائلة "الشرع" الّذي اشتقّ من كلمة "شريعة وقاضي الشرع" والّذي يصل نسبه إلى قبيلة الحاج

علي الّتي تنحدر، بحسب مخطوطتين قديمتين، من علي بن أي طالب إبن عم النبي محمد رسول المسلمين.

لقد كان جدّي أوّل من خالف هذه التقاليد مفضّلا دراسة المحاماة على أن يصبح قاضيا تقليديا للمسلمين. وكانت بناته أوّل من خلع الحجاب في جنوب سوريا وأوّل من ارتاد مدارس الشباب نظراً لعدم وجود مدارس ثانوية للبنات في تلك الحقبة.

باختصار، كان التغيير حلماً يداعب الكثير من أفراد هذه العائلة منذ جيلين على الأقل.

إنّ وجود عالم عربي مستقل حر وموحّد كان خيالا يوميا بالنسبة لبعضهم بينما كان البعض الآخر يحلم بتغيير العالم كلّه بقاراته الخمس.

وُلد "الطفل" في السادس عشر من أيار عام ألف وتسع مئة وواحد وخمسين ذات أربعاء لا يختلف عن غيره في مدينة درعا الحدودية مع كلّ من الأردن والصحراء.

يقسم الوادي هذه المدينة إلى مدينتين (القديمة والجديدة)، بينما تتولى السكّة الحديدية مهمة تقسيم آخر للمدينة بين قسم شمالي ذو أغلبية مسيحية وجنوبي ذو أغلبية مسلمة. كان سكان درعا يعتبرون أبي من الفلاحين وكان هو بدوره يفضّل هذا التصنيف لانّه كان دائماً يعتقد أن الفلاحين هم ثروة البلد الّتي لا تنضب. والداي كانا يذكرانني دائماً بأنني ثمرة حبهما وقد كرّسا لي جلّ أوقاتهما. كانت أمي ترى بأنني سأكون عبقري زماني بينما كان أبي يرغب بأن أكون واحداً من رجالات الفكر. ولا أنسى تعليق فتاة عانقتني لأول مرة في حياتي على ما تقوله والدتي عني: "تقول أمك أنّ طفلها عبقري ولكنها تنسى أنه لا يعرف حتى كيف يقبّل النساء".

ولد أخي الأصغر "همام" بعد ولادتي بثلاثين شهرا وهي المدة اللازمة لقضاء طفولة مريحة مع والداي. بدأت القراءة في سن الخامسة وكان أبي يشتري لي مجلة "سمير". كنت محظوظا كوني قرأت "ميكي" وأتردّد كثيراً على مكتبة المركز الثقافي في درعا قبل ان أبدأ المدرسة وأقرأ الكتب المدرسية. لم تكن السنة الأولى الّتي قضيتها في المدرسية قانونية وذلك بسبب صغر سني ولذلك كنت أصطحب معي الكرسي إلى المدرسة في صباح السبت وأعيده معي إلى البيت بعد ظهر الخميس.

في عام 1956 ذهب أبي ذات يوم ليشتري طلاء أزرق للنوافذ وفي المساء كنا مجتمعين في البيت حول المذياع نستمع إلى خبر العدوان الثلاثي الإسرائيلي الفرنسي البريطاني على مصر. في اليوم التالي كان على أبي أن يشارك في مظاهرة تدعم تأميم قناة السويس. ما أثار

تساؤلي حينها هو كيف لنا أن ندعم الرئيس عبد الناصر من بيوتنا دون أن نخرج من شارع منزلنا؟

في هذه الأثناء حاول الإخوان المسلمون حرق منزلنا بعدما قاموا برمي كرة من الصوف المبلل بالبنزين المشتعل من النافذة على غرفة النوم ولكن والداي إستطاعا إنقاذنا أنا وأخي بأعجوبة.

لقد رفض أبي دائماً وجود أي نوع من التربية الدينية في المنزل ولكنه كان يشرح لي كل ما يتعلق بالديانات التوحيدية ويكلمني بشكل مبهم عن الديانات الأخرى. إنّ الدين الّذي كان غائب تماما في المنزل لم يكن كذلك في المدرسة والمجتمع المحيط بنا. كنت دائماً أنزعج في الأيام الّتي يترك فيها سامح "صديقي المسيحي" الصف ليحضر دروس التربية المسيحية في الوقت الّذي كنا نحضر فيه التربية الإسلامية. لماذا يفصل الأطفال عن بعضهم باسم الإله؟ قال مدرس التربية الإسلامية بأنه يتوجب على المسيحيين أن يستمعوا لصوت العقل وأن يتّبعوا النبي الخاتم كما اتّبعوا عيسى النبي عندما جاء ولكن زميلي سامح قال لي بأنه مهما حصل فلن يكون هنالك مساواة بيننا لانّ المسيحي لا يمكنه أن يصبح رئيسا للجمهورية. ولكنني أجبته بحزم: "لا أريد ان أكون رئيسا للجمهورية".

بالإضافة إلى الورع، كانت الخرافة تحتل مكانا مهما جداً: يجب عليك أن لا تقلب الحذاء بإتجاه السماء فهذه قلة احترام تجاه الإله. يجب عليك أن لا ترمي الملح على الأرض لكي لا تلتقطه برموش عينيك يوم القيامة. يجب عليك أن لا تنطق لفظة الكفر بالله لكي لا يتهدم منزلك. لقد كنا نملك نصيبا من التحدي والشك عندما كنا صغارا، فذات مرة دخل صديقي عصام متخفيا إلى غرفة والده الّذي كان يضربه بشدة وبدأ يشتم الله مرات عديدة على أمل أن ينهار البيت على رؤوس والديه، لكنّ تصرفه هذا لم يغير في الأمر شيء وقد قال معلقا عندما روى لي قصته في اليوم التالي :كل هذه القصص هراء، إن الكبار يستهزؤون بنا.

فأجبته بنبرة العارف " نعم هذا صحيح"

خلع هذا الطفل عنه الطفولة باكرا وتوجّب عليه ولوج عالم الكبار. في عام 1957 حملت العلم الجزائري مع أطفال آخرين لأشارك في جمع المال لجبهة التحرير الوطنية الجزائرية وفي العام 1958 رقصت وغنيت مع الكبار لأحيّي الوحدة بين سوريا ومصر. لم تكن تلك الطفولة الّتي ستحجز لي موقع المراقب تلزمني.

في زمن الوحدة بين سوريا ومصر بدأ الكبار يستخدمون مصطلحا لم يكن مألوفا بالنسبة لي "المخابرات" جاء خالي خير الدين إلى بيتنا ليحدث أبي عن المخابرات الّذين جاؤوا إليه لاستجوابه.

كنا جميعاً حاضرين عندما زار عبد الناصر بطل قناة السويس درعا. لقد صرخنا بأعلى صوتنا" إبقَ الليلة يا جمال" " الليلة عنا يا جمال" فأجابنا " في المرة القادمة" لكن هذه المرة القادمة لم تأت أبداً.

لقد أنهى الإنفصال عام 1961 أول تجربة وحدوية بين بلدين عربيين وقلائل هم الّذين لم يتظاهروا ضد الإنفصال في مدينتنا. لقد كانت الشرطة أيضاً متواطئة في هذا الحدث حيث كانت تتدخل لفض المظاهرات بقوة السلاح. كان السكان ينتظرون وصول الجيش المصري أو وحدات من الجيش السوري أو المعجزة. لقد رافقت أبي إلى منزل صديقه عبد المنعم الشرع شقيق فاروق الشرع الّذي أصبح نائبا للرئيس بعد أربعين عاماً. قال لأبي وقد كان جريحا : كل ثلاث سنوات وأنتم بخير.... يجب علينا أن نبدأ كل شيء من جديد.

إن الإنسان يستثمر كل أشكال الحياة بشكل أكبر عند لحظات خيبات الأمل. كانت المشاكل العائلية والاقتصادية في منزلنا تشغل حيزا من الأهمية ولكننا سريعا ما انقسمنا بين مؤيدين ومعارضين لهذه الوحدة الّتي تمّ إجهاضها.

عرض عبد العزيز الخيّر صديق الطفولة والدراسة عليّ فكرة أن نؤسس سوية صحيفة تكون من الأطفال وإليهم. كانت فكرة ساحرة بالنسبة لي. لقد اجتمعنا في منزل عبد المجيد الحريري ثم قررنا طباعة العدد الأول من مجلة "التعاون". لقد اشترينا الورق والكربون اللازم لعمل النسخ وبقي عندنا أن نشتري جامعة الورق.

"هيثم عليك أن تطلب المساعدة من عمك موفق". قال لي عبد العزيز

كان موفق الشرع مديرا للمعهد القومي العربي. وهي مدرسة خاصة تحوي صفوف الإبتدائية والثانوية. كان الوضع في مدرسته يسير على مايرام بالإضافة إلى أنه كان يقول عني أشياء حسنة.

ذهبت وأخذت موعدا وعندما خرج ناداني:

_ أدخل يا ابني. أدخل

_ مرحبا يا خالي، هل أستطيع ان أكلمك على انفراد؟

خرجنا إلى الشارع وقلت له :

_ خالي، أنت تعلم انه ليست هناك صحيفة في مدينتنا ولذلك قررت أنا وأصدقائي أن ننشئ واحدة وسنسميها صحيفة "التعاون". وقد أرسلني أصدقائي لكي نطلب العون من مدرستكم.

_ اسمع يا هيثم، انه مشروع هائل ولكن لسوء الحظ فإن مدرستي لا تملك الوسائل لمساعدتكم

_ ألا تملك مدرستك سبع ليرات سورية لمساعدتنا؟

هنا عاد عمي الّذي كان لديه مشروعا كبيرا من بعيد وعرضت عليه مشروعي بشكل جيد للغاية ووثقت به تماما كما وثق هو فيّ بعد عشرة أعوام. بحث عن النقود في جيبه وأعطاني الليرات المطلوبة.

_ شكراً لك شكراً. لن ننسى دعمك هذا أبداً

أصدرنا ثلاثة أعداد قبل أن نتوقف بسبب الإمتحانات.

ذات يوم ترك والد عبد العزيز الخير درعا. كانت لحظات الوداع زاخرة بالأحداث. كانت تجمعني بعبد العزيز محبة كبيرة ، كنا شركاء وكنا نتنافس في الدراسة. كان لدينا نقطة مشتركة قوية جداً وهي كرهنا للفشل ورفضنا للضياع.

بعد عشرين عاماً عندما علمت أنّ عبد العزيز دخل المعتقل بعد ملاحقاًت شرسة من المخابرات كانت ردة فعلي الفورية كالتالي:

_ سيقاوم. أنا متاكد ذلك.

_ هل تعرفه؟

_ لقد عرفت جيدا الطفل عبد العزيز.

لقد استغرق الأمر بالمخابرات أكثر من اثنتي عشرة سنة حتى تمكنت من القبض على عبد العزيز حتى أنها عبرت عن فرحتها حينها بإطلاق النار في الهواء في مركز المدينة قرب القلعة.

لم يحمل عبد العزيز السلاح أبداً ودرس الطب في نفس الوقت الّذي كنت أدرس فيه وتصدّر التزامه السياسي المشهد مثلي أيضاً. وإلى جانب كونه ماركسيا-لينينيا، انضم بعد مغادرته البلد إلى حزب العمل الشيوعي المعارض ليحتل سريعا دورا قياديا فيه. كان شاهدا على اعتقال أخيه وزوجته وأصدقائه من قبل النظام وأخذهم كرهائن للضغط عليه وإجباره على تسليم نفسه. تلقى حكما بالسجن مع الأشغال الشاقة لمدة 22 سنة من قبل محكمة أمن الدولة

وتم تجريده من حقوقه المدنية. لقد وضع اعتقاله دون شك نهاية مأساوية لحقبة اليسارغير السوفييتي الّتي عرفتها سورية خلال 25 عاماً من الحكم الدكتاتوري. أربعة عشر عاماً قضاها عبد العزيز في سجن صيدنايا شهد خلالها موت حافظ الأسد واحداًث ربيع دمشق واحتلال العراق ولكنه كان محظوظا كونه كان أحد مؤسسي إعلان دمشق مع حسين العودات، حسن عبد العظيم، فداء الحوراني، رياض سيف ورياض الترك. وذلك قبل أن يشارك في مؤتمر حلبون الّذي وحّد معظم الديمقراطيين السوريين في البلاد بعد ثورة 18 آذار 2011. إن عبد العزيز الخير هو أحد أهم رموز هيئة التنسيق الوطنية للتغيير الديمقراطي في سوريا وكان دوره حاسما في التوجهات السياسية للهيئة. تم اعتقال عبد العزيز عند عودتنا من بكين في 20 سبتمبر 2012 بعد زيارة قام بها وفد هيئة التنسيق للعاصمة الصينية.

افترقنا أنا وحسن عبد العظيم وإياس عياش وعبد العزيز الخير في 20-9-2012 في مطار دبي. عند وصولي إلى مطار شارل دو غول في باريس رنّ الهاتف.

_ هيثم، لقد اعتقلت المخابرات إياس وعبد العزيز وإبني ماهر

_ ماذا؟

_ نعم. إعتقلوهم عند حاجز أمن المخابرات الجوية في المطار

_ إهدئي فدوى، سنبذل كل ما بوسعنا لإطلاق سراحهم

_ هيثم، هل تعي ماجرى؟ لقد اعتقلوا أغلى شخصين على قلبي

_ لقد أوقفوا لتوّهم ثلاثة من رموز الثورة. تحلّي بالشجاعة والحكمة. ليس لنا الآن ترف الظهور بمظهر الضعيف.

إياس عياش ناشط إشتراكي ومهندس ذو صفات إستثنائية وهو ابن أحد كبار المقاومين لنظام الأسد ويمثل حركة الإشتراكيين العرب في قيادة هيئة التنسيق. أما ماهر الطحان فينتمي إلى تنسيقيات الشباب. تزوج لتوه من الناشطة في الحراك المدني يارا فارس الّتي أعتقلت بدورها بعد أربعة عشر شهرا من اختفاء زوجها وأطلق سراحها قبل تحضيري لهذا الجزء من الكتاب.

* * *

بعد عدة أسابيع من الإنفصال مع مصر في 28 أيلول عام 1961 جاءت سيارة مخابرات إلى بيتنا. كنت أقف على السطح فصرخت عندما رأيتها:

_ بابا، المخابرات يقفون على بابنا.

فتح لهم الباب فوجد رجلين طلبا منه أن يذهب معهم. في اليوم التالي جاء إلينا أحد حراس سجن درعا المركزي وأخبرنا بأن أبي في السجن وأنّه باستطاعتنا زيارته يوم الجمعة. ذهبت مع أحد أبناء عمومتي في اليوم التالي إلى السجن ووقفت عند النوافذ الخارجية منادياً:

_ هل أبو هيثم موجود في هذا الهنغار؟

هاهو ذا أبي ينظر إلينا من علٍ ويقول:

_ هيثم، إسمع يا بني كل شيء على مايرام. أخبر والدتك أن تحضُر الجمعة مع باقي نساء الرفاق وأن تحضر معها طعاماً للجميع هنا

_ سأفعل. هل تريد شيئا آخر يا أبي

_ لا لا... بل نعم، الصحف

نظر أبي إليّ بفخر فحيّيته بدوري تحية يغيب عنها أي مظهر ضعف، لأذهب سريعا وأنقل الرسالة لأمي. كانت تلك الجمعة عيدا لكل المسجونين. أحضرنا الطعام يومها إلى كل المساجين بما فيهم نزلاء الحق العام.

_"السجن للرجال" صرخت زوجة إحدى المساجين. "انتم فخرنا وشرفنا" هتفت أخرى.

مازالت هذه الصورة الإيجابية للسجن ماثلة أمامي إلى اليوم بهالة عظيمة تجسد التعاون الحقيقي وتنفي أي قلق على المستقبل. هل هو الأمل بالتغيير القادم؟ هل ستشرق الشمس من جديد؟ هل هي الثورة؟ أم هي الوحدة الّتي ستعيد إلينا الخبز والفواكه والحرية.

أفرج عن أبي ورفاقه بعد خمسة عشر يوماً من السجن ليعاود نضاله من جديد. تعلمت بدوري الطباعة على الآلة الكاتبة. كان أبي وأمي مدرّسَين فقررت الحكومة نقل أبي إلى مدينة الحسكة في أقصى شمال شرق سوريا ونقلت أمي إلى مدينة دمشق الّتي تبعد 104 كلم من هنا. أضطر أبي لتقديم استقالته لكي يبقى مع عائلته ولكي يبقى في الجنوب بشكل خاص وانتسب إلى نقابة المحامين. تبعنا أمي إلى دمشق. في المدرسة كان هناك أستاذ شيوعي أخبرنا مرة كيف كان الروس ينجحون بإنزال صواريخهم في الأماكن المخصصة لها بينما كانت الصواريخ الاميركية تسقط في المحيط. فأجبته حينها:

_ سيبقى الشعب الأميركي رجعيّ حتى ولو نجح في إنزال صواريخه في مطار نيويورك لأنهم يمارسون التمييز العنصري.

ملاحظتي هذه دفعت الأستاذ لحمل قدر كبير من الإحترام لي. قال لي حينها:

_ يجب عليك القيام بشيء ما حيال العنصرية ياولدي فمن الواضح أنك مهتم جداً بهذه القضية.

_ سأفعل يا أستاذ. أعدك

في دمشق، شائت الأقدار أن يصطحبني أبي إلى مكتب المحامي الّذي سيقضي عنده السنتين اللازمتين لممارسة المهنة وهناك رأيت حسن عبد العظيم وأخيه أحمد. استمَعوا إلى قصّة أبي وقرّروا أن يخاطروا ويسمحوا له بقضاء هاتين السنتين في مكتبهم. ليس ذلك فحسب بل حدّدوا له مبلغ 150 ليرة سورية كراتب رمزي.

حسن عبد العظيم نفسه هو الّذي سيقدم هيثم مناع في أمسيتين غير مرخصتين في ظل الحكم الدكتاتوري. الأولى كانت في بيته في العام 2003 والثانية في مدينة دوما عام 2008 في مزرعة شهيد الحركة الشعبية السورية " الدكتور عدنان وهبة"، ضارباً بذلك عرض الحائط قرارات السلطة الحاكمة الّتي تمنع هذا النوع من الأمسيات. وقد قدّمني بهذه الكلمات:

"إنّ محاضرنا هيثم مناع يمثل اليوم بالنسبة للشعب السوري ما يمثله محمود درويش بالنسبة للفلسطينيين. إنه سفير شعبنا السوري وأحد أقطاب حقوق الإنسان في العالم".

في أيلول 2011 إنتُخبت رئيسا لفرع المهجر لهيئة التنسيق الوطنية للتغيير الديمقراطي في سوريا والّتي كان المنسق العام فيها هو حسن عبد العظيم نفسه ثم نائبا للمنسق العام حتى نهاية العام الرابع للثورة. كم هو صغير هذا العالم.

في مدينة دمشق، في حي المجتهد كنا المنسيين الّذين جاؤوا من الريف. وقد توجب علىّ بذل جهد حقيقي ليكون مستواي الدراسي جيد في المدرسة. كان هذا أيضاً زمن إكتشاف البنات، الحب والحياة. كان ذلك بفضل فاتنة ابنة الجيران فائقة الجمال الّتي علّمتني أنّ الحياة لا تكمن فقط في الوطن والمرسة.

_ إسمع، هناك الموسيقا والحب والعمل والإستجمام وآلاف الأمور الأخرى

_ أحب الموسيقى كثيراً

_ هل تجيد العزف على أحد الآلات

_ لا. لكن أمي تعزف العود

_ يالك من محظوظ. يجب عليك أن تستفيد منها لتتعلم.

لقد كانت هذه الفتاة صادقة للغاية. علّمتني أشياء كثيرة ولكن صداقتنا لم تدم طويلا بسبب الأحداث.

في دمشق، قمت بالعمل الصيفي لأكسب منه مصروف جيبي كما يفعل بعض الأطفال ووافق أبي على ذلك. كنت أعد الهيلطية والحلوى لبيعها على قارعة الرصيف قرب مسجد الأنصاري الذي يبتعد خطوات عن منزلنا.

في الثامن من آذار عام 1963 أُعلنت حالة الطوارئ في البلاد إثر انقلاب قام به البعثيين والناصريين. انطلقت المظاهرات وكانت المواجهات تحدث بالقرب من بيتنا. كانوا يتحدثون في الراديو عن ثورة وحظر تجول وبيان رقم واحد وبيان رقم إثنين. كانت الأغاني الوطنية والموسيقى العسكرية طاغية على البرامج وكانت الإذاعات الأجنبية تتكلم عن إنقلاب. وعندما سألت أبي عن سبب هذه الإختلاف في التسميات بين الإذاعات الوطنية والأجنبية أجابني بأن الرجعيين والإمبيرياليين هم ضدّ ما يحصل في البلاد وبأنهم يطلقون تسميات سلبية بغية خلط الأوراق وخلق حالة من التشويش لدى الشعب.

_ صحيح أنها ليست ثورة ولكنها حركة تطلق العملية الثورية وتمهد لها. قال لي.

_ ولكن لماذا لجأ خالد العظم رئيس الوزراء إلى السفارة التركية؟

_ لأنه ضد الوحدة العربية والإشتراكية. إنّه خائف

_ من ماذا؟

_ من أن يحاكم أو يتم اعتقاله

_ ولكنه أمر بإطلاق سراح كل المعتقلين في درعا بعد أن قذفنا البيض والبندورة على موكبه؟

كيف أنسى زيارة هذا الرجل إلى درعا. حينها لم يستطع مواصلة خطابه. أوقفت الشرطة على إثرها خمسين رجلا. لكن رئيس الوزراء رفض أن يغادر قرية عتمان قبل إطلاق سراحهم جميعاً.

_ إذا كان بريئا فسيتم إطلاق سراحه.

_ أبي، ماهي حالة الطوارئ؟

_ إنها حالة مؤقتة تعلن عندما تمر البلاد بأوضاع خطيرة طبيعية كانت أم سياسية. لكنها لن تدوم طويلا يا بني.

مسكين أبي. لم يكن يعلم حينها أنّ حالة الطوارئ هذه ستستمر ثلاثة وثلاثين عاماً.

_ أبي، إن من يدعم إتخاذ إجراءات استثنائية لا يعلم حقا ماذا يفعل.

كانت عائلتي كلها تقريباً متورطة بهذه الأحداث. مصطفى، عضو اللجنة العسكرية الّذي قاد العمليات. مفتخر الّذي قاد الدبابات الآتية من الجولان بالتنسيق مع صلاح جديد. والدي، حسين، محمد، عبد المنعم، إبراهيم وعبد الهادي كانوا جميعهم أعضاء في المنظمات المدنية السرية بينما لم يكن لفاروق الشرع حينها دور في الأحداث.

"لم يفكر أحد قط في هذا البلد الّذي تجاوز عدد الإنقلابات العسكرية فيه عدد الإنتخابات التشريعية أنّ هذا الحال سيستمر ثلاثين عاماً. ولايزال مستمرا"

هذا ماكان طفل البارحة يحاول شرحه في باريس بعد مضي ثلاثين عاماً متخذا مكانه بجوار رئيس منظمة العفو الدولية ورئيس الفدرالية الدولية لحقوق الإنسان.

"في تلك الأيام اعتمد الخطاب السياسي للإنقلابيين الوحدة مع مصر والإشتراكية العربية والخطاب المعادي للرجعية. وجرى تعميد الإنقلاب في القاموس الجديد "ثورة".

إعمال الذاكرة هو سلاح مزدوج ضد التعسف، ولكن كم من الصفحات يجب علينا أن نملأ عن تلك الشهادات الّتي تم تجميعها والتجارب الّتي عاشها الناس والّتي عبّر عنها بألف طريقة وطريقة منعتها السلطة الّتي كانت تتكلم بلا خوف او أقنعة.

كيف نشرح تحول ثالوث ميشيل عفلق (الوحدة العربية والحرية والإشتراكية) إلى ثلاثية "أردنت" المأساوية والمضحكة في آن معًا (القضاء على الشخصية القضائية، موت الشخصية الأخلاقية و إلغاء الهوية الخاصة للإنسان)؟

لا يختلف يوم 8 آذار عن غيره بالنسبة للمحطات الإذاعية الأوروبية. وحيداً كنت في سيارة تخترق الطريق، نظراتي كانت تركّز على الجادّة الّتي شَطرَتها الإشارة الضوئية بضوئيها الأحمر والأصفر إلى شطرين. الأول للسيارات الهابطة والثاني للسيارات الصاعدة. يقبع نهر السين في الأسفل وفي الأعلى تلوح أضواء أوبرا الباستيل الّتي تثير فضول السياح ممسوحي الذاكرة أو بالأحرى قليلي الإهتمام بالسجن الّذي تحطم يوماً في هذه الزاوية من باريس معلنا نهاية حقبة. كانت الصور تعبر ذاكرتي متوقفة عند كل إشارة حمراء: دخول أبناء الريف إلى الجيش بشكل هائل، عمليات التطهير الّتي كانت تحدث لما سيسمى من الآن فصاعدا "الجيش العقائدي"، تنفيذ عمليات الإعدام بدون محاكمات أو ما يسمى قانون حماية الثورة حسب المصطلح الرسمي للسلطة، إعادة هيكلة حزب البعث وإنشاء تنظيمات مهمتها السيطرة على الشعب وإنشاء فرق خاصة في مؤسسة الجيش.

إن تأميم الإقتصاد وسيطرة الجناح العسكري لحزب البعث بقوة السلاح هما الميزتان اللّتان طبعتا بقوة المرحلة التالية لإعلان حالة الطوارئ. لقد تم استبدال الرأسماليين بالجناح العسكري البيروقراطي ليس باعتباره مالكا بالقانون وإنما كمدير لموارد الإنتاج والتوزيع والمعلومات والتعبير. هذا الجناح الّذي أنتُدب من الدولة المهيمنة، والّتي أصبحت دولته الخاصة، والمعبّر الحصري عن شخصيته ومصالحه المجردة.. لم يعد من الآن فصاعدا من الضروري معرفة من فوض من باسم الدولة، لأنه وفي الصراعات المفتوحة في أشباه الدول، القانون يصنعه دائماً المنتصرون، وهم من يكتب التاريخ في مناطق سيطرتهم.

بعد مرور سبعة أعوام، حتى الحزب الواحد لم يعد لديه سلطة فعلية في البلاد. وقد وقف وزير الدفاع الّذي أسّس فرع المخابرات الجوية والّذي استولى على السلطة ليقول أمام مؤتمر الحزب: "رفاق... الجيش هو الّذي صنع الثورة. وزير الدفاع "لين بياو" هو الرجل الثاني في الصين، أنا لست لين بياو، ولكن ليس عندنا ماوتسي تونغ أيها الرفاق".

كان الخطاب الرسمي دائماً يتعامل بازدواجية. كانت السلطة الإستبدادية تعيش "حقائقها" البسيطة للغاية وتزعق ناشرة أكاذيبها بمنطقها الأحمق وعندما كان أحد أعضاء الحزب يطلب بلطف من الرئيس أن يقوّم تصرفات رئيس هذا الفرع الأمني أو ذاك كان الجواب الحاضر دائماً بشكل واضح: "لولاهم لما كنا موجودون هنا".

إنّ الإستمرار أو النجاح في الهيمنة المطلقة على السلطة بهذا الزمن القياسي لم تكن لتفرز سوى نتائج مأساوية: التوجه المجنون تجاه عبادة شخصية المرشد الأعلى، عسكرة المجتمع المدني وتعديل آليات امتلاك السلطة في المجتمع لمصلحة السلطة العسكرية الأمنية.

لقد انقلبت القيم رأساً على عقب في ظل حالة الطوارئ المزمنة هذه. انتشر الخوف وأصبح الشعور بالذل والمهانة مشتركا عند جميع الأفراد وكانت المؤامرة كفيلة بتحطيم الأحلام وكل ما من شانه أن يحمي حقوق الأشخاص، إختلافاتهم الطبيعية وانتمائهم لكل ماهو إنساني.

أصبحت الدولة الّتي كان من المأمول أن تنفذ القانون تمارس عمليات الإعدام بدون محاكمات وباتت وظيفة السلطة السياسية تحطيم السلطة الدستورية. أيّ معنى يبقى للمواطنة عندما يصبح النظام قائما على التهديد الدائم لسلامة الإنسان الجسدية والأخلاقية والنفسية؟

لعل الحوار المأساوي والهزلي في آن معا والّذي دار في السجن بين مهرب للمخدرات وبين سجين سياسي خير شاهد على عدمية المنطق الاستبدادي في محاكمة الأوضاع ومحددات الجريمة والعقاب في ظل السلطة الأمنية:

_ لماذا أنت هنا؟

_ لأسباب سياسية

_ مسكين. مشكلتك خطيرة جداً بالفعل

الحقيقة دائماً، بالمعنى الأكثر بربرية للكلمة، بجانب المنتصر. الغاية تبرر بالضرورة الوسيلة؟ ومن لم يفهم الدور التاريخي للقائد يصبح من الواجب وضعه خارج التاريخ والجغرافيا.

أليست الشرعية هي ثمرة جمود مستنقعي استمر ثلاثين عاماً؟ ألم تغتصب الشرعية عبر التاريخ بوسائل القمع المختلفة؟ ليس من الصعب على الإنسان أن يحكم بأي ثمن. وتبقى حماه وحلبجة وكفر قاسم هنا دائماً لتذكرنا بانزياح السلطة القميء عن وظيفتها نحو تعبيرات العسف الباثولوجية.

طيلة ثلاثين عاماً، لم يكن حديث الشارع يدور حول كفاءة الوزراء وإنما حول المآثر الخالدة لأجهزة المخابرات. لن يُتكلم من الآن فصاعدا عن اكتشافات العلماء وإنما عن وحشية الجلادين وصفقات فسادهم.

ليس للممنوع حدّ، حتى أنك لا تجرؤ على انتقاد مدرب الفريق الرياضي لأنه عين من الأعلى "من فوق".

لماذا نشتري الكتب إذا كانوا سيعاودون أخذ كل شيء كلما فتشوا منزلنا؟ قال طفل لأخيه الكبير.

كونك رجل سلطة فهذا لا يعني أنك آمن بالضرورة. يكفي حادث واحد ليقلب وضعك ويجعلك من التعساء. السلطة التسلطية لا تنشر الخوف وتعممه وحسب، بل تشارك في الخوف ضحاياها. من أجل ذلك تنفذ، وقائيا، الاعتقالات والملاحقات والإعدامات بدون محاكمات. ولكن كم من المواطنين عليهم دفع ثمن هذه الإعدامات الوقائية؟

خلال أكثر من ثلاثين عاماً، سجن أكثر من 42000 شخصا وقمت بتوثيق 3000 حالة في عداد المفقودين. ومازال من الصعب علينا حتى الآن تحديد عدد الّذين قتلوا في حماه بشكل دقيق وعدد الإعدامات الميدانية الّتي نفذت بين عامي 1979-1982.

لقد تطورت القوانين في العالم أجمع خلال العقود المنصرمة الثلاثة. ساهمت الإتفاقات الدولية يوميا في دفع القوانين المحلية، القضائية والمدنية، لتصبح أكثر إنسانية ولكن حالة الطوارئ تساهم بشكل فعلي في تخلف القوانين القضائية وخلق حالة ركود تظهر جلية في

تحطيم المجتمع حتى أنّ استقلال السلطة القضائية يصبح فعلا وقولا مجرد صورة طوباوية عند بعض الضحايا والحالمين.

هو ذا، مستقبل المواطن الآيل للإنقراض والتصحر الثقافي والحضاري.

ليس باستطاعتنا إطلاق صفة "عقيمة" على حالة الطوارئ فقد انتجت لنا حالة من الخضوع والعبودية والكائن الغبي وفي لحظة معينة، ولحسن حظنا، أصبحت الغالبية تتمتع بقدر عال من التسامح والقبول تجاه عجزها وخضوعها.

أسرّت إليّ صديقتي ذات يوم بقصّة سميرة. تلك المرأة الّتي اغتصبها عنصران من المخابرات العسكرية. لقد استغرق الأمر ستة أشهر لتعترف سميرة للمخابرات وتخبر عن اسم صديقتي الّتي بقيت أشهرا عديدة قبل أن تعترف بدورها وتخبرهم عن اسم صديقتهم الثالثة. وبدوري انتظرت 16 عاماً لأكون قادراً على إخباركم بقصّة صديقتي الّتي ماتت مع سميرة بطريقة ماساوية. وكلّ ذلك لأنه، وبكل بساطة، وحدها الضحية هي الّتي تحمل العار في هذا النظام اللاأخلاقي بامتياز. أما بالنسبة للجلادين فالقصّة لا تعدو كونها مغامرة كغيرها من المغامرات.

"لقد مات أخوك لأنه رأى اشياء كثيرة داخل السجن بينما أستطعت أنا أن أنجو لأنني مثلت دور المجنون الّذي فقد ذاكرته. لقد كان لديّ خياران: إما الموت في سجن تدمر أو أن آكل فضلاتي لأثبت أنني لم أعد انتمي أبداً إلى العقلاء"

* * *

مارس مصطفى الحاج علي مهامه كدبلوماسي وأصبح فاروق الشرع وزيراً للخارجية لأكثر من ثلاثة عقود ثم نائبا لرئيس الجمهورية. عبد المنعم أُلحق بأحد البعثات الدبلوماسية قبل أن يجبر على الإستقالة بينما عمل إبراهيم في الإتحاد الرياضي في البلاد. مارس مفتخر الشرع مهاماً عسكرية وسياسية نوعاً ما وذلك للحفاظ على وظيفته بينما إعتقل أخوه لثمان سنوات. بقي عبد الهادي العودات في السجن 15 عاماً بينما خرج حسّن العودات من السجن بعد 11 عاماً وقد فقد بصره. عاش توفيق وحسني في المنفى ثلاثة وثلاثين عاماً وكتب صلاح جديد رسالة إلى ابنته بعد ثلاثة وعشرين عاماً في السجن وقبل أيام قليلة من موته الّذي مازالت كيفيته غامضة حتى الآن.

" إلى الفتاة الّتي أحبها أكثر من أي شيء في هذا العالم

" إلى أحب الناس إلي وأعز مافي الوجود

إلى ابنتي الحبيبة وفاء

ذكرى وآلام وأيام صعبة نمرّ بها..... لعلنا نجد رجعها وأصدائها في هذه الرواية.

وكلي أمل أن نستطيع في المستقبل ترديد ماجاء في نهايتها

_ "فانيا، فانيا، كان هذا كله حلما. اليس كذلك"؟

ما الّذي كان حلما؟

كل شيء.. كل شيء.. كل شيء حدث هذه السنة كان حلما يا فانيا. لماذا هدمت سعادتك؟

وقرأت في عينيها

كان يمكن أن نسعد معا إلى الأبد

وفاء.. يا و... فاء.... هل تسمعيني؟

أنا متفهّم تماما لوضعك ومشاعرك ومدرك بعمق للظروف الّتي أحاطت بك سابقا و تحيط بك الآن

أنا معك. معك يا وفاء وستجدينني دائماً إلى جانبك، ولن أتخلى عنك لحظة

هل تفهمينني يا وفاء كأب، وقبل كل شيء، كصديق؟

وهل أنت مدركة أبعاد المأساة الّتي أعيشها الآن؟ لا أدري يا حبيبتي . قد نلتقي يوماً ما بدون رقابة وبدون سجن فنتحدث....

ونتحدث طويلا... ولكن هذا حلم.

حلم بعيد ... قد لا يتحقق أبداً...

إذاً فليس لي الآن إلا الصمت... والأحلام والصمود.. على طريق الرسالة الّتي نذرت نفسي لها ... وسأموت من أجلها...

فهل سنلتقي يا وفاء... على هذا الطريق؟

1993-8-7

أبوك صلاح جديد. "

* * *

لم يتفاجئ أبي كثيراً بما حدث وقرر الإنتقال إلى الجنوب ليشارك في الإنتخابات الحزبية وقد انتخب مسؤولا عن المنطقة.

غادرنا دمشق. تلك المدينة اللطيفة السمعة أو المعتدلة أو الّتي تحبّ المنفعة. تلك المدينة الّتي يعرف سكانها جيداً كيف يضعون مسافة بينهم وبين عواطفهم وانتقلنا إلى الجنوب. هنالك حيث يشتهر السكان بقساوتهم وبصراحتهم.

لقد أدركنا جيداً انّ الحياة كانت قد تغيرت بعد عودتنا هذه. لقد توجّب على أبي أن يجوب القرى ليشارك في تعبئة القرويين وقد رافقته في رحلته هذه عدة مرات. لقد استقبلنا في بيتنا كبار المسؤولين في الحزب والدولة، وقد سمعت ميشيل عفلق مؤسس الحزب ذات مرة يسأل أبي"كم عدد الناشطين الموجودين في درعا؟" فتعمّدت انتقاد سؤاله لألفت نظره لوجودي.

_ ليست الأهمية في العدد. قلت

_ بالتأكيد. أجاب

كنت أبيع الصحف في الصيف وأشتري كتباً للقراءة لأن القراءة كانت صديقي الأول في هذه الفترة المليئة بالأحداث. بدأت أصعد إلى السطح أسبوعيا لكي أستمع إلى الدروس الخاصة الّتي كانت خالتي "فخامة" تتلقاها وهكذا تعلّمت العزف على آلة الاوكورديون. وتم اختياري في المدرسة أيضاً لأكون ضمن فريق كرة السلة.

ذات يوم كنت مارّاً مع صديقي محمد بالقرب من مبنى المحافظة في مدينة درعا عندما صادفت مظاهرة كانت تطالب بإرسال قوات صلاح الدين إلى العراق لتدعم الحكومة البعثية في بغداد ضد الأكراد. كانت الشعارات تتحدث عن شخص يدعى "مصطفى البرزاني" وتصفه بعميل الإمبريالية. سألت أحد الأهالي المشاركين في المظاهرة

_ ماذا يحدث؟

_ يريد كرد العراق تقسيمها وإنشاء كيان مواز لمعاداة العروبة.

_ ولكن من أين جاء الأكراد؟

_ لقد عاشوا دائماً في العراق

_ هل يعيشون مع العرب؟

_ نعم

_ هل يشبهون العرب أم أنهم أفضل منهم؟

_ إنهم مثل العرب. حتى أنهم أسوأ.

_ إذا لماذا لا يتّحد العرب والكرد ضد الإمبريالية؟

لم يكن مقتنعاً ولحسن الحظ فإنّ تردده هذا أبقاني بعيداّ عن هذه المظاهرة المناهضة للأكراد الّذين سمعت عنهم لتوي، فمناهجنا المدرسية لا تحدثنا أبداً عن الأكراد وتعتبر صلاح الدين الأيوبي رمزاً عربياً إسلامياً.

في الثالثة عشر من عمري، قمت أنا وثلاثة تلاميذ بطباعة مجلة، هذه المرة في مكتب مدير التربية والتعليم في درعا حسين العودات الّذي أصبح أهم ناشرٍ لمؤلفاتي بعد 35 عاماً وشريكا في نضال العمر من أجل الديمقراطية وحقوق الإنسان.

لقد ساندنا حسين العودات المسؤول في مديرية التربية والّذي هو إبن عم والدي في إنشاء هذا المشروع وقد كان اسم المجلة " المهذب". كنا ننشر بدون انقطاع وقد كتبت عن الإستقلال وجنوب اليمن والقضية الفلسطينية.

رغم محاولات الضباط الناصريين الحثيثة إلا أنّ الأمل بحدوث اتفاق مع عبد الناصر تلاشى تماما وكان حديث البعثيين يتمحور حول التأميم والتغيير الداخلي أكثر منه عن الوحدة مع مصر والعراق. لقد كان هتاف الشارع ل " عبد الناصر وعبد الكريم عارف وبن بلة" إلا أن ضباط الجيش لم يقبلوا تقديم البلاد على طبق من فضة لجمال عبد الناصر.

بدأ الحراك يفترس أبناءه والبعثيين الّذين أصبحوا الممثل الوحيد للوحدة العربية لن يعودوا بمنأى عن الصراعات بعد الآن.

جاء صلاح جديد ذات يوم إلى بيتنا في مطلع شباط/فبراير 1966 وبدأ محادثة مع أبي استمرت ثلاث ساعات، وبالرغم من عدم رضاه المطلق عن هذه المحادثة إلا أن أبي لم يهمس ببنت شفة. قررت القيادة القومية في الحزب تهميش العسكريين وتيار التنظيمات

السرية في الحزب في آن معا. وافق أبي على الإنضمام إلى المجلس الوطني لقيادة الثورة ولكن إنقلابا حصل بين البعثيين أنفسهم في الثالث والعشرين من شباط وضع حدّاً لخمسين يوماً من الصراعات. اعتُقل والدي حينها وبقي في السجن عشرة أشهر بدون أن يوجه له أي إتهام أو تجرى له أية محاكمة.

خرجت مظاهرة في الثالث والعشرين من شباط من أمام مدرسة الحرس الوطني لتبحث عن الطلاب من المدارس الآخرى حينها اعتُقل توفيق من قبل إبن عمه في حركة 23 شباط. إحتدم الصراع العائلي أمام مدرسة التعليم العالي وهدد المدير كل الطلاب الّذين يشاركون في المظاهرة بعدم دفع الأقساط لهم.

عندما وصلت هناك سألني توفيق:

_أين والدك؟

_موقوف

_ إسمعوا، أبو هيثم موقوف

_ "لا" قالها بعض الطلاب محتجين

_ أخذني أخو توفيق غير الشقيق بين ذراعيه قائلا " أبوك معتقل"

_ نعم.

إسمعوا. صرخ بأعلى صوته. " إخرجوا جميعكم إلى المظاهرات وتعالوا آخر الشهر لتقبضوا رواتبكم من متجري". كانت المظاهرة ناجحة إلى حد كبير ولكن الحياة استمرت مع القادمين الجدد.

طيلة فترة اعتقال والدي كنا نعيش بفضل أمي الّتي لم تنقطع عن العمل يوماً.

بعد ثلاثة أشهر من اعتقال أبي قال لنا مدرس التربية الدينية في أحد الدروس:

_ النساء ضعيفات وقاصرات. كونوا طيبين معهن

فقلت له:

_ أستاذ، إذا كنتُ موجوداً هنا اليوم فهذا يعود لأمي. إنها هي من تطعم وتدرس أطفالها الستة لأن أبي في السجن. لم أر أحدا من أخوالي أو أعمامي جاء ليقدم لنا أية مساعدة. إذا كان للتخلف الّذي نعيشه من سبب، فهو هذا الخطاب الّذي تتكلم به يا أستاذ.

_ طردني قائلا: أخرج من الصف. إلتقطت أغراضي وخرجت.

كان أبي محتجزا في مكان مخصص للضباط يطلق عليه "إستراحة القابون" يقع بالقرب من دمشق. زاره صلاح جديد مرتين وتحدث معه ومع الآخرين ولكن أبي رفض أن يتعاون معه.

كان أبي يردد على مسامع كل من يريد سماعه " إنها ليست مسألة يمين ويسار، إنها مسألة اختيار بين الحزب والجيش". ولكن حتى خالد بكداش السكرتير العام لحزب البعث كان يقول أن الضباط التقدميين هم ثروة كبرى لسوريا.

كان جميع السجناء موجودين معاً. في دولة الإستبداد لا نستطيع أن نتكلم عن السجن. كان للسجناء حق الطعام والنقاش مع بعضهم البعض في آن معا لمدة ساعتين يوميا.

حالفني الحظ في إحدى زياراتي للسجن عندما إلتقيت صلاح الدين البيطار مؤسس حزب البعث ورئيس الوزراء الأسبق ووزير الخارجية في الفترة الّتي سبقت 23-2-1966. مثقف متخصص بالشؤون الخارجية. كان يدهشني باضطلاعه الواسع عندما كان يتكلم عن "بيافرا" والحرب الأهلية النيجيرية، عن اليمن وأمريكا اللاتينية. لم أكن أعلم حينها أنني سأمرّ بعد ثلاثة عشر عاماً على عائلته في باريس وبرفقتي فيوليت داغر لنقدم لهم التعازي بوفاته عندما سيقوم نظام حافظ الأسد باغتياله هناك.

أطلق سراح أبي في كانون اثاني وعاد لمزاولة مهنة المحاماة. كنا محظوظين لرؤيته دائماً في البيت لاكثر من خمسة أشهر.

بالرغم من تحضير الطلاب للإمتحانات إلا أن أجواء الحرب كانت طاغية على كل شيء. إنّ التأهب العربي للحرب كان إعلاميا أكثر منه أي شيء آخر. بالنسبة لنا، قررنا أن نقاطع سارتر لأنه كان يخون مبادئه في محاربة الإستعمار عندما قرر دعم دولة إسرائيل. في غرفة محمد أحد اصدقائي والّتي كانت مقرّاً لاجتماعاتنا كنا نعلق على الحائط، جنبا إلى جنب، صور كل من شارل ديغول وتشي غيفارا.

في الخامس من حزيران 1967 وفي يوم بدء امتحانات الشهادة الإعدادية كانت الطائرات الإسرائيلية تحلق في أجواء درعا عندما خرجنا من القاعة. محمد وأنا كنا نركض من شدة دهشتنا كالمجانين لا نعرف إلى أين، وحده التعب استطاع أن يوقفنا.

_ ماذا نفعل؟

_ كما يحدث في الافلام. ننبطح على الأرض

في مقابل مكان وقوفنا شاهدنا أبو عدنان الفلسطيني جالساً بهدوء على كرسيه ومحدقا في السماء

_ الأنذال. إنها طائرات الميراج

نظر محمد إلى السماء تماماً كما كان أبو عدنان يفعل وقال:

_ أنت على حق عم أبو عدنان. إنها طائرات الميراج.

تبخّر الخوف من داخلنا وتابعنا طريقنا إلى المنزل. في المساء مرت قطعة عسكرية في المدينة فخرج السكان مسرعين يحملون لهم الطعام ويدعمونهم ويشجعونهم. عندما بدأنا نستقبل اللاجئين ونرى الجنود عائدين من الجبهة كانت إذاعة صوت العرب تعلن أنباء الإنتصارات على الجبهة المصرية وعندها فقط فهمنا كل شيء.

كان على الطفولة أن تكبر فجأة. شكّلت مع عشرة من رفاقي مجموعة للمساعدة في نصب خيام اللاجئين. لقد تعلمنا ذلك عندما كنا في الكشافة. كان المسؤولون مندهشون من نشاطنا وفاعليتنا.

إقتربت ذات يوم أنا وهشام من عائلة كنّا نعرفها كانت قد جائت من الحمّة الّتي كنا نقضي عطلنا فيها والّتي تعتبر مركزا للإستشفاء بمياهها المعدنية الغنية. طلبت من أحد الأصدقاء أن يعد الشاي لأبي سعيد الّذي سلّم عليّ وقال بمرارة وحزن:

_ لقد فشل جيلنا وعليكم أنتم أن تأخذوا المبادرة.

_ سوياً ياعم. سوياً

ظلّ ساهباً للحظات ثم انفجر بالبكاء وتوجّه إلى السماء متضرعاً:

_ قل لي يارب لماذا؟ لماذا؟ لقد أتممت كل واجباتي الدينية وصلّيت لك دائماً، لم أؤذ أحداً ولم أفعل السوء أبداً. لقد طردنا من حيفا كالكلاب في 1948 وبدأنا حياتنا كلها من جديد

وها أناذا اليوم في آخر حياتي أرى المشهد نفسه يتكرر من جديد وأبداً كل شي من جديد أيضاً. لماذا؟ لماذا؟ !!!! أهو روسي أم بولندي أم فرنسي أم لا أعرف من ذاك الّذي سياتي ويطالب بمنزلي ويستولي عليه وكأنه ملكه الخاص... دينك كله بات مثيرا للضحك ومخلوقاتك قتلة ومجرمين وأنت، أنت لست ظالما فقط بل أنت مجرم.

لا أعرف كيف استطاع هذا الرجل وبعد كل هذا الكلام المثير للشفقة أن يجد له ملجئا في الظلمات ليصلي قبل النوم.

إنّ تنهّدات البراءة المرتجفة وضبابية الحق وطوفان المظالم، هي التي دفعتني للمرة الأولى في حياتي إلى طرح الأسئلة حول وجود الله.

كتبت رسالة تحت عنوان "إلى العرب" تحدثت فيها عن عقلانية الإسرائيليين ولا عقلانية العرب. كنت فخورا جداً عندما نشرت الأسبوعية البيروتية "الأسبوع العربي" رسالتي الصغيرة، الشيء الّذي لم يمنع الحاسدين من القول أن أبي هو من كتب هذه الرسالة وأن يوقفني فرع الأمن السياسي بتهمة استعمال اسمي للتغطية على مقالات لوالدي الخارج من السجن.

رجلان سوريان فقط إتهما وزير الدفاع بالجبن والغباء في الحرب ضد إسرائيل. الأول عبد الكريم الجندي الّذي قال الجملة الشهيرة "إستقال عبد الناصر وانتحر رئيس أركانه ومازالت وزارة دفاعنا تروج لنفسها". إنتحر عبد الكريم الجندي في ظروف غامضة. والثاني خليل بريز الّذي ألّف كتاب "سقوط الجولان"، خُطف في بيروت في العام 1970 ليمثُل بعدها أمام محكمة ميدانية ويحكم عليه بالسجن خمسة عشر عاماً ويبقى فيه سبعة وعشرين عاماً.

عند العودة إلى المدرسة بعد إمتحانات كنا قد أجريناها في هنغار عسكري، كنا متفقين جميعاً على شي واحد "لقد فشل الجميع، عبد الناصر وحزب البعث والآخرين". كان علينا البحث عن شيء آخر. في هذه الاوقات كانت المقاومة الفلسطينية تزداد أهمية يوماً بعد يوم وكنا جميعاً في المدرسة مأخوذين "بالفدائيين". شكلنا مجموعة من السوريين والفلسطينيين لجمع الاموال وقد أعطانا مسؤول حركة فتح عدة نسخ من " التقويم السنوي" لكي نبيعها لصالح الحركة.

_ عليك أن تقول بأنك فلسطيني. نحن لا نريد المشاكل مع الحكومة السورية

_ نعم، موافق. أجبت مسؤول حركة فتح المحلي

بعد خمسة أيام ذهبت لتسليمه المال، كان مسروراً به جداً لكنه قال أنه تلقى إعتراضات على هذا النوع من العمل المشترك مع شبان سوريين ولذلك اعتذر عنه. بكيت حينها كالأطفال وطلبت من صديق فلسطيني أن يعقد لنا اتفاقا مع منظمة فلسطينية أخرى كانت تقبل العرب من غير الفلسطينيين ضمن صفوفها. اقترحوا علينا بعد يومين أن نلتحق بمخيم للتدريب شبه العسكري. تكلّمت مع نضال ومحمد، الشابان السوريان في المجموعة، وكانا موافقين على الإنضمام.

في المساء تحدثت مع والدي ولكنه لم يكن مقتنعاً.

_ سيأتي اليوم الّذي ستكون فيه قادراً على تقديم أضعاف ما تقوم به الآن للقضية الفلسطينية.

_ لا أريد أن أنتظر حتى يأتي الإسرائيليون ويحتلوا منزلنا. إنهم على بعد أقل من أربعين كم من هنا.

_ تعرف جيداً بأنك حرّ في فعل ماتشاء.

عانقت أمي الّتي لم تكن بدورها أيضاً مقتنعة كليا بما أفعل. إستقليت الحافلة إلى دمشق ثم إلى منطقة "أم الشراطيط" لأتجه بعدها إلى المعسكر سيراً على الأقدام.

على العكس من النقاشات الغنية الّتي كانت لدينا في الجنوب، كانت النقاشات شبه معدومة في المخيم وكانت التحضيرات التقنية مصحوبة بحركات عدوانية شبه مجانية.

لقد كان من شبه المحرّم علينا التحدث عن أي شيء لا يتعلق بالأمور العسكرية وبدأنا نشعر أنّ القائمين على المعسكر لا يشبهون أبداً هؤلاء الفدائيين الّذين نعرفهم.

إنّ العقاب غير الإنساني الّذي تلقاه نضال شكل حجة لنا لنحضر أنفسنا لمغادرة هذا المعسكر الّذي استمر وجودنا فيه أسبوعاً واحداً.

كانت أمي سعيدة جداً بعودتي بينما سألني أبي عن رأيي بهذه التجربة؟

_ إنها قضية عادلة ولكن ربّما لا نعرف كيف ندافع عنها.

_ بني، فرق بين المثالي والواقعي

_ لماذا إذاً تدافع عن المثاليات؟

_ ليس هناك أنبل من أن يكون للمرء مبادئ في هذه الحياة.

لقد باتت أوضاع الناصريين شاحبة اللون بينما كان الإشتراكيون العرب يمرّون بأزمة عميقة. وبسبب خيبة أملي من العلمانيين بدأت بقراءة كتب حركات الإسلام السياسي بشيء من العطف. أبو الأعلى المودودي الباكستاني وسيّد قطب المصري ومصطفى السباعي السوري الخ...

لقد أعطتني قراءة المودودي إنطباعا بأنه يسعى للحكم، بينما كان سيّد قطب يسعى لترسيخ فكرة الجهاد. لم يكن المودودي الّذي يعتبر الأب الشرعي للجانب النظري من فكر سيد قطب شاعراً مثله. لكنه بالتأكيد وضع فيروس الفكر التوتاليتاري (الشمولي) المغلق في الإسلام السياسي.

لم يكن عندي أي تعاطف مع الإخوان المسلمين وكان لدى مجموعتنا الشابة مشروعها الخاص. إنشاء تجمّع سرّي للشباب باسم الفتية المؤمنة، تجمّع يسعى إلى الإصلاح والتجديد. إنضم لنا عدد من الشباب بينما رفض آخرون هذه الخطوة. كانت لدينا عدة نقاشات مع طلاب الإخوان المسلمين وذهبت إلى حماه للقاء مروان حديد الّذي كان عائدا من مصر والّذي كان يعتبر الشخصية البارزة للإخوان. وصل النقاش الّذي دار بيننا، بسرعة فائقة، إلى طريق مسدود.

_ تجديد؟ ماذا تعني ب " تجديد"؟ وهل الإسلام سيارة قديمة؟ الإسلام هو قول الله. خالقنا. لا يحق لنا نحن البشر" الضعفاء" أن نغير فيه بأي حال من الأحوال.

_ ولكن كل منا يقرأ كلام الله كما يريد.

_ "يا عيني" يعني أهل الإسلام مخطئين منذ أربعة عشر قرناً وكان علينا انتظار قدومك الميمون حتى "تصوب" المسلمين.

_ إنّ عامل الزمن مهم جداً ولذا كان "الخلود" لله وحده، اختصّ به نفسه. أنا وأنت لسنا خالدين ألا توافقني الرأي؟.

_ بني، حذار. وإلا ستغدو مبتدعا. يجب أن يكون دخولك في حظيرة المؤمنين أبديا وأن لا تشوهه لوثة الشك.

عند عودتي رويت هذه القصّة لأحد أصدقائي في المجموعة فأهداني كتابا بعنوان "قصّة الإيمان". يروي الكتاب نقاشا يدور بين شاب يمارس الشك ورجل دين يجيب على أسئلته. ما إن انتهيت من قرائته حتى كانت هذه القصّة نقطة الفراق بيني وبين التدين. وعندما

أعلنت قراري هذا لأصدقائي إنقسم التجمع قسمين: انضم القسم الأول للإخوان المسلمين وأنشأ القسم الثاني مجموعة تحت اسم "الإنسانيون العرب" ضمت عشرين عضواً.

كانت سنة 1970 قاسية جداً. درست كثيراً لإمتحانات البكالوريا وبنفس الوقت كنت أتابع الكتابة باللغة الإنكليزية لصحيفة "الفجر" المدرسية متابعا عملي على إكتشاف التاريخ العربي الإسلامي في القرون الوسطى. لقد كانت أحداث الأربعين سنة الأولى من التاريخ الإسلامي كفيلة بأن تزيل بشكل كلي هذه الصورة المثالية الّتي رسمها سيّد قطب في كتبه. يا للعجب!!! كم هو عظيم مقدار المثالية الّتي رسمت بها صورة الإسلام من قبل الأصوليين والكتب المدرسية على حد سواء!!!

ذات يوم دخلت إلى البيت لأروي لأبي عن الأعمال الوحشية الّتي ارتكبها المسلمون خلال حروب الردة قائلا له:

_ بأي منطق مازال الناس يؤمنون حتى اليوم؟

_ إنهم بحاجة لذلك. حتى الإتحاد السوفييتي عقد صلحاً مع الأديان.

_ الإنسان!!! غبي.

_ الإنسان هو أنت وأنا. بإمكاننا الحدّ من غبائنا.

في هذه المرحلة أخذت كلمة "استلاب" أهمية حيوية في حياتي لأن فلسفتي في الحياة كانت تتلخص في الإيمان بصلاح الإنسان وتحرره.

"على العكس من الإسلام الّذي يزعم أن النفس البشرية "أمارة بالسوء"، نحن سنعتبر الإنسان كالطفل البريء الّذي لوثه هذا المجتمع المجنون. يهدف نضالنا إلى تحرير الإنسان من كل أشكال الاستلاب". هذا ما أحتفظ به من خطاب لي ألقيته في العام 1970.

قبل ثلاثة أيام من عيد ميلادي الّذي لم أكن عادة أحتفل به، أيقظتني أمي صباحاً:

_ لم يعد أباك من البارحة. يقول أحد الجيران بأنهم أوقفوه على حاجز بلدة الشيخ مسكين على طريق دمشق. لا داعي للذعر يا بني فأنت لديك إمتحاناتك وعليك اجتيازها بنجاح.

بعد يومين تم اعتقال ناصر الّذي كان يعمل مع أبي. بالنسبة لي كان يتحتم عليّ أن أهمل الدراسة قليلا ريثما أقوم بنقل القضايا والوكالات الّتي كان والدي يقوم بها، إلى محامين آخرين. لقد كنت في سباق مع الزمن حتى استطعت أخيراً العودة إلى كتبي المدرسية.

وكانت هذه المرحلة فرصة لي لاكتشاف نوعية الأعمال الّتي يقوم بها المحامي واكتشاف شخصية أبي على وجه الخصوص.

ذات يوم دخل أحد الموكلين ليسأل عن قضيته وعندما أخبرته بأن أبي كان قد ربح الدعوى سُرّ كثيراً وشكرني وشكر أبي

_ هل هناك شيء آخر سيدي؟

_ نعم يا بني. إنّ والدك حماه الله كان يعطيني أجرة الطريق لأنني لا أملكها.

_ أنا آسف. لا تقلق أنا سأهتم بذلك

للحياة دوما مصادفاتها المأساوية. بعد واحد وأربعين عاماً (2011)، وبالضبط قبل أسبوعين من عيد ميلادي، علمت بنبأ وفاة والدي وأنا في مدينة "مالاكوف". لقد فقد الحياة متألما من دخول الجيش السوري إلى مدينة درعا. لم يحتمل فكرة مواجهة الجيش السوري للشباب العزل بالمدرعات.

قضى أبي ما مجموعه ستة عشر عاماً من عمره في السجن وقد حرمني السجن والمنفى من رؤيته لمدة سبعة وعشرين عاماً. أبي الّذي ينتمي لجيل أولئك الشجعان الّذين يؤمنون بالمبادئ. أبي الّذي لا يمكننا رؤية رجال من أمثاله في أيامنا هذه إلا ما ندر.

في يوم الإمتحانات اقتحمت المخابرات بيتنا لتفتيشه في الخامسة صباحا. كان أبي يمتلك مسدسا تشيكيا صغيراً قديماً وكنت قد أخفيته مع جميع أوراقه الخاصة في نفس اليوم الّذي اعتقل فيه. لم يجدوا شيئا ولكنهم أضاعوا لي يومي وكان أدائي الدراسي في مادة الطبيعيات متوسطا وبالرغم من ذلك استطعت أن أحقق في الأيام التالية نتائج وضعتني بين الطلاب الأوائل على سوريا.

بدأ الظلم يمسني شخصيا بعد أن حُرمت من المنحة المقدمة للطلاب العشرين الأوائل على سوريا وذلك فقط بسبب إلتزام والدي السياسي.

ذهبت أنا وأمي إلى دمشق وزرنا إتحاد المحامين لنرى ما يمكننا فعله من أجل أبي. قال رئيس الاتحاد بأنه لا يستطيع فعل أي شيء لمعرفة مكان أبي ولكنه قال بأنّ الاتحاد سيخصص لنا مبلغ 120 ليرة سورية شهريا. شكل الأمر خبرا رائعا بالنسبة لي، لأن أمي وعدتني بأن تعطيني المال اللازم لإكمال دراستي في كلية الطب. اقترح علينا الإتحاد عدم إلغاء إشتراك مكتب أبي في النقابة ليكون بإستطاعتي العمل فيه في الصيف قبل بدء الجامعة. وطلب مني أن أقابل الأستاذ موفق الدين الكزبري رئيس الرابطة السورية للدفاع

عن حقوق الإنسان، أول هيئة للدفاع عن حقوق الإنسان في الوطن العربي. تم تأسيسها في العام 1962. استمع إلي بكثير من الإحترام ثم قال معلقا:

_ لسوء الحظ لا يمكننا فعل أي شيء. ليس لدينا الحق حتى في طرح الأسئلة.

عند عودتي إلى مكتب أبي جاء رجل إلى المكتب وقال أشياء عن تقديره للنظام الّذي وجده في المكتب

_ أنا مستعجل كثيراً. هل أستطيع ان أعرض عليك قضيتي؟

_ نعم ولكن بشرط أن يوافق هؤلاء الّذين دورهم قبلك

_ من النادر أن نسمع شيئا كهذا في بلادنا. ما اسمك؟

بالكاد إستطعت لفظ إسمي. عاود الرجل سؤالي

هل تعرف صاحب هذا المكتب؟

_ هذا مكتب أبي.

في اليوم التالي عاد الرجل وكنت وحيداً في المكتب

_هل تعلم أين يوجد والدك؟

_ لا.

_ هل تريد أن تعلم؟

_ ما هذا السؤال يا سيدي؟ إذا كان والدك مفقودا منذ شهرين ألا تكون لديك الرغبة بمعرفة مكانه؟

_ قابلني غدا في الثامنة مساءاً في دمشق أمام مشفى دار الشفاء.

_ بالتأكيد. ألا تريد أن تشرب شيئا؟

_ لا، شكراً جزيلا. أريد أن أعود إلى دمشق. ولكن إنتبه، لا تخبر أحداً بموعدنا.

_ بالتاكيد

بالتأكيد رويت القصة لأمي لكي لطمئنتها. في اليوم التالي إنطلقت إلى دمشق. في الطريق إلتقيت بصديق لوالدي

_ ماذا ستفعل في دمشق؟

_ أريد أن أذهب إلى الجامعة.

_ هل بدأت بالفعل التسجيل في الجامعة؟

_ بدأ التسجيل مبكرا هذه السنة.

لقد كنت مسروراً للغاية كوني لم أكن أستطع أن اتخيل ماذا سيحدث. كان هناك شيء في داخلي يؤكد لي أن أبي مازال على قيد الحياة وأنني سأراه في التاسعة مساءاً. مشيت كثيراً ثم أخذت الحافلة ووصلت إلى المكان قبل ثلاثين دقيقة. ولكنني قمت بجولة صغيرة حتى لا ألفت الإنتباه. في الثامنة مساءاً ذهبت إلى المكان المحدد ووجدت الرجل هناك.

دخلت بصحبته إلى كراج بناء الأمن السياسي ثم دلفنا إلى المطبخ. إقترب أحد الطباخين مني، إنه أبي!!

عندما أخذته بين ذراعيّ، كان الألم يعتصره. كان هزيلا للغاية وكان يعاني من آلام في كامل جسده وكانت قدمه متورمة.

_ كيف حالك؟

_ سأتحسن. إحتفلنا بنجاحك في البكالوريا

_ أنت؟ كيف؟

_ إستطعنا معرفة النتائج من الصحف.

أعطاني رسالة وطلب مني أن أبقى متيقظاً.

_ طمئن أمك، أخبرها بأن الزيارات ستتاح قريباً.

لم أستطع البقاء لفترة أطول. طلب مني الرجل المغادرة، بطريقة لبقة. قبل أن أغادر أصرّيت أن أعرف إسم هذا المحسن الّذي ترك عمله في المخابرات بعد هذا اللقاء بثلاثة سنوات.

لقد قلبت صورة أبي بهزاله الشديد حياتي رأساً على عقب. لقد كان شديد التعب، وقد بانت على ملامحه آثار التعذيب. لقد احتفظت دائماً بهذه الصورة في أحد زوايا مخيلتي ولكنني كنت أقنع نفسي وأقول دائماً بأنه حي وهذا هو المهم. أما الصحة فستعود لاحقاً كما كانت.

إجتزت الحي بإتجاه مركز المدينة، سيراً على الأقدام، ثم إلى منطقة باب مصلى لأعود إلى درعا.

في طريق العودة قرأت رسالة أبي. لقد تحدث عن عمليات التعذيب الّتي يتعرض لها كل المعتقلين وعن موت مصطفى إثر ضربه على رأسه وعن الضلوع في التخطيط لمؤامرة مسلحة، هذه التهمة الّتي وجهت للجميع.

"بعد أسبوع من تعذيبي بالدولاب، سألني الجلادون عن المكان الّذي أخفيت فيه السلاح"

_ لا أعرف عن ماذا تتحدثون. أنا حتى لم أدخل في الخدمة الإلزامية ليس فقط لأنني وحيد بل لأنني دفعت المال لأحصل على عفو عن الخدمة.

_ قل لنا عن مكان السلاح وسنتركك وشأنك.

"لقد إضطررت إلى الاعتراف والقول بأنني أعرف مكان السلاح بغية جعلهم يتركوني وشأني. إخترت نبع بردى لأنه مكان جميل في الربيع بالفعل. هناك، قمت بالبحث وإثارة ونبش بعض الأماكن وأشرت لهم عن المكان وعندما شعروا بأنني كنت أكذب أعادوني إلى الإستجواب والتعذيب. ولكنني استطعت التنفس لبضع ساعات من الراحة كانت كفيلة بالسماح لي بالمقاومة لتسعة أيام أخرى ريثما تنتهي هذه المحنة الرهيبة".

ولكن كيف يستطيع الإنسان فعل شيء كهذا؟ كيف يتسنى له ممارسة التعذيب لستة عشر يوماً متواصلة دون توقف؟ كيف يستطيع النوم بعد يوم واحد من التعذيب؟

يجب على التعذيب أن يختفي. يجب عليه أن يُمنع، ولكن من الّذي سيمنعه؟ وكيف؟ إنّ الدولة تمارس التعذيب والمجتمع أيضاً، العم لينين والعم سام، في إسرائيل وفي السعودية، كلهم يمارسون التعذيب. إن التعذيب موجود في كل مكان. لماذا لا يوجد أعداء للتعذيب بشكل كاف؟ لماذا يمارس التعذيب على الأرض ويحكم به يوم القيامة؟ لماذا أصبح أبي بعثيا؟ لماذا لم يقل شيئا أبداً عندما قام الجيش بما أسماه "الثورة" ؟

أفكار واستفسارات كثيرة تزاحمت في رأسي ولم أعد أحتملها. في السيارة الّتي أقلتني إلى البيت. مساءاً، أغمضت عيني ورأيت ملائكة جهنم تعذب الرجال والنساء وتشوههم.

لكي نحارب التعذيب يجب علينا القيام بثورة ثقافية حقيقية، ثورة حضارية تكون كفيلة بتغيير العالم والدساتير والإنسان، ثورة تكون كفيلة بتحويل السجون إلى متاحف. ثورة تعطي حرية التعبير للأصدقاء والأعداء على حد سواء، إننا بحاجة إلى ثورة إنسانية.

قطع سائق التاكسي علي حالة الشرود هذه بالقول:

_ هيا، ألا تريد النزول، لقد وصلنا لدرعا.

أخبرت والدتي بأن حال أبي جيدة ولكن كان لدي شعور قوي بأنها لم تصدقني. المهم بالنسبة لها، أنه كان على قيد الحياة.

كأن ثورتي ضد التعذيب لم تكن عميقة بما يكفي، بعد عدة أيام، دخل عليّ قروي في الخمسينات من عمره، إلى المكتب. وضع قبضتيه الكبيرتين، الّتين لا يوجد مثلهما إلا في الروايات، على الطاولة وقال:

_ سجل عندك يا بني: أريد أن أقيم دعوى قضائية ضد الدولة. طلبٌ من أبٍ لفتح تحقيق في كيفية موته إبنه مصطفى، المولود في محافظة درعا.

كنت أقف أمام والد السجين الشيوعي مصطفى الزعبي، والّذي قضى تحت التعذيب. صافحته بحرارة مرة أخرى بنفسٍ ملؤها الإعجاب والتقدير.

_ هدئ من روعك ياعم، هدئ من روعك. ألا أحضر لك شيئا تشربه؟

_ عن أي راحة تتحدث ياولدي، عن أي راحة. لقد حرمني هؤلاء المجرمون من الراحة. كيف تطلب مني أن أهدأ وأرتاح بينما إبني الصغير لم يكن له الحق حتى في الحياة؟

_ إهدأ ياعم. لن يدوم هذا الوضع إلى ما لا نهاية. حتى الأنبياء لم يحصلوا على الخلود.

_ ولكن ولدي مات. انتهت حياته قبل أن يبلغ الثلاثين من عمره. هؤلاء الأوغاد!! ماذا فعل لهم لكي يعذبوه كالكلاب؟ ألأنه شيوعي؟ ولكن نصف الكرة الأرضية شيوعية، لا تقل لي بأن لديهم الرغبة بقتل نصف الكرة الأرضية. ثم لماذا التعذيب والتشويه؟ لقد رفضوا حتى أن نقيم له العزاء ولكننا أقمنا له عزاءاً بالقوة. لكنني نادم بشأنه. لم أكن أعلم أنه يوجد على كوكبنا مثل هؤلاء الوحوش وأن بإمكانهم القيام بما فعلوه بولدي.

إنهار هذا الرجل القوي والهادئ وراح يبكي مثل الأطفال. لكن المأساة تكمن في أن المخابرات كانت قد هددت المحامين لرفض أي فعل قانوني لصالح الرجل. وما منعني من الشروع في تسجيل الطلب، أن المحامي الذي وعده بتبني الملف، قد انسحب من هذه القضية بعد تلقيه تهديدات من المخابرات.

كان الحر شديدا في تلك السنة أو ربّما لا تعدوا المسألة كونها تقييم ذاتي بحت لأن الأزمة بين الفلسطينيين والملك حسين ملك الأردن إتخذت منحاً تصادمياً.

في سوريا، كان الصراع بين البعثيين القدامى بقناعاتهم من جهة وبين الفريق العسكري الّذي كان يدار من قبل وزارة الدفاع بهدف استلام السلطة ، من جهة أخرى، كان الصراع بينهما قد بلغ مداه ولم يعد أمام حافظ الأسد سوى القيام بإنقلاب عسكري للإستفراد بالقرار الحزبي والسياسي.

في هذا الصيف، سجلت في كلية الطب في جامعة دمشق ثم ذهبت إلى مكتب الفدائيين في درعا لأطلب منهم أن ألتحق بالفلسطينيين في الأردن.

_ هل قمت قبل ذلك بأية تدريبات عسكرية؟

_ لا.

_ هل لديك قليل من الخبرة؟

_ لا. نعم ... قليل منها، تدريبات الفتوة في المدرسة.

_ إسمع، هذه حرب وليست لعبة

_ ولكن يجب علي القيام بشيء ما

_ هل تعرف شيئا عن الطبخ؟

_ بالتأكيد. طبعا

_ عظيم. إن الفدائيين بحاجة للطعام وليس لدينا ما يكفي من الطباخين.

قبل طلب التحاقي. وأنا خارج، همست إلى صديقيّ الإثنين بأن يطلبوا العمل في المطبخ من أجل أن يقبلوا. وقد تم ذلك بالفعل. ذهبنا ثلاثة، ثلاثة مشاريع أكاديميين مستقبليين، ولكنني عدت وحيداً. فرق الموت بيننا. لقد شائت الصدف أن يقصف المكان الّذي كانوا يعملون به بينما يبقى المطبخ الّذي عملت به بقي سالما.

مجموعتنا كانت الأولى الّتي انسحبت. ماذا يفيدني وصف هذا الأيلول الأسود. لقد تشابهت المعارك ولكنني لم أستطع حتى أن أكون شاهداً عليها. لقد كنت هناك طباخا لا جنديا. نحن، المتطوعون العرب كان لدينا شعور بأن هذا العالم ظالم، لأنه طلب الكثير الكثير من الفلسطينيين، أشياء تفوق آلاف المرات قدرة جيل أو جيلين. هذه الحرب القذرة وضعت وجها لوجه أناسا فقدوا كل أسباب الأمل مع ملك أراد ان يحافظ على السلطة متكئا على إرث وهمي. لقد ظل الملك حسين وياسر عرفات في مناصبهم كقادة حتى نهاية القرن

العشرين بينما اصدقائي، أصدقائي، رحلوا باكرا جداً. ليس من السهل على الإنسان الموت في عمر التاسعة عشر. لم أكن أقوى حتى على إخبار أمهاتهم.

لقد كانت عائلتي في دمشق تقوم بزيارة لوالدي عندما سمعنا ذات مساء صوت القرآن الّذي بثه التلفاز عوضا عن برنامج شعبي. وكأنه كان ثمة مكان فينا لم يغمره الحزن بعد. لقد أعلن المذيع وفاة جمال عبد الناصر. لم نكن ناصريين بالضرورة ولكن العائلة كلها بكت حتى أختي الصغيرة هتون كانت تبكي دون أن تعلم السبب.

كانت الجامعة ستبدأ بعد عدة أيام. لقد كانت نهاية حقبة ليس فقط على المستوى الشخصي ولكن على مستوى المنطقة كلها.

الجامعة

أعطتني جدتي لأمي شقة صغيرة من ثلاث غرف، "نصية" كما يقال بالعامية ومظلمة قليلا يبلغ ارتفاع سقفها المترين. كنت محظوظا لأنه لم يجب علي العيش في المدينة الجامعية أضف إلى أن السكن الخاص غال جداً في دمشق. لقد عرفت دائماً كيف أبدي لها شكري من خلال لفتات رمزية نظرا لكونها ليست بحاجة للمال. كانت عادتي أن أناديها " أمي الكبيرة" لأنها كانت تهتم بنا في كل مرة كانت أمي تضطر لتركنا بسبب امتحاناتها. نظرت من النافذة فوجدت في قبو المبنى المقابل نادٍ للياقة البدنية. كانت الشقة تفتقر إلى أشعة الشمس والهدوء لأنه كانت توجد عند مدخل البناء عدة متاجر لإصلاح كل ما يتعلق بميكانيك السيارات.

إنه حي الإطفائية وسط دمشق. كانت هناك ميزة كبيرة. كنت أستطيع الوصول إلى الكلية مشيا على الأقدام. لقد رتبت أمي الشقة وهيئتها لتكون قادرة على المجيء كل شهر مع العائلة لنقوم بزيارة والدي الّذي كان قد نقل إلى سجن المزة ثم نقل بعد ذلك إلى سجن القلعة.

بجانب البناء، كانت نساء قرية كفرسوسة يأتين كل صباح ليبعن منتوجات مزارعهم وخبزهم المشهور. في الأسفل أيضاً هنالك مطعم بور سعيد العجائبي، بزبائنه من العمال والحرفيين الّذين يعملون في الحي. أسعاره رخيصة ومذاق طعامه شهي: المشوي والحمص والمتبل إلخ....

غالبا ما كان يحضر أربعة أو خمسة من رفاقي على الغداء. كان يكفي ان نطلب من المطعم وما إن ننتهي من تناول الشاي حتى يصل الطعام إلى المنزل. في المساء، غالبا مانكون عند محل بيع العصائر: كوكتيل بالفواكه، الموز، التفاح والعنب. بالمختصر كان سعر كوب العصير بالفواكه الموسمية والحليب 70 قرشا. وماعدا ذلك يبقى سعر سندويش الفلافل 50 قرشا.

لقد كان البيت الّذي شيدته العائلة بعيدا عني. هذا البيت الّذي كان يكفي أن تصعد فيه الدرج لتشاهد شروق الشمس وغروبها. وتشاهد حقول القمح الّتي كنت أعبرها حاملا كتابي وقلمي، آلاف المرات، ناهيكم عن النزهات الليلية الّتي تجمع الشبيبة عند أبواب المدينة.

لقد تغير الجنوب سريعا خلال الثلاث سنوات الّتي مرت. إحتلت إسرائيل كلا من الحمة والقنيطرة بينما غزا لاجئو الحرب قرية المزيريب وبحيرتها وأقيم معسكر آخر للاجئين

السوريين هذه المرة بجانب معسكر اللاجئين الفلسطينيين في درعا. كانت المدينة تشهد أزمة عمل وهاجر كثير من الناس بغية البحث عن عمل إلى كل من دمشق، بيروت ودول الخليج.

في دمشق ثمة هوامش للحرية الاجتماعية لا يجدها المرء في درعا. لقد تركت شقتي عدة مرات لأصدقاء لي كانوا على موعد مع عشيقاتهن. كان يحدث ذلك في دمشق دون أن تسمع أي إعتراض من أي أحد. ولكن إذا حصل هذا الشيء في درعا فأنت حتما أمام فضيحة كبيرة. إن المجتمع الصغير في درعا يراقب ويتحفظ على تصرفات أفراده. كل حركة وسكنة كانت تحسب عليك وتؤثر على تقدير الناس لك وتضع سمعتك على المحك. من المستحيل بالنسبة لي نسيان مأساة فاطمة والقيمة الّتي كانت تعطيها للتمثيل الثقافي والإجتماعي. فاطمة، هذه الفتاة الّتي كانت سليلة أكبر عائلة في المدينة كانت لها علاقة سرية مع أبناء احد الموظفين من اللاذقية. في أحد الأيام فقدت وعيها عندما كانت في المدرسة فكشفت عليها أحدى الممرضات الّتي لم تكن حتى تعرف من هي وأخبرت المديرة بعد الكشف أن الفتاة حامل. عندما تم استجوابها من قبل معلمتين في المدرسة إعترفت بعلاقتها مع صديقها. قررت الإدارة إخبار العائلتين.

قال والد الشاب أنه مستعد لتزويج إبنه من الفتاة لأنه كان يعلم ما ستترتب عليه نتائج قصّة كهذه لكن عائلة الفتاة استنكرت بشدة هذا الفعل والفضيحة الكبيرة الّتي ستطال حتى شرف أفرادها. قرر شابان من هذه العائلة أحدهما أصولي والآخر شيوعي أن يشكلا جبهة مشتركة ويتوليا هذه القضية عبر لعب دور البطل المغوار محامي الشرف والتقاليد. هاجم أحد هذين الشابين، ، المديرة ومعها المدرسة المتورطة في هذه القصّة مسببا لكل واحدة منهما إعاقة دائمة. لقد علمت بتفاصيل هذه القصّة بحكم صداقتي لبعض أفراد هذه العائلة بالإضافة لكون أمي تدرّس في هذه المدرسة. تركت الفتاة المدرسة تحت ضغط والدها لتتزوج من ابن عمها بعد عدة أسابيع.

.....

بدأت الجامعة بغيوم سوداء. سوداء للغاية. توالت الهزائم المبكرة. كان اليسار في حالة تفتت، حركة القوميين العرب تفككت بالكامل، دخل مسؤولو اليسار الكردي السجن، تم إعتقال أكثر من 440 من البعثيين، كان يجب على مؤتمر حزب البعث أن يضع حدا لازدواجية السلطة من خلال إرسال وزير الدفاع ورئيس الأركان في بعثة ديبلوماسية إلى الخارج ثم مالبث أن أنهى أعماله باعتقال زعماء الحزب وإعلان الحركة التصحيحية في السادس عشر من تشرين الثاني من قبل الجناح العسكري.

في نفس الليلة زارني "وحيد" وهو بعثي يساري وقال:

_ هيثم، نحن بحاجة إليك في مظاهرة الغد 15 تشرين

_ لن أشارك. لقد قبلت القيادة القطرية لعبة الضباط وهي تحصد ما زرعت.

_ إسمع، لو كانوا سيدفعون الثمن وحدهم فأنت محق ولكن البلد بأكمله سيدفع الثمن . ثم أنهم لا يستحقون كل ذلك، لقد ساعدوا أربع ثورات عربية.

_ ولكنهم فتحوا الباب أمام ديكتاتورية عسكرية

_ لم يكونوا وحدهم أبداً في الساحة السياسية ولم يستطيعوا تطبيق سياستهم

_ لم يكن من الطبيعي وضع من يخالفهم الرأي في السجون

_ إسمع، سنخرج معا ضد الديكتاتورية العسكرية

_ ومن أجل حرية جميع المعتقلين أيضاً

_ موافق

وهكذا ضمت المظاهرة تنظيمات أخرى غير مجموعة 23 شباط والّتي كانت قد تعرضت لتوها للتهميش من قبل الجنرال الأسد. في المساء استطعت أن ألتقي بعض أصدقائي الفلسطينيين، جمع من الطلاب الحوارنة وأعضاء في مجموعتنا وشاركنا جميعاً في هذه المظاهرة الشديدة الأهمية الّتي ضمت جنبا إلى جنب نقابيين وطلاب وبعثيين يساريين وغير بعثيين شاركوا جميعهم ليهتفوا للحرية ويقفوا في وجه الدكتاتورية. وقد أكد البعثيون على تمسكهم بالقيادة الشرعية لحزب البعث في حين حملنا أكثر من يافطة للمطالبة بإطلاق سراح كل المعتقلين. لكن عناصر المخابرات كانوا بانتظارنا في دوار السبع بحرات وقد أحاطوا بالمتظاهرين لحظة وصولنا وانهالوا علينا بالضرب بالهراوات وقد اعتقلوا نحو أربعين شخصا. استطعت الدخول والاختباء في مبنى فيه عيادات طبية في الساحة.

_ أين أنت ذاهب؟

_ مريض. لدي موعد مع الدكتور "الصايغ"

جلست في غرفة الانتظار مع بعض المرضى في الطابق الثاني من المبنى حيث كان الأطباء والسكرتارية يشاهدون ما يحصل من الشرفات. رأيت السيارات العسكرية تصل إلى الساحة على نطاق واسع وبدأ ينزل منها أشخاص باللباس المدني لينضموا إلى

المتظاهرين. ضاعف وجود العسكريين باللباس المدني أعداد المتظاهرين وفي هذه اللحظة وصل فريق من التلفزيون الحكومي السوري ليصور هذه المظاهرة الكبيرة المؤيدة وهؤلاء المتظاهرين الّذين كانوا يحملون صور وزير الدفاع. لم تكن لدي إمكانية الصراخ بصوت عال أو فعل أي شيء مهما يكن، لقد تخطى هذا المشهد كليا مقدرتي على التحمل.

لقد رأيت مظاهرات كثيرة ولكن كانت هذه المرة الأولى في حياتي الّتي أرى فيها إعداد حدث كاذب بهذه الطريقة. مظاهرة خادعة أعدها خبراء محترفين في مجال الدعاية مع عناصر المخابرات وعسكريين وبعض الأشخاص الآخرين الّذين استطاعوا تبديل جلودهم بأقل من أربع وعشرين ساعة.

في اليوم التالي كان هناك مظاهرة صغيرة لبعض طلاب جامعة دمشق في دوار السبع بحرات ما استدعى وجود بعض العملاء المزدوجين وأقلية صغيرة من المدنيين. في اللحظة الّتي وصل فيها الطلاب إلى الساحة كان عدد السيارات العسكرية يفوق ثلاث مرات عدد المتظاهرين الّذين جاؤوا ليقوموا بمظاهرة ثانية للدعم الشعبي.

شكل تعيين الجنرال الأسد، الّذي أعلن عن حكومة مؤقتة، طالبا من جبل العرب في منصب وزير الدفاع، شكل سيناريو سيء كتبه العسكريون وسط غياب الشرعية الشعبية والطلابية عنه.

ولتوخي الدقة، يمكن القول بأمانة اليوم أن الصراع بين البعثيين لم يشكل مصدر إزعاج لبعض الأحزاب السياسية الأخرى وفئات اجتماعية واسعة قررت إتباع سياسة "ننتظر ونراقب". أما من جهتي فقد كانت المرحلة الجامعية تعلن عن نفسها بأحداث كثيرة ومتنوعة. كان للجدران آذان، ولمواقفي من يرصدها وصار الحذر واجبا. دعاني أحد أقاربي وكان في موقع جيد في التكوين الجديد إلى العشاء في مفارقة غريبة وقال لي:

_ تعلم جيداً أن والدك في السجن وخالك أيضاً. ثلاثة أفراد من عائلتك يعيشون في المنفى وقد بدأ الكلام عنك في دمشق بعد أقل من ثلاثة أشهر من وجودك فيها. سأقول لك شيئا: لن يساعدك أحد هنا. إفعل ما تريد ولكن كن أكثر حذرا من والدك. العمل السياسي في بلداننا يستوجب الحذر دائما، ولكن عندما تختار المعارضة ليس لك الحق أبداً في الخطأ.

_ أوافقك الرأي

_ إذن، قليل من الحذر يا بني . عائلتك أيضا بحاجة لك.

_ أعدك

حرمني هذا العشاء من النوم في الليلتين اللاحقتين، لأن الجامعة كانت بالنسبة لي وسيلة للخروج من منطقتي إلى فضاء أوسع، وسيلة للنضال في كافة أنحاء البلاد بشكل اوسع. فقبل دخول حرمها قرأت كتبا تقول بأن الجامعة هي منتجة الحركات السياسية والبقرة الحلوب للحياة الثقافية والسياسية والمدنية في سورية. لذا لم يجل بخاطري قبول السرية بسهولة أو الركون للنوطات الجامعية. وكما كان يكرر والدي بحكم خبرته وتجربته الشخصية في هذه المسألة، لا يمكننا بعد الآن تحمل الشهرة دون دعم أو غطاء فعملية انتاج الشخصيات العامة في ظل الدكتاتورية باهظة الثمن. ومن الضروري أن يبقى في الذهن أن فاعلية النضال تكمن في استمراريته وإلا سنجمع بجدارة بين صفتي الضحية والتهور.

كيف يمكن للمرء أن يوائم بين الحذر والشجاعة، بين العمل السري والفاعلية وبين الحياة الجامعية والإلتزام بالقضية؟

استغرق الأمر ثلاثة أيام لأحدد ما يجب وما لا يجب عليّ فعله ووضعت مخططا يشمل بناء صداقات اجتماعية بشكل يسمح بتغطية النشاط السياسي.

في مجموعتنا "الإنسانيون العرب" تكلف أحدنا بإعداد دراسة نقدية للإسلام السياسي وآخر بإعداد دراسة نقدية للتيارات القومية العربية وكلفت أنا بإعداد دراسة نقدية للماركسية.

وصلت إلى الإجتماع وبجعبتي دراسة من خمسين صفحة كانت آخر جملة فيها:

"تستطيعون أن تجدوا في هذا النص نقدا مستوحى من عدة كتاب. لقد استطاع ماركس تحليل المجتمع الرأسمالي بطريقة غير عادية. نحن بحاجة فعلا لاستعمال المنهج في تفكيك البنيات القديمة والمتخلفة في مجتمعاتنا".

_ لا تقل بأنك أصبحت ماركسيا؟

_ وماذا يعني ذلك؟ الماركسية ليست تهمة أو شتيمة

_ أنا سأنصرف

_ انتظر، وجهة نظري لا تلزم أحدا غيري

_ سيتبعك أشخاص كثيرون. الماركسية رائجة في الكلية هذه الأيام

_ بالعكس. أنا ضد التجربة والفكر اللينيني

_ إذا سنناضل وحدنا

إسمعوا، أنا أنقل لكم ما أفكر به. إن أعمال ماركس الّتي تخص الديكتاتورية في فرنسا يمكن أن تخدمنا في تحليل الحالة في سورية. لكنّ المواقف اللينينية والقراءة السوفيتية لن يقدما أي شيء لسوريا. كيف نستطيع إقناع الشعب بأن تجربة الحزب الواحد سيئة بالنسبة لنا وجيدة بالنسبة لعموم روسيا؟ هناك حيث الدفاع عن الحكومة الإستبدادية وإغلاق الأعين عن وضع المنشقين في مشافي الأمراض النفسية في الإتحاد السوفييتي؟

نحن ندعم إقامة إشتراكية إنسانية وديمقراطية كما في السابق.

_ إثنان من الرفاق تركونا لكننا تابعنا عملنا ضمن الحركة الماركسية كحلقة دراسة وعمل.

في هذه السنة تعرفت على منى. فتاة استوقفتني في المدرج ذات مرة بعد أن قمت بحل معادلة فيزيائية.

_ هل أنت من الجنوب؟

_ نعم. وأنت؟

_ أنا أيضاً. ولدت في إزرع

_ أين كنت مختبئة إذا؟ لقد سمعتهم يتحدثون عن وجود فتاة واحدة فقط من منطقتنا في كلية الطب هذه السنة

_ عشت في الكويت.

_ نظرت في عينيها وهمست: أي سحر مشرقي!!!؟؟

_ عفواً؟

_ لاشيء. سررت جداً بالتعرف إليك

_ وأنا أيضاً

بعد عدة لقائات في الجامعة قررت أن أكتب مشاعري تجاه هذه الفتاة الّتي كانت تسحرني:

"الحب ليس جريمة، إنه عبارة عن إحساس، مرض خرافي. وأنا، وبك أنت، أشعر بالفرح لأنني مريض."

في اليوم التالي دعتني منى لتناول القهوة معها. بدأت حديثها بالإفصاح عن إعجابها بي بشكل لطيف ولكنها أضافت:

_ ليس نحن من يختار دوما في هذه الحياة ، هناك ظروف كثيرة أقوى منا ولكن يمكن لنا أن نكون أصدقاء حقيقيين.

_ هل يوجد أحد في حياتك؟

_ لا. لكن هناك مشاكل كثيرة لا طاقة لنا بها

_ فهمت.

منى كانت تنتمي لعائلة مسيحية ولم يكن زواجنا مقبولا بالنسبة لعائلتها ولكن بالنسبة لثائر مثلي لم يكن على منى أن تقيم أي اعتبار لهذه الأفكار الرجعية.

_ كنت أظن أنك قد تجاوزتي هذه القضية

_ بالنسبة لي قد تجاوزتها بالفعل. لكن الأمر لا يتعلق بي فقط أنا لدي عائلة.

_ لا أستطيع التحكم بمشاعري والسيطرة عليها والتظاهر أن الّذي بيننا هو علاقة صداقة فقط لكي أرضي أناس آخرين لا يحق لهم اتخاذ القرار نيابة عنا.

اتخذ لقاؤنا منحى سيئا لأنني كنت أجرحها دون أن أعلم وكنت أؤذيها كثيراً بتعليقاتي لكنها استطاعت أن تحافظ على هدوئها وتعاود طلبها من جديد أن نكون أصدقاء فقط.

لم تكن نتائجي في الإمتحانات جيداً جداً ولكننا أستطعنا أنا ومنى أن ننجح إلى السنة الثانية. كان هناك انقطاع بيننا بسبب الظروف لكن قصّة حبنا ستكبر أكثر فأكثر بسبب نشاطاتنا المشتركة في السنة التالية.

في شهر تموز ذهبت لرؤية أبي وقد أخبرني بأنه سيمثل أمام محكمة أمن الدولة.

_ أبي، هناك لحظات في هذه الحياة لا يرحم التاريخ فيها أبداً

_ أنا مسرور جداً لسماعي هذا الكلام منك يا بني. أية مكافئة لأب يسمع ابنه يقول هذه الكلمات؟!!

في الثالث من آب عام 1971 دخلنا إلى المسرح العسكري في دمشق والّذي تحّول إلى مقر لمحكمة أمن الدولة. كان رئيس المحكمة إنسان وصولي بحسب مارك تشيلر. أي أنه كان ذلك الإنسان الّذي تتحدد عنده قيمة الأشياء بحسب قدرتها على مساعدته على التخلص من عقد النقص الّتي يعاني منها وتحدد خياراته. كانت إمكانياته كمحام متواضع قفز للقيادة القطرية يوم وضع ثلثي أعضائها في السجن لا تتناسب مع قضية بمثل هذا الأهمية.

بدأ بالكلام موجها الإتهام لما يقارب من الأربعمئة سجين سياسي بالتخطيط لمؤامرة لقلب نظام الحكم الثوري. كانت العقوبات ملائمة تماما لمثل هذه الإتهامات. حكم على أبي بالإعدام لكونه الأمين القطري في التنظيم.

في تلك اللحظة شعرت بقلبي يخرج من صدري ليسقط على الأرض.

_ "نظرا لتاريخه النضالي وإخلاصه في خدمة الحزب يخفف الحكم إلى الأشغال الشاقة المؤبدة مع الحرمان من كافة حقوقه المدنية ومصادرة جميع ممتلكاته".

رغم أن تخفيف الحكم الجائر بحكم جائر آخر إلا أن بقاء والدي على قيد الحياة أعاد لي أنفاسي من جديد.

ليس من السهل على المرء رؤية والده يحكم بالإعدام من أجل قضية سياسية. منذ تلك اللحظة، تحولت لعدو شرس لتطبيق عقوبة الإعدام. لا شيء على الإطلاق يبرر حرمان الإنسان من حق الحياة.

في معرض دفاعه، أثار زاهي القائد، الشاعر، قضية عسكرة الدولة وكاريكاتورية المحاكم الخاصة. بالكاد انتهى من كلامه حتى استطاع رئيس المحكمة أن يستعيد المبادرة في قضية كان جميعنا يعلم أن الحكم فيها قد صدر مسبقا.

صرخ رئيس المحكمة:

_ رفعت الجلسة عشر دقائق. ستكون لبقية المدانين إمكانية الدفاع عن أنفسهم.

هكذا رفعت الجلسة، إلى الأبد.

استطاع أبي أن يمرر لي نص دفاعه عن نفسه. كان النص يعبر عن المرارة الّتي يشعر بها محام لا يقبل بتهميش القضاء لمصلحة أحكام الإعدام غير العادلة، عن بعثي لا يقبل بمصادرة الحزب من قبل العسكر. وقد أنهى أبي دفاعه بهذه الجملة المشهورة:

"مهما يكن حكمكم، سيحاسبكم التاريخ وستنتصر الحقيقة".

بعد المحاكمة مباشرة، ذهبت إلى رئيس نقابة المحامين لأقص عليه ما رأيت. كان وجهه شاحبا وحزينا ، لم يكن يعرف ماذا سيقول. لقد أخبرني بأنه لم يعد بإمكان النقابة أن تدفع المال لأبي بعد الآن وذلك لصدور حكم قضائي بحقه.

_ ولكن أليست هذه محاكمة صورية؟؟!!

_ أعلم. ولكن لا خيار لنا.

نظرت في وجهه مباشرة:

_ "لم نعد بحاجة إلى أموالكم. لقد عملت لعشر سنوات وأستطيع أن أعمل لعشرين عاماً. ولكنني لم أكن أحبذ ان أكون في مكانكم. إذا لم تقدموا يد العون لوالدي اليوم، فلن يقدمها لكم أحد في الغد. لم يفعل صلاح جديد وأصدقائه أي شيء لوالدي. وهم الآن معه في السجن".

من ذا الّذي كان يتخيل في العام 1971، أن رئيس نقابة المحامين ورئيس الرابطة السورية للدفاع عن حقوق الإنسان سيقبعون وراء القضبان، تماما مثل أبي، وفي نفس السجن بعد عشرة سنوات؟

من كان يتخيل أنني سأذهب، بعد عقد زمني، للبحث عن شخصيات دولية تساعدني في تكوين جمعية غير حكومية للدفاع عنهم؟

عدت لأتفرغ لنفسي ذلك الصيف، لقد كان صيفا مليئا بالكتب. (فرويد- ماركس – فلهلم رايش -كوبر).

عملت في ظروف صعبة للغاية. خمس ساعات من العمل في مكتب المحاماة وثمان ساعات من القراءة المتواصلة يوميا. كان الإلتزام الوحيد المطلوب مني في المنزل هو التواجد الجسدي. وغالبا ما تحضر والدتي الطعام لي وأنا وراء كتبي وأوراقي. وقد كان أول محاولة جدية للنقد الفكري السياسي نصا نقديا أعددته بعناية عن رباعية سيد قطب (المستقبل لهذا الدين، هذا الدين، معالم في الطريق ونحو مجتمع إسلامي).

في ذاك الصيف، خضت في مناقشة قاسية جدا مع المسؤول عن دروس التربية الإسلامية في مسجد الأنصاري الّذي كان يدار من قبل أبناء ومريدي الشيخ عبد الكريم الرفاعي. ذهبت لرؤيته برفقة صديقين لي. كان محاطا بتلامذته. واستطاع أن يقدم لي إجابات وافية عن الإنتقادات الموجهة لقراءتنا البشرية للقرآن. كان ذكيا جداً بالنسبة للمفكرين الإسلاميين المعاصرين. في كل مرة كنت أثير فيها نقاط ضعف أحد الإسلاميين، كان ينظر إلى تلاميذه معلقا:

_ هذا مثال على ضعف الإنسان وكمال الرحمن، المسلمون ليسوا في عصمة عن الأخطاء ولكن المسلم الحق مطالب دائما ببذل المجهود الفكري لكي يقدم أحسن صورة لرؤية الإسلام. إن أخطا فسيكون له أجر وإن أصاب فسيكون له أجران. لأنه غاية جهده عمل الخير ومحاربة الشر.

لقد شعرت بضعفه فقط فيما يتعلق بالأسئلة الاجتماعية والاقتصادية، لم تكن إجاباته مقنعة بما فيه الكفاية.

أقنعتني هذه المناظرة الطويلة والهامة بأن مسألة الإسلام السياسي لا يجوز خلطها بمواضيع الإيمان والاعتقاد. وأن من الضروري فك الإرتباط بين المسلم والإسلامي. وأن من الضروري مقارعة الأحزاب الإسلاموية بنقل المعركة من السماء إلى الأرض ومن الغيبيات إلى العقلانيات ومن الأسطورة إلى الوقائع الملموسة. كان من الصعب عليه أن يتكلم بشكل ملموس عن الخبز والحرية، عن المساواة بين الجنسين، عن المساواة بين المسلمين وغير المسلمين وعن العقوبات الجسدية وعن اختلاف المناهج الاقتصادية وفكرة التعددية السياسية.....

بعد صدور الحكم على والدي، قدمت عائلتي للسكن معي في دمشق لتخفيف الأعباء الاقتصادية. وجدنا شقة كبيرة في حي محافظ. ذهب أخي للدراسة في بغداد وكان لي غرفة منفصلة قليلا بمدخل مستقل ما ساعدني على عدم إزعاج العائلة بزوار الليل والنهار.

.....

بدأت السلطة بتنفيذ مشروعها السياسي المتمثل في تجمع سياسي أكبر من حزب البعث مع أفكار غامضة جداً: توحيد الأحزاب الّتي تطالب بالاشتراكية في حركة إشتراكية عربية أو إنشاء جبهة تقدمية تحافظ فيها الأحزاب على هيكلها القديم. لم تكن المشكلة في إقامة جبهة او إتحاد ولكن في النجاح بإضفاء الشرعية عليها. رموز الحزب الكبار كانوا جميعهم إما في السجن أو المنفى. حتى العسكريين الّذين قاموا بالإنقلاب العسكري الثوري لم يبقوا في المناصب الرئيسية. لقد رفضت الاحزاب الّتي دعيت للحوار فكرة إقامة إتحاد بينما وجدت فكرة الجبهة الوطنية التقدمية مثيرة للغاية خاصة أن هذه الفكرة كانت قد طرحت من قبل احزاب المعارضة في 2 حزيران عام 1968 ولكنها أجهضت حينها قبل ولادتها. قبلت الاحزاب فكرة إقامة الجبهة مع الحفاظ على دور القائد الّذي أسند إلى الحزب الّذي يمسك بالسلطة.

أحد زعماء الحزب الشيوعي الموالي للسوفييت شرح لي موقف حزبه بالقول:" *ليست القضية في الحصول على مقعد في دمشق أو لا، القضية هي زيادة التمثيل لكل حزب مؤيد للجبهة. في الحكم الديمقراطي لا يستطيع الحزب الشيوعي ان يحلم بوزير وثمانية نواب. لماذا نخلق خصومات وهمية على حق النشاط في الجامعة أو في الجيش؟ إن هذه الأشياء*

واضحة للغاية حتى بالنسبة للمشاركين الآخرين في الجبهة. لقد كنا واقعيين، هذا كل ما في الأمر".

والحق يقال، كان هذا الجواب بالنسبة لي منطقيا من حزب كنا نصنفه (بالانتهازي). إن أزمة حزب البعث الإشتراكي الّتي بدأت في المؤتمر الثالث للحزب في لعام 1969 أربكت الموالين للاتحاد السوفييتي الّذين بدؤوا يتخبطون بين اليمين واليسار لمدة أربع سنوات في ظل غياب مطلق لأية ممارسة ديمقراطية. وما زاد الأمر صعوبة أنهم طلبوا تحكيم المنظرين السوفييت الّذين نشروا فتواهم حول قرارات المؤتمر الثالث فيما يخص الوحدة العربية والقضية الفلسطينية، بعد سنتين. كنا متعاطفين جداً مع المنشقين ولكننا أطلقنا، في نقاشاتنا، على الآخرين تسمية " الإخوان الشيوعيين الّذين استبدلوا مكة بموسكو".

كان المشهد داخل المعارضة قاتما للغاية. فمن جهة كانت المجموعات الصغيرة مضطهدة ومن جهة أخرى لم تقرر التشكيلات الآخرى بدء معركة مع تجمع المصالح العسكري القائم. الأحزاب الكردية ضعيفة ومتشرذمة، القوميون العرب والإشتراكيون العرب يدفعون ثمن اعتقالات متتابعة حجمت دورهم والأخوان المسلمون لا يقبلون حتى مجرد النقاش مع الأحزاب العلمانية إلخ....

في ردي على فكرة الجبهة الّتي فرضت من الأعلى اقترحت على أصدقائي فكرة إنشاء جبهة في الجامعة تكون على مستوى القواعد.

_ حلم جميل. يستحق الضوء الأخضر. أجابني أحد الأصدقاء

كان علي هو أول شاب أجابني بالموافقة. علي، شاب من أسرة علوية من منطقة اللاذقية. بعثي ماركسي من جماعة 23 شباط. بعده مباشرة أجاب شاب بعثي موال للعراق بالإيجاب. علي كان محرجا ولكنه وافق في النهاية. أحد الناصريين أجابنا بأنه سيحضر بصفته الشخصية وشيوعي منشق اختار الصيغة نفسها. كل واحد منا كان عبارة عن شبكة حقيقية. خلال خمسة أشهر ولدت "الطليعة الطلابية" وقد كلفت بالتواصل والتنسيق.

كانت إستقالة المحامي عبد المجيد منجونة من منصبه الوزاري حدثا مهما بالنسبة لنا. فقد أعطانا هذا الحدث الشعور بأن حزب الإتحاد الإشتراكي العربي لديه الشجاعة للحاق بالمعارضة الوطنية. منجونة واحد من كبار شخصيات مدينة حلب والحركة الناصرية في سوريا.

سيناضل السيد منجونة مع المعارضة قرابة أربعين عاماً تقاطعت دروبنا السياسية في محطات كبيرة فيها. كان من مؤسسي هيئة التسيق الوطنية في العام 2011 ونائب المنسق العام في العام 2014.

* * *

كانت سياستنا العامة تتلخص في الإشتراك في كل الحركات الإحتجاجية والعمل على دمقرطة الجامعة بالإضافة إلى تحركنا في المجلات العلمية المرخص لها. وكانت منى أول إمرأة تعمل معنا.

بعد عدة اسابيع كتبت العدد الاول من "النشرة الطبية الدورية" وبعد نشرها تلقيت زيارتين. الأولى من مسؤول في اتحاد الطلبة أعلمني خلالها أنهم لن يستطيعوا نشر العدد الثاني لأن الإتحاد قد سحب الغطاء عن النشرة. والزيارة الثانية كانت من طالب في كلية العلوم. عرض علي خلالها المجلة الّتي كان قد نشرها مع أصدقائه في كلية الفيزياء وقال لي:

_ إسمي غياث. أعتقد باننا نملك مشروعا مشتركا. مع من تعمل؟

نظرت بإنتباه شديد إلى عيني هذا الشاب الّذي يملك نفس سنوات عمري تقريباً محدثا نفسي بينما كان يتابع حديثه لي:

_ إسمع، انت تتحدث إلي بصراحة وانا أيضاً باستطاعتي ذلك. ولكن في هذه الحالة انا فقط من سيتحمل العواقب المحتملة.

_ هيثم، لقد سمعت عنك كثيراً. لن ننتظر ثلاثة سنوات لنكشف أوراقنا لبعضنا. أنا ماركسي ثائر وأنت، أنت تقف في المكان الّذي نقف فيه.

_ أنا ثائر يحب ماركس وروزا والقرامطة وكل أولئك الّذين ساهموا في إنقاذنا ومساعدتنا في الخروج من عالم الغاب. أنا ضد العسكريين ومع إقامة تحالف يجمع مختلف مكونات المعارضة العلمانية.

_ عن أي معارضة وعن أي علمانية تتحدث؟ لقد تعفنت الاحزاب في هذا البلد. إنت تضيع وقتك

ثم بحث عن علبة سجائره من نوع "الناعورة" أرخص ما تنتج سورية من سجائر.

_ هل تدخن؟

_ لا شكراً

_ اسمع يا رفيق، لدينا اشياء مشتركة كثيرة ويجب أن نتعاون ونوحد جهودنا

_ صحيح ولكن لدينا أيضاً نقاط مشتركة مع أناس آخرين ونحن بحاجة لإنشاء كتلة قوية.

_ هل تقصد مجموعة كبيرة؟ كلمة قوية لا تعني بالضرورة توسيع المجموعة

_ مجموعة واسعة وقوية قائمة على أسس واضحة ومعرفة بشكل جيد. أنا لا اسمح لنفسي بادعاء احتكار الحقيقة.

_ قف، ولا حتى أنا. لا تجعل مني شخصا عقائديا ولكن أنظر حولك، عبد الناصر خسر حرب الستة أيام والبعثيون خسروا الحرب والسلطة. ليس لدى هذه البرجوازية الصغيرة ما تعلمنا إياه بعد الآن، يجب علينا ان نبدأ كل شيء من نقطة الصفر. ليس باستطاعتنا تحمل إرث المهزومين بعد الآن.

منذ ذلك اليوم يخطر ببالي غياث في كل مرة تقفز كلمة راديكالية إلى ذهني. كان لديه انطباع بأنني في العديد من أطروحاتي محافظ. وعندي شعور بأنه متمسك بخطاب ثوري أصولي. ولكننا تبادلنا محبة كبيرة منذ أول جلسة. طلبت منه أن يكون صديقي مدى الحياة مهما كانت خياراتنا ومهما كانت خلافاتنا. وعدني بأن يكون صديقا مخلصا وقد أوفى بعهده بالفعل.

ذات يوم تلقيت إتصالا هاتفيا من أخي الكبير الّذي يدرس في بغداد.

_ أنا مغرم بفتاة آشورية تدعى "نهرين" لكنها رفضت قبول عرضي للزواج بها. في سورية أيضاً رفضت ابنة عمي الزواج بي. أنا في حالة اكتئاب ولا أعرف سبب وجودي في هذه الحياة.

حاولت تهدئة أخي قليلا ولكنه كان متأثرا للغاية. في اليوم التالي جاء رجل من المخابرات إلى البيت ليحقق معي عن سبب إتصال اخي ومعنى كلمة "نهرين" وهل هي "بلاد ما بين النهرين"؟ وطلب مني أن أشرح له الهدف الحقيقي وراء نقاشنا. تحدثت معه بهدوء ولباقة وشرحت له مشاكل أخي ومعاناته بسبب فشل العلاقة العاطفية الّتي كانت لديه في سوريا قبل رحيله وشرحت له أنه لا يجب عليه أن يقلق ويذهب بعيدا في تحرياته عن هذه القصّة.

في اليوم التالي وصل عنصر آخر من عناصر المخابرات حاملا معه برقية أرسلها أخي كتب فيها (أنا مريض، انا أموت. إحضر فورا).

استمر استجواب السيد المحترم لمدة ثلاث ساعات متواصلة وفي النهاية أفهمني بأنه كان معي في غاية اللطافة والإحترام لأنه قبل أن يستجوبني في بيتي وليس في مكان آخر.

علمت حينها شيئين أساسيين: الأول أنني تحت المراقبة والثاني أنهم ليسوا بحاجة لأي سبب لكي يستجوبوا الناس.

بعد أسبوعين منعت السلطات غياث شيحة من نشر العدد الجديد من نشرة العلوم الفيزيائية. جائني في البيت وكان حزينا للغاية

_ نحن بحاجة لنشاط ثقافي لأي شي نعكس نشاطنا من خلاله. لقد قررت هذه الأحذية الّتي تحكمنا أن تشجع كلاب الحراسة المثقفة الّتي عينتها الديكتاتورية لحمايتها على إيذاء الخلق.

إنظر لما ينشره إتحاد الكتاب!!! عرض علي أحد الجمل الّتي كتبها رئيس الإتحاد "لقد إكتشف حزبنا بأنه بحاجة ماسة لقائد إستثنائي، وقد وجد هذا بالفعل في شخص الرئيس المفدى".

_ أهذه هي الثقافة الإستبدادية؟؟

يجب علينا أن لا نتوقف. يجب أن نبحث عن مكان آخر وغطاء آخر. سأرى أنا وتيسير إن كان بإمكاننا فعل شيء مع الإتحاد العام للطلبة فلسطين.

_ فكرة جيدة. وأنا من جهتي سأحاول ان أبحث عن شيء مع محمد

نجحنا. وافق الإتحاد العام للطلبة فلسطين على نشر مجلة باسم "دراسات فلسطينية" وذلك بفضل شجاعة مسؤوله أحمد برقاوي الّذي يعيش اليوم في دبي ويعمل في مجال البحث.

طلبت من منى الّتي كانت تحت حماية أخيها أن تشارك في الكتابة. لم تكن معروفة وظل نشاطها سريا.

جلسنا غياث ومنى وروز وانا في كافيتيريا بالقرب من الجامعة لنناقش السياسة العامة للمجلة. على أن ينضم لنا تيسير بين لحظة وأخرى. نظرت إلى غياث

_ كأننا قصتي عشق.

لم يعلق غياث لكن دعابتي لم ترق لروز. بالرغم من ذلك كنت أرى أن غياث شريكا مثاليا لروز.

كان ينتابنا أحيانا شعور غير مفهوم، شعور بأن الموت سيقيم بين شبان لم يتجاوزوا بعد ربيعهم الثاني والعشرين. لم أسأل روز أبداً عن مشاعرها. من كان يدري أن اثنين من بين هؤلاء الشبان الأربعة سيغيبون عنا قبل بلوغهم الخامسة والعشرين؟

_ أفضل ان يقال أربعة رفاق. أجاب غياث.

دفعنا الإعتداء الإسرائيلي على بيروت والّذي أدى إلى إغتيال ثلاثة قياديين في منظمة التحرير الفلسطينية في 1974/10/4 إلى تنظيم مظاهرة في نيسان بالتعاون مع إتحاد الطلبة الفلسطيني للتضامن مع الفدائيين. لكن الإتحاد الرسمي قرر سحب تغطيته للمظاهرة في اللحظات الأخيرة فاضطررنا للخروج مع ما يقرب من 150 طالبا. لم تقف الشرطة العسكرية والمخابرات مكتوفة اليدين، لقد ضربونا بشكل وحشي في الشارع على بعد خمسين مترا تقريباً من الجامعة. ونجونا من الإعتقال لكن سبعة من قيادة الإتحاد الفلسطيني تم توقيفهم. أمرت السلطات بعد ذلك بتعيين عناصر جديدة مقربة منها لتحل مكانهم. قررنا القيام بمظاهرة أخرى ولكن هذه المرة بأكثر من ثلاث مئة طالب. كان عدد عناصر المخابرات قليل لأنهم لم يكونوا يتوقعون أن نقوم بمظاهرة ثانية. لم ينجحوا في تفريقنا لكنهم إستطاعوا توقيف ثلاثين متظاهرا. قبل وصولنا إلى مقر منظمة التحرير الفلسطينية، بالضبط، انسحب المتظاهرون السوريون من المظاهرة ثم احتل بضع مئات من المتظاهرين المقر ليطالبوا بإطلاق سراح الطلاب المعتقلين. أطلقت الشرطة سراح الطلاب المعتقلين. كانوا جميعهم قد تعرضوا للتعذيب. أحد أعضاء مجموعتنا وصف لنا عملية الإعتقال:

"ضربونا عندما كنا في السيارة، بدأ التحقيق معنا لحظة وصولنا، كانوا يريدون معرفة ما إذا كانت لنا أية علاقات مع تنظيمات سورية أو فلسطينية محظورة. لم يلفظوا اسم تنظيمنا ولا يملكون شيئا ضدنا، لكنهم هددونا بالطرد من الجامعة، حتى أن الضابط صرخ في وجهنا "نستطيع توقيف نصف طلاب الجامعة والنصف الآخر يكفي لبلدنا وزيادة". برأيي سيتضاعف القمع في الجامعة. إنهم يخافون من الطلاب وهم مستعدين لفعل أي شيء في سبيل إسكاتنا".

كان علي أول من تم استجوابه من الطليعة. كان قد تحدث مع أحد الطلاب عن ضرورة إنشاء حلف ديمقراطي في الجامعة ضد السيطرة العسكرية يتبع ذلك حلف على مستوى البلد كله. كان لهذا الطالب أخ بعثي موال للسلطة. في البداية أنكر علي كل شي ثم عاد واعترف بان الأمر لا يعدو كونه حديث عن أفكار عامة لن تطبق على أرض الواقع أبداً. ظل علي تحت المراقبة وكنا نتواصل معه من خلال فتاة في غاية الشجاعة، كانت فوق كل الشبهات. التقيت علي سرا، كان صوته يكاد ينقطع. لقد كان علي بالنسبة للمخابرات شديد الخطورة فهو شاب علوي يساري بعثي يتحدث عن تكتل ديمقراطي.

نصحت علي أن يغادر بعض الوقت إلى الجنوب ويبقى عندي في البيت أو أن يغادر إلى لبنان ولكنه رفض ذلك.

_ هل أنت خائف من ان أتكلم عنكم؟

_ لا. هذا من أجلك انت. إن البلد يحتاجك وهم قادرين على فعل أي شيء.

_ سأقاوم مهما كان حجم المعاناة.

_ أقول لك أنني متأكد من ذلك ولكننا قادرين على اختصارهذه المعاناة.

بعد عشرة أيام مات "علي الديك" أمام المدينة الجامعية. إنطلقت نحوه مركبة عسكرية بسرعة فائقة ودهسته عند نزوله من الباص حوالي الساعة الثامنة مساءاً. لاذ السائق بالفرار.

لم نستطع أن نشارك في تشييعه لأسباب أمنية واضحة ولا حتى إقامة مؤتمر صحفي بخصوص موته.

كان حسّان، الفلسطيني الّذي كان أحد أعضاء مجموعتنا القديمة "الإنسانيون العرب"، كان واحداً من بين أكثر العناصر حيوية. ذكي وحذر وله تسعة عشر أخ وأخت. كنا أصدقاء طفولة وكثيراً ما أمضينا عنده الأمسيات لمساعدته في بيع البطيخ قرب السحارى. أحيانا كنا نلعب الورق ولكن غالبا ما كنا نتناقش، بأعداد تصل إلى العشرة أشخاص وحتى الخمسة عشر شخصا، عن أوضاع البلد، المنطقة والمستقبل.

كانت ليال لا تنسى. في كل مرة كان النقاش يزداد سخونة كان يتقن فن تحويل الأجواء إلى الفكاهة والمرح وأحيانا أغنية شعبية يحبها فيبدأ بالمقطع الأول ونكمل جماعيا وراءه:

"يما مويل الهوى يما مويليا

ضرب الخناجر ولا حكم الخسيس فيا".

كان من المستحيل بالنسبة لي تقييم الصفات الّتي يتمتع بها حسّان. ولطالما كان كرمه وفكره العملي يفاجئ مجموعتنا. غالبا ماكان يقول لي مازحا:

_ إطمئن يا هيثم، طالما أنني على قيد الحياة فلن تكون بحاجة لحارس شخصي.

في أحدى الأمسيات الصاخبة قال لي حسّان: طالما بقينا في إطارنا الطلابي فلن يكون بمقدورنا تغيير أشياء كبيرة، يجب أن نوسع مجموعتنا إلى العمال والجنود.

_ ولكن كيف؟ يجب علينا أن نتواجد ضمن هذه الأوساط.

_ اعرف شخصية استثنائية تستطيع مساعدتنا. لقد استطاع إنشاء تنظيم صغير في مخيم اليرموك. (المخيم الرئيسي للفلسطينيين في مدينة دمشق).

_ سنذهب إليه.

كانت الساعة حوالي الثالثة فجرا. نمنا حوالي أربع ساعات ثم ذهبنا لرؤية عيسى، شاب في عمرنا، استمر نقاشنا معه طيلة اليوم.

_ اسمعوا، في ما يخص الأمور الأساسية، نحن متفقين.

_ إذا، سنقترح هذه الصيغة على أصدقائنا " الطليعة العمالية والطليعة الطلابية ".

_ فكرة جيدة. أنا أيضاً سأتكلم مع رفاقي

_ نستطيع أيضاً طباعة صحيفة سرية . اقترح حسّان الأسم " الثوريون " .

بعد عناقنا له، ودعنا عيسى وإتفقنا على أن نناقش ألامر خلال أسبوعين. طلب مني حسّان أن أخبر أصدقاءنا عن العمال الثلاثة الّذين سيعملون معنا من الآن فصاعدا. لقد توجب علينا توسيع ساحة النضال.

_ هيثم هذه هي فرصتنا لإنشاء خلايا للعمل وبهذه الطريقة نضمن إستمرار نضالنا في حالة تم اعتقالنا بسبب أحد التقارير.

_ موافق.

قامت مجموعة غياث بدعوتي للحديث عن الأقليات في العالم العربي. تحدثت عن الأكراد في سوريا بعد أن قدمت بالحديث عن أكراد العراق وجنوب السودان والأمازيغ في المغرب. احتفظت بمقولة من أحد الأصدقاء في هذه المداخلة الّتي أضرت بعلاقاتي الجيدة مع كثير من القوميين العرب. ثلاثة عناصر من الطليعة تركوا التنظيم. بالنسبة لأعدائنا، فقد وجدوا الحجة أخيراً ليعلنوا الحرب علينا.

"لماذا لا تسمح الدولة بعرض الزي الرسمي للأكراد في المهرجان السنوي للأزياء الشعبية؟ لماذا لا نسمع أغان كردية في الإذاعة؟ لماذا لا نشاهد حفل زفاف تقليدي للأكراد على التلفاز؟ وهل يعتبر تعليم اللغة الكردية في المدارس خيانة للأمة العربية؟"

وماهو أهم من ذلك: هل تفكرون جديا بظهور غالبية كردية تطالب بتقسيم البلاد في سبيل احترام الحقوق الأساسية لشعبها؟

_ هيثم يعبث بوحدة وسلامة أراضي البلاد، في الوقت الّذي لا يزال فيه الجولان محتل والإسكندرون أيضاً والآن الحسكة والقامشلي؟

فقط، الماركسيون غير الملتزمين هم من صفق لكلامي. إذا لم يكن بإمكاننا تحقيق السعادة للكثير من الناس فالأحرى بنا أن نحافظ على نقاء الروح باحترام مبادئنا، وليس إضاعتها بدعوى الإرضاء والاسترضاء.

كانت هذه السنة قاسية للغاية فلولا منى لما استطعت النجاح في امتحانات الطب خاصة وأنني لم أستطع أن أحقق نسبة الحضور المطلوبة. بدأت أيضاً بمشروع يهدف إلى كتابة مؤلف طبي جماعي.

في الصيف كتبت مقالة عنوانها" الأسرة الأبوية في الإسلام" نشرت بالكامل في مجلة "دراسات عربية " في شهر أيلول ومنعت في كافة الدول العربية. انتقدت المقالة بشدة من قبل كافة الصحف الأصولية وبعض من أصدقائي البعثيين والناصريين أيضاً. بينما كان غياث الّذي أحضر معه 15 نسخة منها من بيروت راضيا جداً عن المقالة.

بعد ظهر السادس من تشرين الأول سمعنا في الأخبار عن بدء الصراع العسكري مع إسرائيل. في نفس الليلة ذهبت أنا وتيسير إلى إحدى المشافي في حيّنا لنساعد بشكل ما. لقد تم قبولنا للبقاء في المشفى ليل نهار ومن دون نقاش. إتصلت بأمي لطمأنتها ولأطلب منها طمأنة عائلة تيسير. كان العمل صعبا للغاية وكان هناك نقص في الكادر الطبي، المعدات الطبية، الدم وكل شيء.

كان الأطباء الكوبيون أول من قدم لنا يد العون ثم تلاهم بعد ذلك اليمنيون واللبنانيون. تعلمت إجراء العمليات البسيطة ورأيت مرة أخرى فظاعة الحروب بعد أن اعتنيت بضحايا النابالم الإسرائيلي. في اليوم الخامس كنت أقوم بتهدئة أحد الجنود الّذين حرقوا بالنابالم الإسرائيلي، خرجت وطلبت من تيسير أن يحل محلي بعد أن خفت من زيادة جرعة المورفين للمريض. قال المريض لتيسير بأنه كان صديقي منذ الطفولة وأنني لم أستطع التعرف على شكل وجهه. ثم أضاف قائلا:

_ لقد مات "وحيد" القديم وحل رجل معاق مكانه.

جاء تيسير لإخباري بالقصّة، كنت أرتعش من شدة خجلي من نفسي، لم أنظر حتى للاسم المسجل على سرير صديقي. لقد كان مشوها بشكل رهيب حتى أن أمه لم تكن قادرة على التعرف عليه.

في نفس اليوم الّذي أعلن فيه عن وقف إطلاق النار، طلبت منا المخابرات العسكرية مغادرة المشفى. يبدو ان النقاشات الّتي كانت تدور بيننا وبين الجرحى لم ترق لمجلس المشفى العسكري.

كانت الحرب فرصة لإعادة إحياء حوارات حادة وغنية جداً ومتعددة الأشكال، في الجامعة. كان هناك مواجهات فكرية دائمة بين الجميع إن بشكل مباشر أو غير مباشر. بعثيون، ماركسيون، ناصريون وإسلاميون كانوا يتناقشون جميعهم ولكن بلغة حذرة آخذين بعين الإعتبار وجود السرطان المخابراتي في الجامعة. تواصلت الأزمة السياسية على نطاق واسع من خلال هيمنة عقيدة الخلاص على الأحزاب السياسية الّتي كانت تعتبر نفسها المنقذ والمخلص للوطن لكنهم كانوا جميعاً يؤمنون بحق الآخرين بالوجود حيث كان شعار أحزاب المعارضة السياسية وما يطالبون به هو " الحرية السياسية ".

بعد حوالي أسبوع من وقف إطلاق النار نظم بعض الأشخاص المقربون من السلطة محاضرة بحضور أهالي الطلاب الضحايا في الحرب كان مكانها مدرج كلية العلوم. لم يستطع أحد المحاضرين المحافظة على هدوئه فصرخ بالجموع قائلا:

_ لماذا ننتظر تحرير فلسطين حتى ننتقم لشهدئنا؟ نستطيع الإنتقام الآن فالحي اليهودي ليس بعيدا من هنا

علا صوت الصراخ الممزوج بالشتائم. لم أستطع البقاء في الزاوية الّتي أجلس فيها. ذهبت إلى المنبر وصرخت قائلا:

_ "هل فقدتم رشدكم، لا يحق لكم التكلم عن اليهود. إنهم مواطنون سوريون مثلهم مثل الجميع".

جاء ثلاثة من أصدقائي لتهدئتي.

_ هيثم، ليس الوقت مناسبا لهذا النقاش، الجميع مأخوذ بالعواطف.

_ لقد فقد أخاه. إنه متأثر للغاية.

نظرت لأصدقائي لكنني لم أستطع السماح لهذا الأمر بالحدوث. تيسير له أخ معتقل في السجون الإسرائيلية لكن خطيبته يهودية من دمشق. لقد عشنا مع بعضنا ألفي عام ولم تكن إسرائيل موجودة.

_ إسمعوا، لن يذهب أحد إلى الحي اليهودي إلا على جثتي.

هنا، هدأ الجميع واستمر الطلاب البعثيون بمحاولة تهدئة الحضور بينما عاد المحاضرون ليبدأوا كلامهم من جديد، فحتى المسئولين في إتحاد الطلاب لم يكونوا مع ما قيل عن الحي اليهودي. أما أنا، فغادرت القاعة بهدوء.

عند خروجي استوقفني أحد الطلاب من محيطنا قائلا لي:

_ هيثم، أنا يهودي عربي

_ نعم، وماذا بعد؟

_ هذه المرة الأولى الّتي أقولها لأحد في الجامعة. أنا في غاية السعادة.

أعطت الحرب للرئيس ما كان ينقصه لترسيخ عبادة الشخص في المجتمع فأصبح بطل تشرين. كان مشروع تحويل البلاد لعائلة بطريركية كبيرة قيد العمل. الوطن بحاجة لبطل، الحزب بحاجة لقائد، الأمة بحاجة لأب وسيصبح شخص الرئيس القائد يوماً بعد يوماً من المحرمات. كان من الممكن تناول الآب والإبن والروح القدس بأقدح العبارات ولكن من المستحيل ذكر سيادة القائد بدون هالة التمجيد المبالغ بها. يكفي أن تطلق اسم الرئيس على أحد المشاريع حتى يحصل على التسهيلات الإدارية اللازمة وها نحن ذا أمام (قهوة السيد الرئيس، سينما السيد الرئيس، بحيرة الرئيس، سد الرئيس و... ومجازر السيد الرئيس).

لم يفهم القائد وأزلامه الفارق بين الإحترام الواجب منحه للمسئول و"حق" الإزدراء والإذلال والإخضاع المفروض على مجتمع بأكمله.

ليس هناك وجود لأي نوع من الإحترام دون سلطة قمعية وإذا كانت المعرفة والأصول والذكاء هي المنابع الّتي تستقي منها السلطات الإستبدادية فإن السيد الرئيس استجلب وحيه الأعلى من القوة الغاشمة.

بدأت أمراض السلطة الإستبدادية تنبثق واحدة تلو الأخرى، في الطبقات العليا كان هنالك الفساد والثراء السريع وفي الدنيا كان الفقر وحرمان الفرد من استقلاله. لم يكن غياب البديهة وعدم الكفاءة الاجتماعية والسياسية وعدم القدرة على القيام بالمهام، في خضم هذه الإجراءات الّتي تسعى لبناء سلطة استبدادية، لم يكن كل هذا ليكون مؤشرا سريريا على

المرض الذهني ولكنه كان، بشكل واع أو غير واع، هدفا تسعى إليه السلطات الّتي كانت مصابة في أعماقها بهاجس الخوف من مواطنيها.

لقد قمنا بطباعة خمسمئة نسخة من صحيفتنا السرية "الثوريون " وأيضاً العدد الاول من مجلة "دراسات فلسطينية". كان وقع كل منهما جيداً على الشارع لكن قليل من الطلاب كانوا يقارنون بين الصحيفة الّتي وجدوها تهتم بقضاياهم وبين المجلة الّتي كانت تباع علنا في الكافيتيريات. كان يتملكنا الشعور بأننا نفعل شيئا ما في الإتجاه الصحيح. وزع عيسى الصحيفة في مخيم اليرموك وأرسل بعض الأصدقاء عدة نسخ لجامعة حلب.

ما إن هدأت نشوتنا، بدأت الإنتقادات: فمنهم من نعتنا بالصحيفة الماركسية والآخر قال انها صحيفة تصدر بالإتفاق بين الماركسيين والقوميين العرب والثالث جزم أن لا سياسة واضحة لهذه الصحيفة إلخ...

في إجتماعنا لإصدار العدد الثاني كانت هناك نقاشات عميقة. رشح عن هذا الإجتماع نتائج قاسية جداً:

" كنا عبارة عن مجموعة ليس لها ميثاق، بلا برنامج، نقطة انطلاقنا كانت محاربة السلطة العسكرية. كنا نحب الحرية لكن مجتمع الغد لن يكون نفسه هو مجتمع اليوم. لم يقم انصار 23 شباط بأي نقد ذاتي لحقبة مابين عامي 1966-1970 وهم يتحملون جزءا من مسؤولية ما حدث فيها. لم ينتقد بعثيو القيادة القومية النظام العراقي، كان الماركسيون يقضون أوقاتهم في تحليل الجغرافيا السياسية للبلاد، لم نستطع إنتقاد عبد الناصر لأن الإتحاد الإشتراكي لم يكن بجانبنا ولأننا لم نكن نملك سوى ثلاثة ناصريين كنا نريد أن نحتفظ بهم حفاظا على الوجود الناصري في الطليعة الطلابية.

كان لدي أفكار عامة ساعدت في تسهيل عملية إعادة رص الصفوف. إنضممنا، بسلاسة، إلى النشاطات الثقافية الإحتجاجية المؤيدة للقضية الفلسطينية. إن القيام بنشر صحيفة مع إتخاذ مواقف معينة وضع بعض أعضاء الأحزاب في مشاكل مع تنظيماتهم. لقد حاولنا حل المشكلة من خلال إعطاء فرصة الكلام لكل الّتيارات. لكن حق النقض كان حاضرا على الفور:

_ هل تريدون أن تعطوا المخابرات مالم ينجحوا في الحصول عليه حتى الآن؟ التركيبة السياسية لمجموعتنا؟

لقد نجحنا في نشر أعداد أخرى لكن ذلك لم يكن يعني بأن الامور كانت على مايرام. كانت الأزمة قد بدأت بالفعل والتطرف اليساري لطليعتنا كان واضحا للغاية. قام جزء من رفاقنا

بترك المجموعة لقناعتهم بأن الماركسيين كانوا يهيمنون على الوضع. اجتمعت مع مجموعتنا الأساسية بغية تقييم الوضع.

_ من المستحيل إنشاء جبهة في الوقت الّذي يقوم أفرادها بمرحلة إعادة بناء. نحن ملتزمون ونحترم التزامنا لكن يجب علينا إعطاء وقت أكبر لمحيطنا. إن الطليعة تبقى في النهاية مجرد غطاء.

_ لماذا لا نتوقف؟

إن الطليعة هي مثال على التنسيق الضروري، لقد قمنا بأشياء كثيرة، إذا كانت الخبرة ليست ممتازة فأهميتها تبقى رمزية. ثم لنتذكر أنه ليس لدينا شيء نخسره، إنها غطاء جيد.

كنا موافقين على مناقشة عيسى حول مسألة الوحدة بين مجموعتينا الصغيرتين. وهذا ما حصل فعلا. وقد انضم لنا معن معلا ومجموعة من الشبيبة من خارج التكوين التاريخي وبدأنا التعرف على حلقات ماركسية على امتداد البلاد.

كلفت بالقيام بمداخلات حول تاريخ الأفكار الإشتراكية، الثورات الكبرى في الزمن المعاصر، الأحزاب السياسية في العالم العربي، دور الجيش في استمرار التخلف بالإضافة إلى الحديث عن وضع المرأة.

في أحد الأيام تكلمت عن الافكار الإشتراكية وعندما وصلت إلى الماركسية بدأت بشرح معنى دكتاتورية البروليتاريا عند ماركس فقاطعني احد العمال:

_ بالنسبة للديكتاتورية أنا أعرف معناها جيدا ولكن ماذا تعني كلمة "بروليتاريا"؟

كان هذا السؤال كفيلا بأن أغير منهجي تماما. وصرت أتكلم بطريقة مختلفة.

في العام 1974 كتبت "المؤسسة العسكرية، حصان طروادة الاستعمار الجديد". قام الناشر البيروتي بحذف كلمة " المؤسسة العسكرية " وأخضع الجزء العربي للرقابة. تحولت المقالة إلى نصا يركز في المقام الأول على أمريكا اللاتينية وأفريقيا. لقد أزعجني هذا كثيراً فذهبت إلى بيروت للقاء د. بشير الداعوق وسؤاله عن السبب. عندما رآني تفاجأ كثيراً بصغر سني (كنت أرسل إليه مقالاتي عن طريق صديقي اليمني سلام) قال لي:

_ بفضل مقالتك عن العائلة تم منع العدد في كافة البلدان العربية والآن مع مقالتك هذه عن الجيش فإن الإنفجار في وجهنا هذه المرة سيكون محليا. نحن ديمقراطيون في عالم لا ينتمي للديمقراطية. ألشيء الأساسي هو تمريرنا لكل ما نريد قدر المستطاع لكي لا يقال يوماً أننا

لم نفعل شيئا. ربّما كان محقا لكن عالم الطباعة والثقافة في الشرق الاوسط سيذكر كثيراً اسم هذا الناشر العظيم.

قامت نفس المجلة بنشر أحد فصول كتابي الّذي عنونته " الأنسنة بين العلم والطوباوية" والّذي قامت المخابرات بمصادرة ثلاثة فصول أخرى منه بالإضافة لعدة وثائق، بعد عامين عند تفتيش منزلي. لم يعد لدي الشجاعة للكتابة من جديد في نصوص أمضيت معها ليال بيضاء.

في الجامعة، كانت ظاهرة الحلقات تعبيرا منطقيا عن التكيف السياسي في البلاد. تفكك قوى المعارضة، إستحالة إنشاء حزب سياسي كبير في ظل حالة الطوارئ، وجود إنقسامات في الأحزاب القديمة. شرعنا بإجراء حوار ومناقشات مع مجموعات صغيرة، كانت ناجحة احيانا وفاشلة أحيانا أخرى. قمنا أيضاً بإنشاء شبكات إتصال مع تنظيمات اليسار العربي، كانت لدينا أعمال فكرية بالرغم من صغر سن الأعضاء ولكن هل كان لدينا الوعي الكافي لحدود عوائق هذه الظاهرة؟ أعطى "لوسيان إسرائيل"، وبدون أن يكون عضوا بيننا، تعريفا واضحا لهذه الظاهرة:

"ماهي الحلقة؟ لنتجاوز وظائفها الهندسية ولكن دون أن ننساها. يقصد بالحلقة مجموعة الأشخاص الّذين من الممكن أن تكون لديهم مصالح وأفكار وصفات مشتركة، والّذين يخضعون على كل حال لنفس إجراءات الإنتساب، أكثر أو أقل صرامة وتشددا حسب التكوين وطبيعة الأشخاص. تعطي الحلقة للفرد محيطا داخليا وآخر خارجي. شيء قد التقيناه مسبقا، وبالتالي فإن كلا المحيطين المحددين يتصف بصفات محددة. في المحيط الداخلي يوجد التشابه الأخوي. وفي المحيط الخارجي يوجد العداء والتهديد من كل ماهو غريب ومختلف. تمثل الحلقة القسم العزيز للأشخاص الباحثين عن عصبية جديدة. هذا يعني أن الأشخاص الّذين يلجؤون إليها يتعرضون للاستغلال من قبل أشخاص يعطون الأمان وليس بالضرورة الديمقراطية. ولعل هذا الأمان هو الثمن الذي يدفعه المناضل للشعور بأنه ليس وحيدا في بلده"

في واقع الأمر كنا جميعاً خائفين من السجن داخل حدود الشللية ومن الإنعزال في مجتمع متطلب، مفهومنا عن الديمقراطية كان يمثل الطفل المدلل لحقدنا وكرهنا للمجلس العسكري، وانتقادنا الصارم للمجتمع خلق بعض التشدد في الموقف الشخصي لكل واحد منا. توجب علينا تقديم نموذجا على الأرض لأن الناس بحاجة في المقام الأول لبرهان على أرض الواقع قبل الكلام النظري وفيما يخص أرض الواقع كان الإخوان المسلمون أقوى واكثر تحضيرا منا. لقد أدركوا، قبل اليسار بوقت طويل، أهمية الجمعيات في إنشاء حركة واسعة. ونقطة القوة الثانية عند الإخوان كانت تكمن في خطابهم الّذي يعتمد لغة أليفة توظف

وتستقطب في التدين العام السائد. عملت القيادات المحلية بشكل جيد على مسألة التدين المتنامي في المجتمع وكانوا متفقين على نقطة واحدة: طريقة العمل كانت مستندة على "تشكيل الشخصية الإسلامية" أو "إصلاح النفس" بحسب مصطلحاتهم، أي العمل السري على المدى البعيد مع خلق ملتزمين يعيشون ويفكرون بحسب مبادئ الدين الإسلامي فقط ولا شيء غير الدين الإسلامي. إن تهميش عدد كبير من المتدينين ساعد الإخوان على اكتساب قطاعات واسعة من المناصرين وزودهم بنطاق عمل واسع في المحيط الّذين يؤثرون فيه. بالتوازي أطلق العلماء حملة واسعة تهدف لبناء مساجد عصرية مزودة بمكان لتدريس الدين واللغة العربية، وكللت هذه الحملة بالنجاح. هكذا اصبح من الممكن الإستفادة من آلاف الشباب الّذين لا يعلمون كيف يناضلون ضد سلطة لم تترك لهم سوى فرصة ضئيلة للنجاح، وبنفس الوقت ساعدت هذه المساجد في جعل حياتهم مهيأة لتكون وفق نموذج الحياة الإسلامي: تعليم القرآن، ممارسة الشعائر والعودة إلى الزعماء الدينيين لحل مشاكل الحياة اليومية. كان الإسلاميون يشعرون بالخطر من اليسار المتنامي في الجامعة فبذلوا الجهود لتحويل مركز الاستقطاب السياسي من الجامعة إلى الجامع.

حل شتاء 1974 حاملا معه برنامج عمل يفوق قدراتنا الطبيعية واقترح علي الرفيق معن معلا أن نذهب لقطاف العنب في فرنسا.

_ نستطيع أن نطوف أوروبا بحقيبة ظهر

_ لنذهب.

بدأت برحلة منظمة في الإتحاد السوفييتي لم تكلفني شيئا لأنني اشتريت الروبل من السوق السوداء. بعد 16 يوم في ليتوانيا ولينينغراد وموسكو وإريفان عدت بقناعة مفادها أننا لن نستطيع النجاح بتجربتنا الإشتراكية الإنسانية مالم نتخل عن الأنموذج السوفييتي. عرفت بفضل صداقتي مع لينا ، إبنة فيلنوس، أن المشكلة القومية في الإتحاد السوفييتي والّتي تم حلها، بحسب دعاية حزب الشيوعي، كانت قنبلة موقوتة.

بحت بانطباعاتي هذه إلى أصدقائي قبل مغادرتي إلى أوروبا. حيث اكتشفت طريق القطار السريع حتى باريس مع التعريج على هنغاريا وتشيكوسلوفاكيا وبلغراد وسراييفو والبندقية.

عند عودتي كانت لي مناقشة طويلة مع صديقي غياث الشيحة، مناقشة كان كل منا يريدها. لانه وبالرغم من الأعمال المشتركة الكثيرة الّتي كنا نقوم بها معا، والصداقة العميقة الّتي كانت تجمعنا، لم نتحدث أبداً عن التنظيم. لم تكن أفكاري عن التجمع الديمقراطي بالنسبة لغياث جدية، وبالنسبة لي كان غياث يسبح في بحر الجانب النظري. حدثني غياث عن

الجانب السياسي للمعارضة، أثار مسألة اعتقال الأشخاص البريئين الّذين كانوا يرفضون زيارة الرئيس نيكسون ويرفضون فرض الرقابة على الصحف.

" إسمع عزيزي هيثم، لست بحاجة إلى توزيع المنشورات السياسية لتذهب إلى السجن، يكفيك أن تمتلك واحداً فقط دون أن تبلغ عنه الشرطة. ينقسم المجتمع داخل عقلية رجل المخابرات إلى قسمين "متملق أو عدو"، كيف يمكننا إنقاذ الإنسان من المشروع الّذي يهدف إلى تدمير شخصيته ووجوده؟ لقد وافقت على مجموعة اقتراحاتك، كتبت في "دراسات فلسطينية"، نظمنا المناقشات، وفي كل مرة كانت السلطات تتدخل لتوقف نشاطاتنا الثقافية السلمية. لقد أرادت السلطة العسكرية إفشاء الجهل لكي يتغطى على جهلها هي. سياستهم بسيطة للغاية فهم يعملون على تطبيق المثل القائل" الأعور بين العميان سلطان".

بكلمة واحدة، قام الأسد بإغتيال الثقافة السياسية في البلاد ليبقى سلطانا.

لم أكن أملك أي جواب على التحليل الّذي قدمه غياث، تكمن المشكلة بيننا على مستوى النتائج. صحيح أن منابرنا القانونية كانت ملغاة، وأنه لم يكن لدينا الحق بإجراء المحاضرات وأن المساجد باتت المكان الوحيد لاجتماع أكثر من خمسة أشخاص، ولكن هل يدفعنا هذا إلى تبني النضال المسلح؟ لم أكن مقتنعاً بهذا.

_ كيف يمكننا تحرير الأراضي المحتلة إذا كان النظام العسكري يحتل دمشق؟ يجب أن تذهب بتفكيرك إلى آخر التحليل.

_ لقد اخترع الشعب الثائر وسائله الضرورية للنضال من أجل التحرير ولسنا نحن من سيفرض أي شيء

_ لا نستطيع كسر هالة العسكر بالكلمات، النضال المسلح هو وحده القادر على زلزلة عرش الدكتاتور. أنظر في أمريكا اللّاتينية، في العراق، في آسيا، في أفريقيا وفي كل مكان، يوجد أحزاب ثورية وأحزاب إنتهازية. يجب علينا أن نبدأ ببناء حزب شيوعي عربي يقود نضالنا ضد الدكتاتورية والإمبريالية في وقت واحد.

_ لا نستطيع تحقيق أحلامنا بعصا سحرية

_ كيف يمكننا النضال دون أن نحلم؟

بعد نقاش طويل، لم نستطع إيجاد أرضية نتفق عليها. بالرغم من إختلافاتنا كان كل منا يحترم الآخر. جاء غياث إلي مصطحبا معه كتاب محمود درويش "احبك أو لا أحبك". كان قد كتب شيئا على صفحات الغلاف. شعرت أنه كان يمر بأوقات عصيبة لكنه نفى.

_ على كل حال أنت تعلم جيداً أنه بإمكانك الاعتماد علي

_ أعلم.

أهداني الكتاب.

_ سأغادر إلى بيروت خلال أيام. لا تفتح الكتاب قبل أن أغادر.

هذا ما كتبه لي غياث..

"هيثم...

كان مخاض الأرض صعبا وكان السؤال الوحيد كيف نحافظ على بسمة الأطفال.. عصيبة والسؤال الوحيد الّذي يطرح نفسه في هذا الصدد: كيف يمكننا الحفاظ على إبتسامة الأطفال؟ أستميحك العذر من كلماتي

_ قالت: لا تفتأ تحدثني منذ الصباح عن جثته الّتي أصابتها ثلاثون طلقة. ولا تفتأ تغير الوصف والكلمات بلا توقف

تشرح لي كيف تحولت الجثة إلى جبال ووديان وصحارى وتؤكد لي أن جسده دفن في جسده لأنكم لم تستطيعون التدخل، وأن جسده كان مغطى بثلاثين زهرة حمراء وانه احتفل بموته وحيداً دون مساعدة أحد.

_ قال: عذرا. كان غيابنا طويلا. أذكر بأنه لم يكن لدينا موارد، أدركت أننا كنا في واحد من أقبيتهم المظلمة. كانوا يريدون معرفة كل ما اعلم، استخدموا آخر ماتوصلت إليه التكنولوجيا في انتزاع الإعترافات. حفروا عظامي بحثا عن الأفلام المصغرة. كانوا يبحثون داخل عضلاتي عن رسائل كتبت بحبر أبيض. كيف تسنى لهم سبر أفكاري؟

_ قالت: كفى، توقف. غيّر الموضوع أتوسل إليك.

قال: دعيني أتكلم فآلام سياط الجلادين لا تحتمل.

كانت شفتاي تتمتم بقصائد لوركا في كل مرة كان ظهري يحترق بالسوط. في كل مرة كانت شدة الألم تزداد كنت أبحث عن الله لينقذني. لكنني تعلمت أن كل الآلهة الطيبة كانت مجتمعة مع الشياطين في مجلس الشعب.

هل تصدقيني؟ لقد كنت أنت فقط بجانبي بالرغم من لحظات الألم، بالرغم من كل عمليات البحث الّتي كانوا يقومون بها، استطعت أن أحتفظ بصورتك معي.

_ قالت: لا أصدقك! أين هي؟

وضع يده في جيبه، بعينين مليئتين بفرح الطفولة وبشفاه لا تفتأ تعيد كما في الصلاة "صدقيني... صدقيني"، وأخرج رصاصات.... وصورتها.

تراجعت قليلا من وقع المفاجأة. صورتها: بضع رصاصات. ابتعدت غارقة في وحدتها، وهو أيضاً غرق في وحدته. تحولت الأرض بالنسبة له إلى جسد كبير مسكون بثلاثين وردة حمراء. لم يكن وحيداً. كان معه... صورتها وبضعة رصاصات.

اعذرني، عندما نكتب عن أحزاننا لا نستطيع التوقف.

1974/2/13.

غياث"

* * *

ذهب عيسى إلى جنوب لبنان لأخذ فكرة عن الوضع هناك، ولم يعد. علم حسّان بموته تحت القصف الإسرائيلي لمعسكر للفدائيين. بعد أن ضربتنا لعنة الموت لم يكن لدينا حتى الوقت لنبكي موت صديقنا، تم اعتقال اثنين من الرفاق في مجموعتنا ولم تكن لدينا إمكانية الإتصال بالبقية. ومن جهة أخرى كانت المخابرات تلاحق حسّان إثر تقرير كان يتكلم عن نشاطاته. اختفى بعض الوقت، ولم يعدم أحد الجيران الحجة لطرق بابي في كل مرة كان يأتيني أحد الاصدقاء، ما أجبرني على رؤية أصدقائي خارج الحي.

تعرفت على "القرمطي"، لاجئ من الجزيرة العربية في سوريا، في الوقت الّذي كان الوضع يزداد صعوبة شيئا فشيئا. نصحني ان أقيم حوارات مع باقي الحلقات، وجدت الفكرة جيدة وقرأت اللوائح الداخلية للمجموعة. المادة الأولى تبدأ بالجملة المشهورة "منظمة ماركسية لينينية "..... ترددت كثيراً.

ذات مرة دعيت من قبل الطلاب الدروز إلى مدينة السويداء" المدينة الجنوبية ذات الأغلبية من الموحدين الدروز". سألني أحدهم:

_ إنه لمن الجيد أن تحدثنا عن كومونة باريس، ولكن أليس من الأفضل أن تكتب عن عامية جبل العرب؟

_ حدثني عن هذه العامية، أنا أعرف أشياء عن عاميات لبنان.

_ عليك بالتحدث مع أبي فهو يستطيع التكلم أفضل مني

في المساء تعشيت مع عائلة "مزهر" الّذين دفعوني كثيراً لأكتب عن العامية.

أمضيت ستة أشهر في لقائات ونقاشات مع الأشخاص المسنين مستفهما عن انتفاضة عام 1886، وجدت ثلاث مخطوطات بالإضافة لوثائق مدهشة والبيان الجماعي الموقع من قبل الفلاحين. اكتشفت أيضاً صفحة مطوية من تاريخ سوريا المعاصر، الحركة الشعبية: منظمة جماهيرية ميزت محافظة السويداء بين عامي 1930-1948. تعلمت أن أعيد النظر في الكتب المدرسية وأن ألاحظ تحيز المؤرخين السوفييت الّذين كتبوا عن المنطقة. ولكن الأكثر أهمية هو أنني تعلمت الكثيرعن مسألة الأقليات الدينية وقرأت عدة مخطوطات من كتاب الحكمة. لم يخذلني اصدقائي الّذين ينتمون لهذه المنطقة في أوقاتي العصيبة ولا لمرة واحدة. ما أثارني في اكتشاف الموحدين هو مصطلح "العقال " الّذين يملكون العقل الواعي و"الجهال". لا يستطيع المرء الدخول إلى أماكن العبادات والتعرف على رؤية الموحدين للعالم والإيمان قبل بلوغ سن العقل والرشد. وبشكل عام نادرا ما يكون سن العقل وتحمّل المسؤولية قبل الثلاثين. في هذه اللحظة يملك الدروز حق الإختيار. فهمت جيداً لماذا تعتبر المدارس الفقهية السنية والشيعية متأخرة بالمقارنة مع عملية الجمع بين الإسلام والفلسفة اليونانية التي فتحت آفاق التجديد من أوسع أبوابه. إن كلمة "ممارسة الدين" بحسب الّتيارات غير الارثذوكسية في الإسلام لا تحمل غالبا نفس المعاني.

إن التعددية الدينية والقومية في سوريا هي الثروة الأكثر تميزا في هذه البلد. وهي تشكل الحاجز الثقافي الطبيعي ضد طغيان الفكر الواحد، حاجز يمثل أملا حقيقيا لعلمانية مجتمعية وحصن دفاع ضد خطر الطاعون المذهبي في الوقت ذاته.

سمح البدء بتوزيع صحيفة "الإنطلاقة " السرية، التابعة للمنظمة الشيوعية العربية، بعد حرب تشرين، لأوساط المعارضة باكتشاف الإطروحات المتقدمة لهذه الجماعة المسلحة الّتي أعلنت مسؤوليتها عن هجمات لم تكن تستهدف المدنيين أبداً. جماعة ممولة ذاتيا من خلال سرقة البنوك في بيروت ومؤلفة من سوريين وفلسطينين ولبنانيين. كانوا يختارون أهدافا شديدة الرمزية كفروع المخابرات ووكالات شركات أمريكية. عملياتهم كانت شعبية جداً في مجتمع معاد للأمريكيين كردة فعل على موقف الأميركيين الداعم لإسرائيل بشكل أعمى. وقعت إعتقالات كبيرة في دمشق وبيروت. قتل اثنان من المراهقين تحت التعذيب فيما سمح تعاون أحد الأجهزة الأمنية الفلسطينية مع المخابرات السورية بالقبض على خلايا التنظيم. أرادت السلطة العسكرية جعلهم عبرة لمن يعتبر فوجهت لهم اتهامات بالقيام بعمليات إغتيال وحكم على خمسة منهم بالإعدام. نفذ الحكم في الثاني من شهر آب عام 1995 وكان اثنان من أصدقائنا بين المدانين "غياث شيحة ومحمد خير نايف 22عاماً"، بينما

حكم كل من "عماد الشيحة، فارس مراد، هشام القاسم، جميلة البطش و هيثم نعال" بالسجن المؤبد.

المحكمة هي ذاتها في كل مرة، محكمة أمن الدولة. لا وجود لمحامين ولا شهود. انتزعت الإعترافات تحت التعذيب وكانت الأحكام قد وضعت مسبقا.

ذهبت مع معن وتيسير وجلسنا في أحد المقاهي المقابل للمحكمة لنعبر عن عجزنا عن فعل أي شيء، أكثر من كون وجودنا وسيلة صامتة للتضامن مع المعتقلين لأن بيان الإدانة الّذي نشرناه في الليلة الماضية لم يغير في الأمر شيئا.

عدت إلى بيتي وقرأت الملاحظات الّتي كنت قد دونتها بعد نقاشي مع غياث:

"إنه لمن الغباء أن يعتقد المرء أن أولئك الّذي قرروا اختيار النضال المسلح هم مرضى أو مجانين. بغض النظر عن التعصب الاعمى فإن اختيار النضال المسلح لم يأت عن طيب قلب لكنه فرض عليك من قبل أولئك الّذين حرموك من أي وسيلة أخرى تعبر بها عن رفضك للظلم.

_ غياث، المؤسسة العسكرية متفوقة عسكريا ولا يمكننا كسب المعركة على أرضهم إلا إذا كان الشعب كله مسلح. مجموعة مسلحة واحدة لا تستطيع فعل شيء سوى إعطاء الحجة لمزيد من القمع."

لم يكشف غياث ومحمد خير أبداً عن أسماء مجموعتنا بالرغم من شدة التعذيب وطول أمده، لم يتلفظوا أبداً باسم طالب واحد من محيطنا. كان الحداد باديا على وجوه الديمقراطيين في جامعتي دمشق وحلب وفي مخيم اليرموك.

تعاطفنا مع أولئك الأشخاص الّذين عرفناهم جيداً والّذين لم نعد نخفي احترامنا لهم وإعجابنا بهم بعد الآن وقررنا أن ننعتهم بالاشتراكيين الثوريين تيمنا بمن اختار طريقهم في روسيا القيصرية.

لم يكن اختيار أصدقائنا موفقا، وقد علمتنا تجربتهم أن العنف السياسي هو أيضاً الطفل غير الشرعي لإرهاب الدولة.

الموت

بدأت فكرة الوحدة مع الحلقات الماركسية الأخرى تهيمن في مجموعتنا شيئا فشيئا، لأن الأولوية كانت للخروج من النضال الّذي يفتقر لدقة التنظيم والّذي يتسم بالمحدودية وليس للإختلافات بين التنظيمات. كان عملنا في الطليعة محدود الفعالية بسبب اهتمام التنظيمات الأخرى بسياساتها الخاصة. كنت قد قبلت مقترح صديقنا "القرمطي" بلقاء أصدقاء المؤتمر الثاني للحلقات الماركسية. تم ترتيب لقاء مع "أحمد جمول" في أحد أيام الجمع لأنه كان يعمل طيلة الأسبوع.

كان أحمد شاعرا لكني أعتقد أن أوضاع البلاد قد انزعته من الأدب إلى النضال السياسي، كان التزامه أخلاقيا قبل كل شيء. كان "هيبّيا" في مراهقته وأصيب بمرض السل لكن قصّة حب استثنائية كانت كفيلة بشفائه، يبدو للناظر كمصنع فحم قديم وبقيت علاقته بالكحول وسيلة الرفاه الوحيدة مع السجائر. كان النقاش رائعا لأنه لم يخضع لعقائدية منغلقة، بعيدا عن ذلك، ولكن، بالنسبة له، لم يكن يحق لنا الإقتراب من التجربة الكوبية الّتي يعشقها ولا من الفيتنامية الّتي يحترمها. كان بإمكاننا انتقاد الآخرين لأننا، على كل حال، لم تكن لدينا تجربة يحتذى بها. تطور التنسيق بيننا بشكل سريع وتم اعتماد الوحدة بعد عدة أسابيع. تم اختياري للانضمام إلى المكتب السياسي وكان أول عمل مشترك عبارة عن منشور عنوانه "الحرية لجميع المعتقلين السياسيين في سوريا".

أدى انسحاب أربعة اعضاء من مجموعتنا بسبب رفضهم للوحدة إلى حرماننا من وسائل النشر لأن أحدهم كان يحتفظ بها، ولم تكن الطابعة الّتي يملكها أصدقاءنا متاحة قبل أسبوع. لم أقل شيئا لأنني لم اكن أريد إثارة خلافات مع رفاقنا القدامى من أجل مسألة أدوات. كتبت النص الّذي أقرته لجنة العمل، مع تعليق معتاد: سأهتم بذلك.

في البيت، لم أكن أعرف ما علي فعله. طبعت النص على الآلة الكاتبة ولكن كنت أحتاج لآله الرينيو لنشره.

طرقت أمي الباب في الخامسة صباحا:

_ أما زلت مستيقظا حتى الآن؟

_ نعم. أدخلي يا أمي

_ منى بخير؟

_ نعم ماما

_ وأصدقائك أيضاً؟

_ نعم

_ إذا لماذا تبدو شاردا وأرقا؟

_ شيء بسيط أمي. نريد طباعة منشور وليس لدينا وسيلة لنشره.

_ لدي طابعة في المدرسة

_ لا، ولكن عملك...

_ البلد بحاجة لكم أيضاً، ثم لا تنس أن الله سيحمينا

بعد خمسة عشر ساعة أخذت أمي عربة الأطفال وذهبنا سويا إلى المدرسة. في مساء ذاك اليوم كانت أمي تعزف على العود وأخي على طبله الصغير فيما كنت أنشر أنا وأبو حسين بيانا تاريخيا: كانت هذه المرة الأولى الّتي يتكلم فيها تنظيم سياسي عن المعتقلين من جميع الإتجاهات، من عقل قربان الموالي للعراقيين إلى نور الدين الأتاسي رئيس الجمهورية الأسبق إلى مروان حديد والإخوان المسلمين. كان البيان يستنكر توقيف الأشخاص بسبب آرائهم السياسية. كان بيانا واقعيا ركز على الحريات السياسية والإعتقالات العشوائية الّتي تحصل في البلاد.

حقق البيان انتشارا واسعا ونجاحا باهرا في طول البلاد وعرضها وشارك في توزيعه وإعادة طبعه أصدقاء سوريين وفلسطينيين على الرغم من كونهم لا ينتمون لتنظيمنا. كان بيانا مغفل التوقيع لأننا لم نكن نحمل اسما رسميا.

كان هذا البيان أيضاً فرصة لبيان مدى هشاشة المبادئ الديمقراطية عند الأوساط اليسارية. قام أحد أعضاء الحزب الشيوعي الموالين للإتحاد السوفييتي بتهديدي بأنه سيقدم استنكاره للسلطات في حالة تم وضع المعتقلين اليمينيين مع المعتقلين اليساريين، فيما قال أعضاء من تنظيمنا أيضاً بأنه ليس من مهمتنا الدفاع عن كل الناس. دافعت مع لجنة العمل عن مبدأ الدفاع عن جميع المعتقلين السياسيين واستنكرنا التعذيب داخل السجون وكل أشكال التوقيف السياسي. شرحت للرفاق في ثلاثة إجتماعات بأنني كنت أرفض أي تحالف أو إتفاق مع

الإخوان المسلمين الّذين كانوا أول من تعرض لنا على الأرض وفي كتاباتي، لكنني أدافع عن حقهم كما عن حقنا في امتلاك حزب سياسي قانوني في البلاد في إطار مجلس تشريعي جديد ينظم الحياة السياسية. وسيكون هذا الحزب عرضة لانتقاداتنا في كل مرة يخالف فيها أعضاؤه القواعد الديمقراطية والعلمانية لبناء دولة قانون. في تلك الحقبة لم يكن الأخوان المسلمون قد حملوا السلاح ضد السلطة بعد. تدرب جزء من مناضليهم في المخيمات الفلسطينية وباشر بعضهم تشكيل خلايا مسلحة في بعض المحافظات.

في واقع الأمر، جاء الترحيب، أول ماجاء، من أسر السجناء ومن الأحزاب السياسية الّتي كانت تعاني من القمع وخاصة من هذين الإتجاهين في المعارضة البعثية: حركة 23 شباط والقيادة الوطنية.

كان لدينا جميعاً ألوعي بأهمية وجود حزب سياسي قوي وواقعي وثائر. كانت الفكرة الأساسية لهذا الحزب هو جمع المنشقين الشيوعيين من تيار المكتب السياسي والعناصر الجيدة في قواعد الحزب الشيوعي الموالي للإتحاد السوفييتي، الجناح اليساري في حزب البعث مع الحلقات الماركسية.

كان يقع على عاتقنا تحضير الأرضية النظرية الكافية لقيام جدل واسع في هذه الاوساط من أجل البدء بتقارب حول برنامج واحد يشمل الجميع. تبدد تفاؤلنا بسبب الإستقالات الفردية لأعضاء هذه الأحزاب الّتي كانت تنضم لتنظيمنا. لكن مجموعتنا كانت فاعلة للغاية، كنا ننتمي لخلفيات سياسية مختلفة: إشتراكيين عرب، حزب البعث، قوميون عرب، ماركسيون وحتى بعض الإسلاميين القدامى. جزء مهم من المناصرين لم يكن لديهم تجارب سياسية إخرى. كنا نغطي الجغرافية الدينية للبلاد بالإضافة لوجود كورد وأرمن وشركس. نعم، كنا ندين شمولية التفاوت واللامبالاة. كانت "الأممية" ترنيمتنا وطريقنا من أجل عالم أفضل.

في المواضيع الأخرى، لم يكن إجماعنا كاملا أبداً. ولكن هل كان ذلك ضروريا؟ لا أحد يمكنه الإجابة عن هذا السؤال ولا حتى في أيامنا هذه. شيء واحد كان مؤكدا، كنا قادرين على العمل بشكل أفضل في ظل ظروف أقل قسوة وبوجود نهج ديمقراطي إجتماعي، لأن أصولية أفكارنا أكسبتنا جزءا من فئة الشباب على حساب الفئات الإجتماعية والمهنية الأخرى.

في رسالته الموجهة إلى الأمانة الدولية للتروتسكية[1] الأممية الرابعة، وصف الشاعر المصري "جورج حنية" الإختلافات الموجودة في إطار المنظمة المصرية "

" أصدقائي الأعزاء،

لقد وجدت المنظمة المصرية نفسها منقسمة ومشلولة منذ شهور طويلة، في الواقع، منذ أن خرج اصدقائنا من السجن "لطف الله، رمسيس يونان، أنور كامل إلخ...". تطور الشقاق على صعيدين: الاول ذو طابع عام ونظري والثاني ذو طابع محلي وعملي. ألا وهما:

1. الموقف الّذي يجب اتخاذه في حالة نشوب صراع مسلح مع الاتحاد السوفييتي
2. مسالة النضال السري في مصر .

بعد ثلاثين عاماً، أفضت النقاشات داخل اليسار الماركسي السوري إلى إعطاء أهمية كبيرة للمسائل الدولية، وقد سألت نفسي دائماً: كيف استطاع العالم الثالث أن يمنح نفسه ترف امتلاك أربعة تنظيمات سياسية لا تملك سببا لتعددها سوى خلافاتها حول القضايا الدولية؟

في تلك السنة، كنت محظوظا بإجراء لقائين إستثنائيين، اللقاء الاول مع "منصور أبو الحسن" الرئيس الاسبق لاتحاد الفلاحين والّذي تم انتخابه بطريقة ديمقراطية، واللقاء الآخر مع "موفق سمسمية" عامل يتمتع بصفات إنسانية وفكرية استثنائية، ما سمح لي بولوج هذين العالمين من أوسع الابواب.

_ إسمعني جيداً، قال لي موفق، أكثر من خمسين بالمئة من المصانع تعمل بلا مهندسين، لقد ارتفعت نسبة وجود طفيليات السلطة إلى 800%، تخيل أن مكانا مثل الجبسة في الرميلان يحوي 1600 موظف مقابل 1200 عامل وتقني، وازداد عدد الموظفين في شهباء والشركة الأهلية في حلب من 14 إلى 143 دون أي زيادة في عدد العمال، مهمتهم فقط هي مراقبة الآخرين. منذ العام 1974 ألغيت مشاركة العمال في الإدارة... في كل مرة كانت تنعدم فيها إمكانية إقامة إضراب، كان العمال يضربون سلبيا بطريقتهم الخاصة: كانوا يعملون بشكل أقل. وتأتي عملية نتائج عملية خفض القيمة الإنتاجية كالتالي: صناعة الأخشاب والمواد البلاستيكية تعمل ب 36% من قيمتها الإنتاجية، منتجات الألبان في دمشق تعمل ب 27% وانتاج المعلبات في جبلة تعمل ب 24 – 26% من قدرتها الإنتاجية.

[1] - هي تيار شيوعي وضع على يد ليون تروتسكي

وتوضح مسألة الإدارة كيفية وجود الفساد فقد أعلنت كل من الشركة الخماسية، تاميكو والزجاج في دمر عن خسائر كبيرة هذه السنة، ونحن نتكلم هنا عن أفضل المصانع في البلاد!

السبيل الوحيد لإنهاء الفساد المفرط هي المنافسة بين شخصين إنتهازيين يتنافسان على نفس المنصب أو بفضيحة كبيرة لأن أي نضال ضد الإدارة سيورث عقابا شديدا. يوجد عامل مريض من بين كل ستة عمال !

_ مريض!! ويستمر في عمله؟

_ بالتأكيد.. خذ مصنع الإسمنت مثالا، هذا المصنع يخلف إشعاعات تجعل من رئات العمال مستودع عفونة وحتى الآن لا نستطيع فعل أي شيء للعمال الأكثر عرضة للإشعاع. ولكن لماذا لا تعمل أنت على هذه المسألة؟ هل تريد أطروحة طبية لا تسمن ولا تغني المكتبة؟

هكذا وضع موفق في رأسي فكرة العمل على الوضع الصحي للعمال في المصانع كموضوع لأطروحة الدكتوراة في إطار الطب الوقائي. يجب عليك أن تحصل على إذن للدخول وموافقة من الجامعة والأمن. حصلت على إذن لزيارة بعض المصانع مع استبيان طبي للغاية ليس من شانه إزعاج أحد. ولكن رفض عدة عمال الإجابة على استبياني.

_ من أين حصلت على هذه الأسئلة حكيم؟ هل انت جاد في هذا ؟ أتريد منا الحديث عن الحقوق؟ هنا ليس لدينا سوى واجبات، والباقي للصحف وطلاب المدارس. ولكن النساء قلبن كل الموازين من خلال شهادات احتفظت بها بعناية فائقة، لقد قمن بإقناعي بأن أرمي هذا الإستبيان جانبا وأقوم بشيء أكثر فائدة. هذه بضعة أسطر من هذه الشهادات الّتي تعبر عن الوضع في سوريا اليوم أكثر من أي وقت مضى:

_ هل تستطيعين الإجابة على الأسئلة التالية؟

_ أي أسئلة، شو بدك بالأسئلة، أنا بحكيلك عن جهنم التي نعيش بها. أعمل بالتبغ قبل الظهر وبالبيت بعد الظهر، يحرقني التبغ ولا أستطيع حرق سيجارة (فشة خلق). لأن التدخين ممنوع في العمل ولا أجرؤ على التدخين أمام زوجي. الخمسين ليرة التي زادها الفريق لأجورنا (زيادة قررها الأسد حينها على المرتبات) لم تغير في معاملة زوجي لي. مرات قليلة أحسست بلذة في ممارسة الجنس معه، إنه يمارس الجنس دون أن يعرف سوى قضيبه وفرجي وصدري، أنا بني آدم مو حيوان، بشتغل أكثر من الحيوانات ومحرومة من كل شئ".

أنا عاملة فنية ومنذ سنتين في ... للغزل والنسيج قادمة من شمالي سورية. أهلي هناك وأريد أن أتحدث في قضية واحدةتتعلق بأهلي لم تطرحها في الأسئلة. أنا صحيح في دمشق ومتزوجة منذ أشهر ولكن أهلي الموجودين في حي محافظ والذين تفهموني وحرصوا على تعليمي دفعوا شيئا غير تكاليف الدراسة وهو سمعتهم في الحي. كل الناس يعيرونهم: أرسلوا ابنتهم إلى دمشق، ماذا تفعل هناك، أين تنام؟ أليس عيبا أن تسافر لوحدها لا أخ ولا ولي أمر... "كيف يلقون بابنتهم إلى التهلكة؟"، وهذه الجملة روجها خطيب المسجد في الحي.

سنتان وأنا استلم رسائل أهلي يخفون حينا عليّ ويتكلمون حينا وأسرتي فقيرة ولا تستطيع تغيير الحي. لقد أصبح أهلي معزولين مقاطعين فما هي الجريمة التي ارتكبوها؟ هل تعليم المرأة جريمة وهل عملها جريمة؟ وعندما نصنع النسيج أليس منه عمامة الشيخ الذي يشتم والدي أم أنه يريد عمامات مستوردة تصنعها النساء في الخارج؟ أريد أن تكتب هذا وأن تقوله للناس قبل الأسئلة، أنا شرفي في رأسي وفي يدي وليس شرفي في بقائي في المنزل. ومشكلتي أن أن أتساوى مع العمال الرجال لا أن يحاسبني الناس على ما تعلمت. .. أنت ترى معي، ألا يكفي قمع الدولة هذا قمع أيضا، قمع الحي".

هذا ما أسرّت به إحدى عاملات معامل الغزل والنسيج:

"لقد بكيت طويلا على أقدام المدير لكي يجدد لي عقدي. إنني بحاجة إلى العمل لأن والدي متوف وأنا أكبر إخوتي وأعيل أسرتي لمرض والدتي التي كانت تعمل قبل مرضها غسالة. كان مصرا على أن أزوره في البيت وكنت خائفة. اضطررت للذهاب معه من أجل أن أتمكن من الاستمرار في عملي. صدقني لم يكن هناك أية دوافع أخرى. فأنا درويشة وفقيرة وواحد مثله لن يتزوج مني. مانعت كثيرا أن يقترب مني ثم قلت له افعل ما تشاء ولكن ابتعد عن عذريتي فأنا إنسانة ومن حقي أن أتزوج. أنت تعرف ماذا يعني هذا في مجتمعنا. سيقتلني عمي وتصاب عائلتي بفضيحة. لم يرتدع وطلب مني أن أشرب معه عرق. لم أستسغ طعمه فأجبرني على الشرب. بدأت الدنيا تدور من حولي وسكرت. شعرت بألم كبير بين فخذي نمت بعده. وعندما أيقظني وجدته عاريا أمامي ووجدت نفسي معراة من بنطالي وكيلوتي مع وجود دم. كنت بد مذهولة حين باشرني السؤال: متى أتتك العادة الشهرية آخر مرة، قلت له بخبل: نظفت منذ يومين. فقال: تمام، تمام، لا خوف من الحمل؟؟".

كانت صرخة امرأة ما أزال أراها ماثلة أمامي حتى هذه اللحظة "ولك روح كلكم رجال، جاي تسألني عن صحتي وجسمي، ليش (لماذا) حتى اشتغل أكثر بالمعمل وأخدم بالبيت أكثر من الخدم. ما في غير الأوامر، زوجي نام معه واقعد مع أولاده وجيب مصاري (أحضر النقود) وأحسن هدية عندكم امرأة ربت ثور ما حرث. من يوم ما مات أبي وما عاد

في بيت احرد إليه صرنا نأكل الكف وننضرب بالصرماية. إذا كنت مو مثل هالرجال قولها بشرفك بصراحة الموت مو أحسن للواحد؟ بين حماتي وسلايفي وشو بتعمل بالمصنع وشو بتعمل بالبيت وتأخرت وما تأخرت فضيحة. الشيب عبأ رأسي ومازالوا ورائي كأنني بنت عشرين سنة. وبيقولوا الصبر، ولك ما في بعد الصبر إلا المجرفة والقبر. خذ أسئلتك الله يوفقك ويجبر بخاطرك".

.....

كان منصور أبو الحسن صديقا عزيزا، يعيش دائماً وفق عادات جبل العرب الطيبة: القهوة العربية، الكرم وخدمة الجميع بشكل لا محدود. إنه فلاح ثائر تلقى تعليمه في جامعة الشجاعة. تعلم الكتابة والترجمة من الفرنسية للعربية. كان يقود، مع آخرين، الحركة الشعبية في صلخد في الجنوب وساهم في تأسيس إتحاد الفلاحين في سوريا. كان رئيس تحرير صحيفة "نضال الفلاحين" لكن تم تهميشه من قبل البيروقراطيين في الحزب.عمل بعد ذلك مدققا لغويا من أجل أن يتمكن من كسب قوته.

عندما التقيته كان يعمل كصحفي مهمش. كان لدينا فلاحا في اللجنة المركزية ولكن لسوء الحظ لم تكن لديه خبرة منصور ولا غناه الثقافي.

_ حتى يكون كلامنا أفضل من الآخرين فإن قائد المسيرة استبدل كلمة "الإصلاح الزراعي" بكلمة "الثورة الزراعية "!! في الواقع، في شبابي، سواء في قريتي أو قريتك، لم تكن ملكية الأراضي موجودة فقد كانت الأرض مشاع. لقد جاءت الملكية الخاصة مترافقة مع الإشتراكية بطريق قمعية لا عقلانية. إن ثلث الأراضي المصادرة والّتي قد تم تاميمها، اليوم، يتم تقسيمها وتوزيعها على الفلاحين في إطار تعاونيات كانت انتاجيتها معدومة ومن ناحية أخرى فإن 57% من الأراضي الّتي خضعت للإصلاح الزراعي تم تأجيرها لموظفي الدولة الكبار، وجهاء الارياف، زعماء القبائل وملاك الأراضي السابقين.

إن الفلاحين الّذين لم يكن لديهم سوى قطع أرض صغيرة وأولئك الّذين وعدوا بالأراضي ولم يحصلوا عليها أبداً انتهى بهم المطاف إلى الهجرة نحو المدن، بينما ذهب عدد لا بأس به من الفلاحين، العلويين على وجه الخصوص، لتعزيز سلك الجيش.

_ واتحاد الفلاحين؟

_ جزء لا يستهان به من أعضائه الدائمين، الآن، لم يزرع جزرة في حياته. أعضاء حزب وموالون للسلطة من كل الإتجاهات.

لم اطلب أبداً من منصور أن ينضم إلينا. خبرته ونصائحه كانت دائماً تحت تصرفنا فلماذا أورطه أكثر؟

لقد كانت النقاشات مع "لطف"، إقتصادي ومناضل يساري، بحضور أصدقاء حلقته، بالنسبة لي تشكل لحظات استثنائية في تاريخ تشكيل مفاهيمي. كانت تتمحور حول قضايا محلية وإقليمية رئيسية.

في أحد المرات قمنا بتحليل ذاتي من خلال طرح السؤال التالي" من نحن؟".

_ لنبدأ ببنية السلطة. قال لي

_ ثلاث عشرة سنة من حالة الطوارئ وست سنوات على توحيد مراكز صناعة القرار وشرعنة الإستبداد. بدلت التغييرات الهيكلية في بنية السلطة، بشكل جذري، آليات السلطة وامتلاكها في المجتمع السوري لصالح التجمع العسكري. لقد باتت طبقة العمال، بالمعنى الماركسي للكلمة، أقل عددا من موظفي المنشآت العسكرية ومراكز المخابرات المختلفة. لقد تمت "عسكرة المجتمع" وأصبحت التنظيمات الشعبية من الآن فصاعدا تمارس الوصاية على الشعب. لقد حمت السلطة نفسها من خلال توحيد الفصائل العسكرية الخاصة والّتي ينتمي اغلب أفرادها إلى عشيرتي "القراحلة والمتاورة" العلويتين. لقد استغل التجمع العسكري ورقة الطائفية، الروابط العضوية، علاقات العمالة والسمسرة وتحالفات المصالح لخلق طبقة واسعة مرتبطة، موضوعيا، بالسلطة. وهذا ما رشح لنا بعد هذا النقاش:

_ الحالة تستدعي إنشاء تيار اشتراكي ديمقراطي قادر على جمع طيف واسع من جميع الطوائف في خندق واحد ضد السلطة.

_ لنقل "اشتراكيون ديمقراطيون" غير ملوثين كثيراً بفكرة التأميم، ومتأثرين بشكل أقل بالمفهوم الغربي للديمقراطية.

_ يجب علينا قلب المعطيات وإلا ستكون مسألة وجود أغلبية أمرا مستحيلا. لقد ضاق المواطن ذرعا من كونه هدفا دائماً للأشخاص الّذين يستغلونه لتسويق خطابهم الثوري الخاص، إنه بحاجة للاعتراف به.

_ ولكننا غير قادرين على القيام بخصخصة وحشية كما المصريين، يجب علينا خلق توازن بين الحماية الاجتماعية الاقتصادية للفرد وبين حقوقه السياسية. فكرة الزيادة مستحيلة ولكن من الّذي يتكلم عن هذا في الشارع؟

_ حدثني أيضاً عن الإرهاب الفكري لليسار الّذي لا يمكنه قبول كلمة "اشتراكية" بدون دولة إشتراكية، والذين يقفون ضد الاحزاب الإشتراكية الديمقراطية الأوروبية.

_ تدخل صديق للطف: بعد تاريخهم الاستعماري؟ جزائر "ميتيران" الفرنسية، العدوان الثلاثي والمواقف المخجلة للحزب من العمال البريطانيين.

بدأنا بتوزيع صحيفة "الأول من أيار"، في الأول من أيار عام 1976، كنت أنا وعباس مضطلعين بمهام الكتابة، كانت ردة الفعل الشعبية إيجابية للغاية لأن الصحيفة تناولت الأسئلة البسيطة للحياة اليومية مع تحليل لنفسية الجمهور. بدأت قطاعات عدة تطلق علينا اسم "مجموعة الأول من أيار".

لقد علمنا من أصدقاء داخل القوات المسلحة أن الجيش السوري سيتدخل في لبنان، وشكل هذا الخبر صدمة كبيرة لنا. تمكن شخصان من تحذير الأصدقاء اليساريين اللبنانيين، فيما تدخل شيوعي لبناني لتهدئتهم قائلا:

_ رفاق، نحن نحترم رفضكم ولكن لا أعتقد أن النظام السوري جنّ بما فيه الكفاية ليقوم بهكذا عمل

كان كمال جنبلاط الوحيد الّذي أصغى بانتباه ثم جلس وقدماه مشدودتان، كعادته، وقال: لم يعد يدهشني شيء من جانبهم.

أعلنت التعبئة العامة على مستوى التنظيم، وكان كثير من المثقفين الصامتين حتى الآن مصدوماً بدخول القوات السورية الأراضي اللبنانية. وزعنا منشورا ودراسة قمنا بإعدادها عن هذا البلد. لم يكن حسّان الّذي كان في بيروت يعطينا أي إشارة على كونه مازال حيا، لم يمض وقت طويل حتى علمت بمقتله بعد أن قامت مجموعة من حزب الكتائب باغتياله. ها انا ذا في الخامسة والعشرين من عمري اقف مجددا أمام موت صديق الطفولة الّذي كان رفيق كل معاركي، علمني أن الحياة هي أيضاً أن تستطيع تأمين كسرة خبزك، وأن على كل دولة في العالم أن تأمن لمواطنيها الحد الأدنى من الأجور الّذي يسمح لهم بتأمين الطعام والسكن كإشارة من شأنها أن تفرق بينهم وبين باقي الحيوانات الأخرى.

لقد رحل حسّان ولم يكن يملك الحق أن يقول لنا وداعا. لقد تعبت نفسيا وجسديا لكنّ منى الّتي بكت حسّان ساندتني كثيراً في هذه المسألة.

كان موعد الإمتحانات يقترب، منى كان لديها رسالة الدكتوراة أما أنا فكان يتوجب عليّ ان أحضر نفسي لامتحانات أيلول. حددنا، منى وأنا، موعد زواجنا ، الّذي كان قد تم مسبقا بحضور إثنين من الشهود وبقي أن نثبته في قصر العدل، حددناه في 28 تموز. كانت عائلتها رافضة للفكرة فاخترنا الهرب بضعة أيام ليقبلوا زواجنا فيما بعد. بقينا مختبئين في شقة صغيرة كنا قد حضرناها مسبقا ريثما تهدأ العاصفة. حلقت لحيتي بناءاً على طلبها. عشنا سوياً لحظات رائعة. كان الأصدقاء يمرون لتهنئتنا وكنا نطبخ سويا. كنا نتناقش حول المؤتمر القادم للتنظيم الّذي حدّد موعده بعد شهر وأطلقنا مسبقا إسما على النشاط الّذي سنقوم به عند عودتنا.

فتحت التلفاز لمشاهدة الألعاب الاولمبية وجلست معي لمشاهدتها ثم أطفأت التلفاز وقالت لي:

_ هيثم، إذا قدّر الموت لأحد منّا فيجب على الآخر أن يكمل عمل كلينا معا

_ دعينا لا نتكلم عن هذا الآن

_ بلى

_ أعدك يا حبيبتي أن أبذل كل مافي وسعي من أجل كل ضحية وصديق. حدثيني عن الغد فالحياة أمامنا

كان لدينا الحق بأن نعيش ثلاثة أيام من السعادة فقط قبل أن يخبرنا أحد الأصدقاء بأن العائلة جاهزة لتسوية المسألة معنا، زواج لائق كما يجب. وافقنا على لقاء أخ لمنى كان يعرفني مسبقا. عندما وصل تحدثنا عن إقامة حفل زفاف تحضره شخصيات وطنية سياسية وفكرية وطلب مني التواصل مع الأصدقاء متعهداً من جانبه القيام بالشيء ذاته.

ذهبت أنا ومنى للقاء بقية العائلة والعودة سوياً. كان استقبالهم لنا عدوانيا منذ البداية، ثم أرادوا فصلنا عن بعضنا لعدة أيام حتى تنتهى الترتيبات الضرورية. تكلمت مع منى على انفراد، قالت لي: لن يستطيع أحد إبعادنا عن بعضنا. قمت بضمها إلى صدري قبل أن أودع عائلتها.

بعد رحيلي وضياعي في شوارع الحي، عاشت منى أقسى لحظات حياتها. بدأ أحد إخوتها، والذي كان يعمل جراحا، هجومه عليها مترافقاً بأقذع الشتائم وطالباً منها أن تغادر فورا إلى إنكلترا لتكمل دراستها وتنهي قصّة الزواج هذه، بينما صرخت أختها "لقد دنستي شرف

العائلة". سألها الجراح المسكين "ماذا عساي أن أقول لأهل قريتنا؟". بعد أن هوجمت جسديا وأوذيت نفسيا، دخلت إلى الحمام وابتلعت أقراص الأدوية الّتي وجدتها هناك. سقطت على الأرض مغشيا عليها ثم نقلوها إلى المشفى، إلى نفس المشفى الّتي درسنا فيها سوياً. في اليوم التالي تحسنت حالتها لكن أخوها الّذي ذكر آنفا دخل عليها وقدّم لها دون غيرها كأساً من عصير البرتقال. أخذت صحتها بالتدهور إثر كأس البرتقال هذا وكانت تردّد باستمرار "أريد أن أعيش... أريد ان أعيش..." ولم تمض ساعات قليلة حتى فارقت منى، ذات الخمسة والعشرين ربيعاً، الحياة في مساء الرابع من آب. أخبرني احد أصدقائي الأطباء ان التقرير الطبي أوضح أن سبب الوفاة كانت عدوى رئوية وأن منى كانت عذراء.

ذهب الزوج، الّذي مالبث أن تاه عند خروجه من منزل منى، إلى الجنوب ليخبر أصدقائه بالزواج ويخبر عمه حسّن كذلك. عاد مساءاً إلى البيت ليحلّ كابوس مخيف ضيفاً ثقيلاً على ليلته

_ استيقظ يا بني، هل أنت بخير؟

_ لا يا أمي. لقد قتلوا منى، رأيتهم بعينيّ

_ هذا مجرد حلم يا بني سيكون كل شيء على ما يرام

اتصلت بمنى في اليوم التالي ولكن لم يجب أحد على إتصالي، وكنت قد اتصلت بأخيها الّذي كان وسيطا بيننا وبين العائلة فأخبرني أّن منى تعرضت لوعكة صحيّة وأنّها بخير وكل شي سيسير كما تم الإتفاق عليه وأنه سيأتي لاصطحابي إلى المشفى مساءاً. إنتظرته، معن وزوجته جاؤوا مساءاً ليبيتوا عندنا، قام معن بوضع كاسيت لجورج موستاكي. معن كان يترجم لي لأنني لم أكن أفهم الفرنسية. بدوره، وصل مصطفى فقررت الذهاب إليها دون انتظار أخيها.

كنت أركض في ممرات المشفى مناديا "أين منى؟". إحدى الممرضات الّتي كانت تعرفني أرشدتني إلى غرفة صديقتنا شهيرة الّتي كانت مع منى. كانت نائمة بعد أن أخذت جرعة كبيرة من المهدئات.

_ أين منى؟ استيقظي، أين منى؟؟

_ منى ماتت، كل شيء انتهى. الحياة، الحب، منى، هيثم المسكين وشهيرة المسكينة. لم يبق لنا أي إنسان في هذه الحياة. آه يارب

_ لا، شهيرة ، هذا ليس صحيحا

_ بلى صحيح. هكذا الموت دائماً يحصد القديسين.

_ أردت أن أثور في المشفى لكن معن ومصطفى منعاني من القيام بأي شيء

_ لا نريد حماقات هنا، موت واحد منا تخطى كل طاقتنا على التحمل. قال مصطفى

اصطحبوني بالقوة إلى منزل معن الكائن في منطقة التل بالقرب من دمشق.

لم أغف أبداً ولم أدع أصدقائي يتمكنون من النوم. طلبت سيجارة، ثم علبة سجائر، بدأت أدخن بلا توقف. كنت أشعر بوحدتي، بلا أصدقاء، تائهاً بدون منى. لقد تغير طعم الحياة منذ تلك اللحظة. حياتي كانت مشروطة بالحب، هذه المعجزة الّتي كانت تمنعني أحيانا من النوم ليومين متتاليين، أن أتابع عملي دون توقف، أن أدرس وأكتب. أحيانا، وبفضل اتصال هاتفي سحري واحد من منى كان يأتيني عند الثانية بعد منتصف الليل، كنت أتابع كتابتي لنص معين أو قرائة تقرير معين حتى السابعة صباحا.

_ معن، اتدري أنني كنت محظوظا بلقائي منى. آمنت بوجود الإله جراء هذا اللقاء. لكن العدالة الإلهية لم تعد موجودة بعد الآن، لقد آلمتني الحياة لدرجة استعيد بها صيحة الخيام (يا دهر هل بالذي تأتيه تعترف...) لماذا هذا الظلم؟ هل علينا الاختيار بين إله ظالم أو غياب فكرة الله التي كانت العدالة وراء سموها؟

جاء أخي الّذي كان مريضا إليَّ لكي يكون بجانبي في هذه المحنة. أخذني حسين العودات إلى بيته وبقيت عنده عدة أيام، وهناك زارني الصديق أحمد جمول. بقينا على انفراد بناءاً على طلبه. فتح حقيبته الصغيرة وكان فيها مسدساً صغيراً.

_ هيثم، عرفتك دائماً قويا وعظيما، أعرف بأنك تمر بأوقات عصيبة ولكنني لا أرغب برؤيتك ضعيفا حتى في هذه الشدة، ليس لك أن تخيب أصدقاءك: إما ان تكون قادراً على تحمل مأساتنا في منى أو أن تلحق بزوجتك الآن. في كلا الحالّتين ستكون إنسانا كبيرا.

_ أبق مسدسك معك، علمتني منى كيف أتصرف في مثل هذا اليوم.

وصل العم حسّن بعد يومين وأخذني بين ذراعيه قائلا:

_ قتلوا زوجتك؟ قل لي من الّذي يجب عليه أن يدفع ثمن الدم وأنا سأتصرف.

_ لا ياعمي. لا أريد أن أخون زوجتي. لقد ناضلنا سويا لنغيّر المجتمع، أنا أرفض مفهوم الانتقام المتوارث هذا. لقد انتهى كل شيء. لقد فقدت زوجتي ولا أريد أن أفقد كرامتها أيضاً.

_ لكنك بذلك تترك المجرمين يفلتون من العقاب وتدعهم أحراراً

_ ليسوا أحرار. لن يستطيعوا النوم بهدوء بعد اليوم

كانت عائلة منى ممزقة تماما. كان المسؤول عن قتل منى ينتظر مني، في كل لحظة، أن تهاجم سيارته أو يعتدى على عائلته، الأم كانت في حدادها، تهمهم: ألم يكن أفضل أن تتزوج من الشيطان وتبقى على قيد الحياة ؟

مرت بي شقيقتا منى لتقديم العزاء وكانت لحظات جد مؤثرة.

كيف أمكن لعائلة لا تمارس الشعائر الدينية أصلا أن تعارض زواجا قائما على الحب بحجة اختلاف الأديان؟ كان كبار السن يقولون أن المسلمين يرفضون تزويج بناتهم للمسيحيين، ولكن نحن، نحن لم يكن لنا أي صلة مع العجائز وكبار السن وقصصهم. لقد اشتهرت عائلتنا بزيجات عديدة كانت من دين مختلف واشتهرت بعقليتها المتسامحة أيضاً، وخصوصا منى.

هذا ما أرسلته شقيقة منى الصغرى لي بعد ذلك:

"إلى عشيقها

لقد أمضيت أمسية هذا اليوم مع " مناك "، مع شعرها، عطرها وصورها الحزينة.

لقد بكيت بجانبها وقد ملأتني الحرقة والألم، حدثتها مرة ثانية عن ظروف اختفائها المرعبة. قلت لمنى: إن قتلتك يحاولون تجميل صورتهم فوق جثتك.

بحثت عن خواتمها، عن الهدايا الّتي جلبتها لحبيبتك كذكرى من بعيد، أتذكر كيف كانت تفرح عندما ترى هداياك.

أين هي؟ قلت لمنى أن مأساتها كانت هنا، أعظم من وجودي، من حزنها الّذي يحطم قلبي، والّذي لم أعد معه قادرة على الحب كما في السابق، كنا مزيجا من الجمال والكآبة.

منى.. ذات العينين الكبيرتين، اللّتين فاقتا عينا النمر والفرات، واللّتان منحتانا حرارة الحب.

إنّ الصّابئين والحشاشين كانوا ظلمة

لقد بتّ بعدك محطمة، ضائعة، تائهة. لا أعرف ماذا أقول لك.. عودي، عودي أرجوك.. مرة واحدة لكي أراك وأكحل عينيّ بك، لكي أروي لك ما حصل بعد أن رحلتي، لأننا لم نكن نتصور معنى وأبعاد هذه المصيبة.

رأيتك البارحة، بكيت من الفرح. بعد دقيقة انتبهت بأن هذا لم يكن إلا حلما.

بكير طل الحب عا حيي لنا

برفقة مرارته ودموعه وحداده

كنا وكانوا هالخوات مجمعين

يمى ما بعرف ليش اختارها لمنى

لا تقل شيئا البتة، لأنه لا يوجد أحد قادر على الإجابة

الطريق مظلم والليل لم ينتهي

الباب مغلق والحشائش المتوحشة تملأ المكان

ماذا نقول؟ ماذا نقول.. كل شيء صار صدى

مافي حدا... لا تندهي ما في حدا

.....

كانت زيارتنا للقلعة كمثيلاتها أو شبيهة. أوقف الحراس الأهالي ثلاث ساعات ثم اخبروهم بأن وقت الزيارة انتهى فعدنا إلى البيت مصطحبين معنا ما جلبناه من طعام ككل الأهالي الّذين جلبوا معهم الطعام لسجنائهم.

السجن السياسي يعني المعاناة والإذلال المزاجي، كل مرة، من عدة أمور: زيارات ملغية، منع للكتب والصحف الرسمية، منع للمواد الغذائية، إنتظار من دون سبب، شتائم مجانية، أو مجاملة تسقط من السماء، أيضاً ليس لها تفسير، على الأقل بالنسبة للعائلات البائسة الّتي تتلقاها.

كان من عادتنا ترك التعليقات للأشخاص المسنين لكي نبقى في منأى عن أية ردة فعل غير متوقعة. تمت الزيارة في الأسبوع التالي. كان أبي يعلم مسبقا بهذا الخبر السيء، لقد بذل مجهودا لكي لا يبكي في حضوري. نظر إليّ فرآني أدخن فأومأت له أمي بعدم إصدار أي تعليق. إن أبي لا يدخن ولكنه لم يمنع الدخان أبداً. كانت أمه تدخن ولعل هذا هو سبب موتها المبكر.

_ اسمع يا بني، لا يظهر الاختلاف بين الناس إلا عند المواقف الصعبة، لقد آلمني كثيراً كوني لا أستطيع فعل شيء لك. لقد فقدنا شخصا إستثنائيا. عندما قامت منى بزيارتي رأيت في خياراتها المستحيلة المرأة الرفيقة لولدي.

كان أبي متأثرا للغاية، كان يود لو تطول زيارتنا حتى يستطيع أن يكلمني أكثر، كان الجو مرعبا ولم أعد قادراً على الكلام أكثر....

بعد عشرين عاماً، مازلت أعاني من صعوبة في وصف هذا المشهد: أمي الممزقة وأبي ووجهه العاجز عن الفعل خلف القضبان وأنا. أراهم وأنا أفكر بمنى، حسّان، علي، غياث، عيسى، مصطفى وأحمد...

كان الحزن باديا على وجوه الحرس الذين سمحوا لي بعناق والدي. أما أختي الصغيرة فكانت تبكي علينا كلنا.

لم أكن أعلم، ولا حتى أبي، بأن هذه هي المرة الاخيرة الّتي سنرى بعضنا فيها، وأن السلطة القمعية ستمنعنا من أن نلتقي حتى صيف 2003...

العمل السّرّي

بقي عدة أيام لموعد المؤتمر التأسيسي لحركتنا، لم يكن لدي الحق أن أعيش لحظة حداد واحدة. صحيح أن المشكلات الأساسية كانت قد نوقشت مسبقاً من قبل الحلقات، لكننا لم ننتهي بعد من مشكلات التنظيم والإنتخابات. ذهبت في 26 آب إلى حلب برفقة أحد المشاركين. كان أعضاء المؤتمر يمثلون المناطق الكبرى، ويصلون فرادى لدواع أمنية، واحداً تلو الآخر، ومن مناطق مختلفة.

تذكرني المؤتمرات العلنية للأحزاب السياسية في الولايات المتحدة كل أربع سنوات بمقدار الاختلاف بين العالمين. أستطيع القول، بلا مبالغة، أن الشبان الذين كنا، بلا تكتلات ولا مجموعات ضغط ولوبيات، كانوا ديمقراطيين حقيقيين مع جرعة من المثالية المخفية، فغني عن القول أن إظهارها سيكون وسيلة إضافية لإضعاف الديمقراطية التمثيلية. ولأن هذا المؤتمر كان الأخير بالنسبة لي في البلاد والأخير في سوريا بالنسبة للآخرين إليكم بعض مشاهد هذا الحدث:

لم يكن هنالك مزايدات ولا وعود، ولم يكن هنالك حتى منصب أمين عام ولا رئيس. طغى في المؤتمر إحساس، عزيز علينا جميعاً، بالشعور بالمسؤولية ورؤية أكثر إيجابية للعالم والإنسان كانت تهيمن على روح جميع المشاركين.

وجوه كانت حاضرة تحت أسماء مستعارة لأسباب أمنية، طوال ساعات، واكتشاف أعمال بعضهم ومزايا ومواهب البعض الآخر. صراع علني جرى حول اثنين من الأنظمة الداخلية: الأول، والّذي دعمته بلا توقف، كان مستوحا من تجربة ماركس الّتي اعتبرت ديمقراطية لحد لا يمكن معه تطبيقها في ظل سلطة عسكرية. والثاني، مستوحى من التجربة

البلشفية ومن "ما العمل؟" الّتي ارتبطت بلينين والّتي دافع عنها أصلان. لم يكن هناك أي حل وسط. انتصرت الديمقراطية الداخلية.

قمنا بالتصويت على برنامج سياسي وتطوير الرؤية الاستراتيجية بالإضافة إلى نشر صحيفة ومجلة نظرية.

مُنع التدخين في الصالة لإصابة أحد الرفاق العمال بالسل. بقي "أكرم البني" الرفيق الأصغر سناً بين الجميع، في ذاكرتي كرمز للمستقبل. لم يكن يجل بخاطرنا أن حياته ستكون بين السجن والملاحقة، وأن محكمة أمن الدولة ستصدر حكما بحقه بالسجن خمسة عشر عاماً بعد ملاحقة استمرت أكثر من ثماني سنوات. أصبحت دراسته للطب من ذكريات الطفولة. وعانت عائلته كلها من خياره السياسي فيما كان دائماً ضد أي شكل من أشكال العنف. ولعله في خياراته المدنية السلمية بعد كل هذه المأساة خير مثال على أن الإنسان أقوى من مجرد فعل وحشي للدكتاتورية وردود فعل غير مدروسة من الضحية.

انتخبت في القيادة مع فاتح جاموس، عباس عباس، أصلان عبد الكريم وأحمد جمول. وها نحن ذا بعد 36 عاماً: اثنان في المنفى وثلاثة مناضلين عاشوا ما مجموعه 48 سنة سجن.

وكما كانت والدتي تقول دائماً "الحمد لله أنكم مازلتم كلكم على قيد الحياة".

بالرغم من القواعد الصارمة الّتي فرضها التنظيم على نشر أعضاء الإدارة للمقالات الموقعة بأسمائهم، وخاصة فيما يتعلق بمواضيع الاختلاف، إلا أن كل واحد منا كان يعيش حياته الفكرية على طريقته الخاصة. احتفظت بصداقاتي وعلاقاتي الثقافية، ماسمح لي بامتلاك نشاطات مكثفة إلى جانب حياتي النضالية. كان مشروع "ميشيل سورا" بالنسبة لي يشكل انفتاحا كبيرا على العالم.

التقيت ميشيل عند صديق مشترك، كان يتحدث ويكتب العربية بطلاقة، وكان يحب سوريا حدّ العبادة. عاش في منزل بالحلبوني مع رسامة سورية حلبية "ماري". ذهبت معه إلى بيت منصور، موفق وكثير من الأصدقاء السوريين والفلسطينيين. لقد توطدت علاقتنا بسرعة وأصبحنا أصدقاء مقربين. كان ميشيل قريباً للقلب، مثالي ويملك دفئا ولد معه مذ جاء إلى هذه الدنيا تحت السماء التونسية. فرنسي يكره الحدود ويعشق البحث. سألته ذات مرة: إذا كان لك الخيار، ماذا ستفعل في الحياة؟

_ باحث.

كانت كلمة "جاسوس" الّتي نعته بها خاطفوه، بعد عدة سنوات في بيروت، واحدة من أقسى الكلمات الّتي صدمتني في حياتي. لأنه، بالنسبة لي، كلمة باحث تعني ذلك الجاسوس الّذي يعمل لحسابه الخاص. كان ميشيل مستعدا للمخاطرة بحياته من أجل المعرفة.

أحب ميشيل كتابي عن انتفاضة العامية وحدثني عن موضوع بحثه "القومية العربية" واقترح عليّ نشر مؤلَّف مشترك بيننا عن سوريا.

.....

كانت فترة ما بعد المؤتمر مضغوطة جداً، قمت فيها بأسفار عديدة. بعد عودتي من شمال البلاد، كنت عائدا إلى شقتي مشيا على القدمين فرأيت اخي الصغير معن ينتظرني عند زاوية الشارع

_ هل كل شيء على ما يرام؟

_ أهرب بسرعة، إنهم بانتظارك في البيت

فهمت الرسالة. عدت بهدوء ثم ذهبت عند أحد الرفاق لأحذر كل من كان يمر على البيت وكل من كان يحمل نسخة من مفتاح بيتي.

ثم مررت عند زوجين كنت أحبهم كثيراً، أبو عبدو "نهاد النحاس" وليلى. تركت الرسالة وقاموا بإيوائي في الليل.

أنقذت نفسي بفضل أخي معن. في تلك اللحظة، لم نكن نعلم ما تخبأه الحياة لنا. سيفرقنا القدر لأكثر من خمسة وعشرين عاماً قبل أن ألتقيه مرة اخرى في مطار دمشق في 21 آب عام 2003 عند عودتي إلى دمشق بعد ربع قرن من الحياة في المنفى.

سيقوم هذا المهندس ومعدّ المشاريع بدور عظيم في ثورة 18 آذار 2011. سيتم توقيفه مرتين على رأس المظاهرات في درعا وتعذيبه بشكل وحشي لكنه سيبتكر شعار الثورة "سلمية لو قتلوا كل يوم مية". في 8 آب 2011، اغتالت المخابرات معن بعد أسبوع واحد من إطلاق سراحه في درعا.

* * *

ها نحن أربعة قياديين في العمل السري، فاتح، عباس، محمّد معمار وأنا. وسينضم أصلان إلينا بعد شهرين. من المؤكد أن التعبئة العامة الّتي قمنا بها منذ التدخل السوري في لبنان لن تمرّ مرور الكرام. إجتماعات في درعا، السويداء، حلب، حمص، زيارات لمنطقة الغاب،

اللاذقية، الحسكة وكل ذلك خلال عدة أسابيع بالرغم من التحولات الجذرية الّذي أعيشها في حياتي الشخصية.

كان فاتح مهندسا واشتراكيا عربيّاً سابقاً. دخل في العمل السري مع زوجته وابنه، كان التقدير المتبادل موجود بيننا. لقد اتهمني مرتين بأنني انساني أكثر من كوني مناضلاً ثائراً. إنه مناضل لا يعرف التعب. فاتح ينتمي لعائلة علوية وفي وقت مبكر من حياته قام بإحراق القرآن في قريته لكي يطلب من أصدقائه تبني عقلانية لا تشوبها شائبة. بعد سبعة عشر عاماً في السجن، ها هو اليوم يشارك في إدارة "التحالف السلمي من أجل التغيير" منذ انطلاق الحركة الشعبية في سوريا والّتي يصفها بأنها "أزمة في النظام والمجتمع".

ينتمي عباس إلى عشيرة "المتاورة" العلوية والّتي ينحدر منها أكبر جلادي المخابرات. كان بإمكانه العمل على دعم المجلس العسكري الحاكم لكنه اختار ان يعيش عشرين عاماً من حياته بين جحيم المطاردة والسجن. بقيت زوجته واطفاله في مسقط رأسه قرية "القريات" الّتي بقيت الملكية العامة للأراضي تقاوم فيها حتى العام 1971. كان دائماً مخلصا لأفكار حزب العمل الشيوعي.

محمد معمار رجل الاقتصاد، صديق رائع ورجل حقيقي. ولد في القدموس لعائلة إسماعيلية، حافظ على التقاليد الجيدة للمعارضة في المجتمع العربي الإسلامي. تم توقيفه بعد عدة أشهر. وهو يناضل اليوم في إطار المجتمع المدني.

تحول أصلان، بعد 15 عاماً في السجن ونضال ال15سنة الاخيرة، إلى مدافع عن التدخل الأمريكي حسب النموذج العراقي.

فصلت من الجامعة بعد أن أنهيت دراسة الطب، لوحقت من المخابرات، وكنت مجبراً مع أصدقائي على تأمين بطاقات هوية مزورة للتنقل، منزلاً للنوم وأموالاً لنواصل العيش إلخ... ومرة أخرى، تدخلت أمي وأمنت لنا قبواً لننام فيه فيما قرر التنظيم منح كل منا مبلغاً يقارب ال 150 ليرة سورية وكانت صديقة لي تؤمن مبلغ 50 ليرة سورية كلما استطاعت للكتب والسجائر كما كانت تقول لي. استطعنا إيجاد بيتين سريين آخرين واستأجرت، بواسطة بطاقة الهوية المزورة الّتي كنت أحملها، بيتاً مشتركاً في باب مصلى مع شخصين مسنّين.

يوماً بعد يوم، وجراء كل هذه الأحداث، اكتسبت خبرات جديدة وأصبحت لي حياة جديدة. كانت "روز" إلى جانبي في هذه الاوقات العصيبة، بالإضافة لبعض الأشخاص الّذين كانوا يفضلون البقاء في الظل. حلّت حالة الطوارئ، في هذا البلد، شيئا فشيئا، محل القانون الّذي، شيئا فشيئا أيضاً، لم يعد أحد قادر على التعرف عليه في حياته اليومية.

تعلمت كيفية صناعة الاختام وتزوير البطاقات الشخصية لكنني أقسمت بشرفي ومعتقدي أن تكون خبرتنا في هذا المجال من أجل إنقاذ الحياة وحرية الإنسان.

كان نشر صحيفتنا يتطلب وجود طابعة. كيف نستطيع شراءها في بلد يقبع فيه كل الّذين من شأنهم توزيع المنشورات تحت المراقبة؟ نشرت أحد المطابع إعلانا لبيع طابعة قديمة، وضعنا خطة محكمة لشرائها: لعب فاتح بلهجته العلوية دور أحد ضباط سرايا الدفاع، ولعبت أنا دور جندي بسيط وثالث لعب دور السائق المرافق لنا. استطاع فاتح محاكاة ضباط الوحدات الخاصة ،الّذين كانوا يحكمون البلاد بالحديد والنار، بشكل تام. كان المالك خائفا من سؤالنا عن أي شيء. دفعنا الثمن المعروض وطلبنا وصل استلام ثم قامت شاحنة كبيرة بإيصالنا لمنتصف الطريق. ما إن غادرت الشاحنة حتى وصل أحد الرفاق يقود شاحنة فأكمل المهمّة بهدوء تام. كنا أربعة رجال في العمل السري فقط يعلمون مكان وجود الطابعة لكننا لم نكن نعلم أن الشارع نفسه يضم بيتاً لأحد المعارضين. وفي أحد الأيام وصل زوار الليل لاعتقاله فحاول الفرار. قامت المخابرات بتفتيش البيوت للبحث عنه، بيتاً بيتاً. وهكذا تمت مصادرة الطابعة مصادفة. ظلت معروضة أمام البيت عدة أيام برفقة رجال الأمن الجالسين أمام الباب على طاولة قديمة كانت في المنزل يشربون الشاي بشماتة.

أحياناً، يهبط الفشل من السماء وتتعدى العبثية كلّ حساباتنا العقلانية.

في العمل السري، تخضع الحياة الإجتماعية لقواعد خاصة. لقد كنت أنا من يختار المكان الّذي سآوي إليه دون أن أخبر مضيفيّ أبداً بموعد زيارتي. تصرف يفرضه الحذر لا الوقاحة. كنا محظوظين بلقاء أشخاص كنا نتمنى حقاً أن نلتقيهم. لم يكن أحد ليفرض علينا لقاء أشخاص غيرهم. كنا نعيش كعائلة ونفكر تماما كما يفكر قطاع الطرق. ولكي لا تصدم هذه العبارة القارئ، لنقل قاطع طريق إجتماعي: ثقة، تعاون ومشاركة. كنّا نمارس السّياسة ولكن لم يكن لنا علاقة بالتسييس. كنا جميعاً شركاء في جريمة جماعية تهدف إلى انتهاك هدوء حقبة الطاغية وأزلامه، بدون عنف ولا خسّة بالرغم من أن خصمنا لم يلتزم يوماً بقواعد اللعبة. كنا نعمل دائماً بشكل هائل لكن كان لدينا دائماً أوقات فراغ. تعلم أحدنا لغة أجنبية وتعلم الآخر الطبخ. صحيح أننا لسنا في السجن ولكن كان يجب علينا اتباع قواعد أمنية مشدّدة لكي لا نذهب إليه. يمكن لمن يعمل بشكل سري السفر والذهاب والعودة ولكن دون أن يعرضه هذا للخطر. يكمن فخه ونقطة ضعفه في زوجته أو في عائلته. أخفيت هويتي عن أصدقائي في عدة مناسبات. كنت ذاهبا ذات مرة للبحث عن نظارات لأحد الرفاق عند "العيطة" فرآني أحد الجيران

_ سلام هيثم، كيف حالك؟

_ عفواً سيدي، أنت مخطئ

ثم توجهت بحديثي للبائع

_ نظارات باسم "سعد" لو سمحت.

_ يا إلهي، صاح الجار. إنّك قادر على أن تخلق من الشبه أربعين.

كان ابن خالي صخر أكثر دقة، أقسَم عليّ أن أقول الحقيقة لأنه، كما قال، سيشك من الآن فصاعداً في كل شيء.

_ قل لي بأنك أنت هيثم وأقسم لك بالله أنني لن أقول لأحد أبداً.

_ انا ابن خالك ولكن ليس لي أن أخطئ أبداً. لم ينبس صخر أبداً ببنت شفة عن هذه القصة.

كان الحظ من نصيبنا بين فترة وأخرى بتناول وجبة من إعداد أمي أو من إعداد أم أحد الأصدقاء. أو دفعة تين وعرق صنع في منزل عائلة عباس تأتي من الجبل.

كانت ليلى امرأة مثيرة للإعجاب، وكانت هي من تتصل بأمي وعائلتي. ليلى فتاة من عائلة مسيحية وكان زوجها نهاد ينتمي لعائلة مسلمة وكان زواجهما بالنسبة لنا مثالاً يحتذى به. كان منزلهما مركز إيواء لكل البائسين والمشردين السياسيين. تزوج معن معلّا عندهم وآخر أيضاً. ولكن الثمن الّذي دفعته هذه العائلة المناضلة كان باهظا جداً. أربعة سنوات من العمل السري تبعها خمسة عشر عاماً من الاعتقال التعسفي للزوج وعاماً كاملاً في السجن لليلى.

.....

في أحد الأيام، أرسلت لي امي رسالة مستعجلة عن طريق احد الأصدقاء تطلب مني فيها السفر إلى انكلترا مباشرة والإلتحاق بأخي. كان الأطباء الإنكليز قد شخصوا له ورماً دماغياً "كولستياتوم". كان يتوجب على أحد أفراد العائلة أن يوقّع على إجراء العملية باعتباره وصيّاً. كانت رسالة امي أشبه برسالة لأم "أرسين لوبين". (أنت تعلم أنني لا أستطيع السفر بلا جواز وأبوك مازال في السجن وإخوتك البقية مازالوا قصّرا. يجب عليك انت أن تسافر إليه. لقد أقرضني أخي المبلغ اللازم للسفر).

وافق أعضاء اللجنة جمعاً على السفر، لأسباب إنسانية، لأنه كان علينا ترتيب بعض الأمور. أخذت ترجمة إنكليزية لقيد مدني قديم، هوية مزورة للوصول إلى بيروت وجواز

سفر مزور للوصول إلى لندن. وبالرغم من كل ذلك، لم أكن خائفا من الاعتقال لأنه، الآن أو لاحقاً، سينتهي بي المطاف إلى السجن لأجل غير مسمى بلا محاكمة ولا تهمة. تعهد عباس بمرافقتي إلى بيروت، وعند وصولنا علمنا بالخبر السيئ"القبض على رفاقنا في دمشق وحلب". أكد لي عباس، الّذي كان مسؤولا عن المسائل الأمنية بأن ذلك مستحيل، وأنّه لا يعدو كونه إشاعات.

_ في أسوا الإحتمالات، لا تعتبر عودتك الآن خياراً صائباً، إرحل.

طلبت من السفارة تأشيرة سريعة لاسباب طبية للالتحاق بأخي غير الشقيق الّذي يرقد في أحد مشافي لندن، وغير الشقيق هنا لأن اسمه كان يختلف عن إسمي المستعار. طلبوا مني رؤية الملحق العسكري.

_ هل انت مهندس؟

_ نعم سيدي

_ هل لديك بطاقة زيارة أو أوراق من الشركة الّتي تعمل فيها؟

_ نادراً ما أحمل هكذا أوراق... آه نعم! أستطيع أن أطلب من أصدقائي اللبنانيين بطاقات قديمة أو عقود

_ لديك ساعتان فقط

أخذت سيارة أجرة وذهبت مباشرتا إلى مطبعة جورج حداد، صديقي الرائع في المواقف الصعبة. طبع لي بعض البطاقات والأوراق المروّسة، قمت بكتابة حرفين وبعض الكلمات على إحدى البطاقات ثم أعادني بالسيارة. وصلت بعد أقل من ساعتين

_ لا أعرف إن كنت كاذباً عبقرياً أو أن كانت قصتك حقيقية ولكن في الحالّتين فإنك لم تقم بسرقة التأشيرة.

استقليت طائرة اليوم التالي. في لندن، ذهبت فور وصولي إلى العيادة المحددة لكن أخي كان قد نقل إلى مشفى " بروووك" لإجراء العملية. طلبت مني الراهبة الّتي استقبلتني توقيع بعض الأوراق ولكن الوقت قد تأخر فسألتها إن كان باستطاعتي أن أبيت الليلة في العيادة. وافقت بعد أن حصلت على الإذن المطلوب. في الصباح، ركبت القطار وتوجهت إلى المشفى، كانت العملية قد أجريت لأخي بالفعل. انتظرت في الحديقة حتى تصبح حالته أفضل ثم بحثت عن مكان رخيص لأنام فيه. أرشدني موظف الإستقبال في أحد الفنادق المتوسطة إلى فندق فيه غرف مشتركة ثلاثة أشخاص او أربعة وأجرته تكاد لا تذكر.

كانت الغرفة في الطابق الأخير باردة ولا تحوي تدفئة فاضطررت لممارسة الرياضة المسائية حتى لا أتجمد.

رأيت أخي في اليوم التالي

_ لقد تعافيت، سأكون على ما يرام

_ بالتأكيد

_ أريد ان آكل "المقدوس" (باذنجان محفوظ بالجوز)

_ لو سمحت همّام، لا تطلب مني المستحيل

_ مستحيل!! أنت رجل مطارد، قمت بعبور كل هذه البلاد بأوراق مزورة لتراني ولا تستطيع ان تجد لي " أكلة مقدوس"؟ مستحيل علي أن أصدقك

إنفجر كلانا من الضحك.

أمضيتُ أربعة أيام مع أخي، طلب مني البقاء لفترة أطول.

_ لا أستطيع

_ إبق من فضلك، أشعر بأنني لن أراك بعد الآن

_ لا تقل هذا، سنلتقي. لقد تعافيت أنت اليوم وغداً وطننا هو من سيتعافى.

غنّى لي مقطعاً من أحد أغاني فيروز

" يا طير

يا طاير على اطراف الدني

لو فيك تحكي للحبايب شو بني

يا طير.. يا طير

روح سألن عالي وليفه مش معه

ومجروح بجروح الهوا شو بينفعه

موجوع ما بقول عالي بيوجعه

وتعن عباله ليالي الولدنة

ياطير... يا طير"

بكى أخي. كان متأكداً بأن هذه المرة الأخيرة الّتي يراني فيها.

كان محقاً، لأنه سيموت بعد أربعة عشر عاماً في حادث سيارة قبل أن نتمكن من رؤية بعضنا مجدداً.

عند موته، قرأ أحد أبناء عمومتي، عند قبره، كلمة كنت قد كتبتها. تماماً كما حصل مع منى، غياث والآخرين.

منحتني فرنسا تأشيرة مرور بشكل أسهل. في باريس، إتصلت بأحد الأصدقاء فسألني:

_ هل تعرف شيئا عن حملة الاعتقالات الّتي تمت مؤخراً؟ لقد اتخذ النظام قراراً بتصفيتكم. سمعت أرقاماً عدة: 150-300-320 سجين. منهم أصدقاء ومنهم من محيطكم.

لم اكن أعرف ماذا أقول. أردت الإتصال ببيروت قبل أن أعطي أي تعليق ولكن لم يكن أحد يجيبني في بيروت. وظلت الشائعات مصدر معلوماتي الوحيد. زودني مخرج سينمائي وصل لتوه من دمشق بأسماء بعض المعتقلين وحدّثني أيضاً عن أكثر من 300 سجين. يعدّ هذا الرقم، بالنسبة لمسؤول، كارثة حقيقية. عملت بعد ذلك على تعبئة الرأي العام بمساعدة أصدقائي المغاربة والتونسيين.

علمت بالقصّة كاملة بعد عودتي إلى دمشق. وهذه هي التفاصيل:

"سيتغير مستقبلنا في 23 آذار عام 1977. بعد حادثة اغتيال كمال جنبلاط قمنا بإرسال رسالة لعائلته السياسية تم نشرها في صحيفتنا المحظورة برفقة رسم كاريكاتوري للرئيس السوري وهو يصفّق... بعد ثلاثة أيام، شُنّت حملة اعتقالات واسعة طالت التنظيم. تم اعتقال أكثر من 90 شخصاً، 32 منهم كانوا أعضاءاً. 26 شخصا منهم كانوا معروفين بالنسبة للمخابرات ولكن تم إطلاق سراحهم ليكونوا فخّا يتم بواسطته القبض على الأعضاء البقية. استطاع أصلان الفرار من الاعتقال بمعجزة وكذلك الحال بالنسبة لنهاد.

شاعرنا فقط هو الّذي لم يعتقل. في مجموعتنا التاريخية، كان الجنوب مستثنىً بالإضافة إلى أبو سامي وثلاث خلايا أخرى أيضاً لكن بدر تمّ اعتقاله. شاب مليء بالحياة، كان يقدّم كل ما بوسعه. وهاهو ذا بعمر الثامنة عشر يقبع في سجن المزة العسكري.

تمّ اعتقال محمد معمار وأم العز " هالة العبد الله " أيضاً، تم تعذيبها ثم أطلقوا سراحها. رأيت آثار التعذيب على قدميها. المجرمون، كانوا يواصلون استخدام ذات الأساليب".

قررت أن أستقل الطائرة إلى بيروت لألتقي أصدقائي الّذين انقطعت أخبارهم عني. هناك التقيت بعضاً منهم ممن استطاع الهرب من السجن. كان أصلان هناك، قال لي أنه، بالنسبة له، كان يفضل إكمال عملنا النظري نحن الثلاثة وأن هذا العمل سينشر من خلال كتيبات صغيرة ويوزع بشكل واسع في سوريا. وخاصة في المناطق الّتي دائماً ما كنا نعتبرها الأكثر قبولاً لفكرة تأسيس حزب ثوري في البلاد.

فاتح، أصلان وأنا بدأنا بالعمل ليلاً ونهاراً بينما تم تكليف عباس ونهاد بأمور التنظيم. لا أحد منا يمكنه القول، بعد ستة وثلاثين عاماً، أنه كان قادراً في هذه الظروف على إعطاء أفضل ما يستطيع. كنا تحت ضغط دائم، فيما كانت مسألة وجود حركة شيوعية، في البلاد، مؤلفة من حزبين كبيرين، كفيلة بلا شك بتكييف موقفنا من عدة أمور: الصراع العربي الإسرائيلي، السياسة الأمريكية في المنطقة والحرب الاهلية الدائرة من حولنا في بيروت.

لكن الجميع كان لديه شعور بوجوب إكمال هذا العمل بطريقة أو بأخرى، ثم وضع المخطط بعد ذلك.

فاتح هو الّذي سيكتب نصاً عن جدلية بناء الحزب.

بعد شهرين من العمل الفكري المضني، وبوجود صراعات واختلافات، وجدنا حلاً وسطاً بين بعض الايديولوجيات الموجودة على الأرض وبين النهج الذاتي لتجربتنا. برأيي الشخصي، لم نكن موفقين بطرح بعض المسائل بشكل جيد وجعلنا مجموعتنا تتموضع حول تفاصيل لا طائل منها.

في الوقت الّذي نُشِرت فيه المجموعة، أخذت الطائرة، من جديد، برفقة سعيد سيف (الاسم المستعار للمهندس عبد الرحمن النعيمي السكرتير العام للجبهة الشعبية في البحرين) للانضمام إلى المؤتمر التدريبي الّذي نظمه ثوار "ظفار" في منطقة "تريم" في اليمن. كانت فرصة جيدة للتعرف عن قرب على التجربة اليمنية الجنوبية والتقاء المناضلين اليساريين في عدة بلدان. لقد كان هذا الشهر الّذي أمضيته برفقة أصدقاء عظماء شهراً لا ينسى، لأنه وعلى الجانب الآخر، كان البترول، الأموال، جيش شاه إيران والخبراء الأميركيين. ومن جانبنا، كان يوجد رجال ونساء يتكلمون عن مجتمع الغد العربي، عن مجتمع يتم بناؤه من الرجال والنساء، جنباً إلى جنب. مجتمع المساواة، الحرية والإخاء.

كانوا قد قرروا، منذ عدة شهور، إيقاف النضال المسلح وإطلاق أشكال سلمية أخرى للصراع من أجل هذه القضية الخاسرة لأن العالم الغربي، بكل مكوناته، كان مستعداً لإعادة مأساة الهنود الحمر في سبيل إرساء الأمن تحت سماء الخليج والسعودية.

لقد عرض علينا أصدقاؤنا في ظفار المساعدة على الرغم من الظروف القاسية جداً الّتي يعيشونها. كانت فرصة التقيت فيها عبد العزيز القاضي السكرتير العام لجبهة تحرير عمان ورئيس الجمهورية اليمنية الديمقراطية سالم علي وأعضاء المكتب السياسي في الحزب الحاكم.

لقد عايشت غضب الطبيعة مرتين في هذه الرحلة، في الصحراء، كنا تقريباً على شفا الموت من العطش. ومرة أخرى عندما ضربت عاصفة قوية لرياح الخماسين [2]المدينة أثناء تجوالنا فيها.

عدت إلى بيروت بغية سلوك طريق دمشق، برفقة أصلان، عن طريق بعلبك- صحنايا. رحلة مكوكية، سيراً على الأقدام ثم عن طريق المكرو باص.

لقد تم تنفيذ عملية إدخال شاحنة كتب إلى سوريا على مراحل. نجحنا بتخطي النقطة الرئيسية الموجودة في قرية قرب دمشق. وهناك، أخذت الدراجة وقمت باستكشاف الطرق لأبي أيمن مهندس العلاقات الإنسانية الحميمة. وخلال لحظات زاد من سرعته للّحاق بي.

_ إركب يا أخي، إركب. لن أدعك تموت من البرد. لدينا إحتمالان لا ثالث لهما: إما النجاح أو الفشل. واليوم هو يوم يومنا، سننجح إن شاء الله.

اجتزنا مدينة دمشق بهدوء سحري، مررنا بجانب سيارة "رانج روفر" تابعة للمخابرات بدون أي قلق. كان أبو أيمن واثقاً من نفسه، ولم يكن لي إلا الإعجاب بتفائله القدري.

توقفنا في البيت الّذي كنت أسكن فيه مع أصلان، قمنا بتفريغ الشاحنة الصغيرة لنتمكن أخيراً من النوم، حتى الساعة العاشرة صباحاً.

لقد أعادت هذه العملية لمجموعتنا قدراً كبيراً من الثقة الّتي كنا بحاجة لها حقا. إذ كانت المخابرات قد وجّهت لنا للتو ضربة قاسية. فقد أثبتنا لهم للتوّ أننا قادرون على صنع

---

[2] - هي رياح جنوبية شرقية فصلية جافة وحارة تأتي من الصحراء الكبرى محملة بآلاف الاطنان من الرمال باتجاه مصر وبلاد الشام .سميت هذه الرياح بالخماسين لأنها تنشط في فترة خمسين يوم من فصل الربيع خاصة في شهر أبريل ،الا أنها نادراً ما تهب أكثر من يوم أو يومين في الأسبوع خلال هذه الفترة ،تصل سرعة رياح الخماسين إلي 140 كم/س وتؤدى إلى ارتفاع سريع في درجات الحرارة وانخفاض في معدلات الرؤية.

المعجزات وأننا تقنيون بامتياز. كما أظهرت لنا قصورنا وحاجتنا لتوسيع مجالنا التفاعلي في البلاد لأننا سنصبح، شيئاً فشيئاً، رهينة لظروفٍ فرضها علينا القمع البوليسي.

ها نحن الآن نتعرض لعملية بحث واسعة بغية اعتقالنا، بالإضافة لمصاريف ثقيلة تقع على عاتقنا: لقد فرّ ثمانية عشر شخص تقريباً من السجن لكنهم بحاجة الآن لما يعيلون به أنفسهم. الأشخاص المتزوجون لديهم عائلات يجب عليهم إطعامها. لم تعد مقدراتنا الإقتصادية تفي باحتياجاتنا، وبتنا نطلب المساعدات من المنظمات غير الحكومية الحليفة لنا، ولكن بلا شروط، بعد أن كنا نرفض دائماً أية مساعدة من أي أحد. لبت مجموعات اليسار الفلسطيني طلبنا وقدمت لنا المساعدة وكذلك الأمر بالنسبة لأصدقائنا في ظفار. تم وقف العمل باللوائح الداخلية للتنظيم ووضعها في الحجر الصحي وأثبتت بعض نصوصنا الّتي تتعلق باستجوابات الشرطة عدم فاعليتها.

كتب لنا أحد الرفاق الّذي كان معتقلاً ثمّ أطلق سراحه بعد أن وعد بالتعاون معهم مايلي:

" سألني الضابط السؤال الأول الوارد في أحد نصوصنا (كيفية مواجهة الإستجواب)، فأجبته، فسألني السؤال الثاني وأجبته بالضبط كما يجب أن أجيبه وكذلك الحال بالنسبة للسؤال الثالث.

وضع الضابط النص على الطاولة قائلاً:

_ حفظت درسك جيداً أيها الأحمق الصغير، لننتقل الآن إلى الكلام الجاد: سيتمّ تعذيبك إلى أن تتكلم بكل ما لديك.

بعد عشر ساعات من التعذيب المستمر من قبل عدّة أشخاص، لم يعد باستطاعتي التحمل أكثر فتكلمت".

لم أكن أملك أية أدلة مقنعة أدافع بها عن لوائحنا الداخلية فبدأت أنظر إلى المركزية، ولأسباب أمنية، باعتبارها خياراً لا مفرّ منه. بعد فترة صعبة من الحياة في جو ديمقراطي، وجدنا أنفسنا نعيش كأعضاء دائمين نتيجة ظروف فُرضت علينا وليس نتيجة خيار شخصي أو جماعي.

لكن نشاطنا كان يلبّي حاجات حقيقية موجودة، هذا على الأقل، وبدون تحليل، ما كانت الضحايا تقوله لنا كلّ يوم. لقد كان التقدميون يثمّنون، أكثر من المحافظين، ما نقوم به وذلك لأنه وبكل بساطة، تعتبر الشجاعة عملة نادرة في ظل الحكم الاستبدادي ويعتبر نشر الإحباط البرنامج السري لفروع المخابرات المختلفة.

كانت حالتنا الفكرية مطابقة تماماً لما يقوله بودلير "كل شيء سيغدو أفضل في أسوأ العوالم الممكنة للجميع". إن الوقت الّذي أمضيته مع أصلان سمح لي بالتعرف على منظومة القيم الشركسية. لقد كان من أشد المعجبين ب "لينين" وكان مخلصاً للصداقة. بالإضافة إلى أنه كان مهووسا بالنظافة.

ذات يوم، أصابه مرض ولم يكن يريد أن يظهر آلامه ولكنه بالرغم من ذلك لم يعد قادراً على التحمل أكثر. في النهاية قرر أن يتكلم:

_ "أبو الوِل" (اسم دلع لاسمي المستعار وائل)، هل تعلم أنه لو لم يكن من المخجل أن يتكلم المرء عن مرضه لكنت قلت لك أن المرض قد أنهكني بالفعل.

لقد كانت المجموعات المختلفة الّتي نعرفها تتحدث عنا بشكل مبالغ فيه بكل ما للكلمة من معنى وكأننا هبطنا من المريخ.

ذات مساء، عند أحد الأصدقاء، كان أحد الحاضرين الّذين لا أعرفهم يقصّ على الموجودين كيف استطاع هيثم الفرار من الجيش.

_ كانت هناك عدة مركبات عسكرية تطوق بيته، فخرج من النافذة وقفز في الهواء ليصل إلى الشقة المقابلة ثم استطاع أن يركض على الأسطح ويغادر المنطقة المطوقة.

تدخلت قائلاً:

_ أعتقد أن الشخص الّذي قصّ عليك الحكاية قد بالغ قليلاً، هيثم كان محظوظا بغيابه وقتئذ عن البيت. لقد أنقذ استبصار أخيه حياته.

_ هذا ما تروج له السلطة لكي تخفي فشلها.

_ أؤكد لكم بانّ هيثم نفسه هو من أخبرني

_ لا

_ إذاً صديقي، أنا هيثم. وأؤكد لك أنّ القصّة بسيطة للغاية.

كان يرفض فكرة كوني إنسان عادي، لا أكثر ولا أقل، وأنني كنت محظوظا باستطاعتي الفرار من عملية بوليسية كانت قد أعد لها بشكل جيد.

حاول مضيفي تهدئه صديقنا الّذي كان بحاجة، كالكثيرين غيره، لبطل يمجّده.

لقد خلق الإحباط العام من الممارسات العدوانية ضدّ المواطنين مناخاً من التعاطف مع أي تصرف شجاع يصدر عن هذا المجتمع ضدّ جلاديه.

لقد واصلت اللقاء سرا مع ميشيل سورا وبو علي ياسين وعشرات من الأصدقاء الآخرين لكنّني، لسوء الحظ، لك اكن قادراً على لقاء المعتقلين أو الذهاب إلى بعض الأماكن أو زيارة الأصدقاء الّذين كان لديهم أقرباء مقرّبين من السلطة الخ...

كنت أستفيد من الدورات الّتي أجريتها، في السنة الأخيرة من دراستي في كلية الطب، في مساعدة صديقات ملاحقات على الإجهاض. وعلى الرغم من كونه غير محظور قانوناً إلا أن الإجهاض يبقى بالنسبة للنساء العازبات مسألة حياة أو موت فكيف إن كن ملاحقات. ذات مرة، أجريت عملية إجهاض، ولم يكن يوجد أية مواد طبية، فقط الأسبرين وجهد الفتاة الجسدي الجبّار. وسار الأمر بشكل جيد. وفي المرة التالية طلب مني احمد إجراء نفس العملية لفتاة كانت خطيبة أحد الرفاق لكن الأمر فشل كليّاً. فاضطرّرت لتأمين شهادة زواج شرعي مزورة وهوية بنفس الاسم لتقوم بعملية الإجهاض دون لفت انتباه الطاقم الطبي.

كانت الملامح السياسية للبلاد تتغيّر، وأصبح المنشقون الشيوعيون يقفون في صف المعارضة بشكل واضح. كان الفلسطينيون بغالبيتهم يتحركون ضد السلطة، بينما كانت الأحزاب السياسية الكردية منقسمة حول هذه المسألة. جرت عدّة إضرابات في كلّ من جامعة حلب ودمشق وفي عدّة مصانع لمدة 15 شهراً.

كان الإخوان المسلمون يعيشون مخاضات ومشكلات داخلية أعقبت مؤتمرهم السري، ولم يعد بالإمكان معرفة أيّ تفصيل، مهما دقّ، عن تحركاتهم. لكنّ تقريراً لأحد الرفاق من حماه فتح عينيّ على ثوار حركة الإخوان المسلمين الّذين سيعرفهم العالم بعد ذلك تحت اسم " الطليعة المقاتلة للإخوان المسلمين". أقتبس هنا مايلي:

"يعمل تنظيم مروان حديد بشكل مستقل تماماً عن القيادة التاريخية للإخوان المسلمين. لقد شكل اعتقال مروان حديد في 30 حزيران عام 1975 لحظة محوريّة في تاريخ التنظيم، تم اعتقال عدّد من أعضائه بينما مات اثنان منهم تحت التعذيب. سيكون هذا الحدث، في ظل غياب أي اتصال مع مؤسسه وقائده، محرضاً للتنظيم على تبنّي النضال المسلح، وسيحدث ذلك في دمشق. في 16 شباط 1976 تم اغتيال القائد العسكري محمد الغرة مدير الامن الوطني بحمص. "سيموت جلاد الشباب المناضلين الإسلاميين تحت التعذيب"

لقد دفعت وفاة مروان حديد في مشفى حرستا الّذي نقل إليه لتلقي العناية، في حزيران عام 1976، في المرحلة الّتي أعقبت دخول الجيش السوري إلى لبنان، أي في خضم الحرب

الاهلية، دفعت التنظيم إلى توسيع نشاطه ممهداً الطريق لحدوث مواجهات مسلحة بين الدولة وطلائع الإخوان المقاتلة. مواجهات ستستمر حتى مجزرة حماه عام 1982.

لقد كان اغتيال الدكتور محمّد الفاضل في 11 حزيران عام 1976 بداية لمرحلة مواجهات واسعة سرعان ما تملّصت منها، وبقوة، الحركة المدنية النقابية والسياسية الّتي كانت تريد إحداث تغيير ديمقراطي لمؤسسات البلاد.

.....

لقد كانت طبيعة وتركيبة السلطة الحاكمة واحداً من بين المواضيع الرئيسية للنقاشات الدائرة في المعارضة السياسية والفكرية، برجوازية بيروقراطية بالنسبة لهذا، دولة رأسمالية بالنسبة للآخر. كان القمع الّذي تمارسه الدولة واحداً من مواضيعنا الرئيسيّة. كانت الدولة تعمل على تدمير آليات العيش المشترك في المجتمع، وكانت تعمل على خلق نسيج زائف بين الأفراد قائم على الإعلاء من قيمة المرشد الأعلى. تم حظر أي وجود منظم ومستقل بغية منع جدلية الصراعات الإجتماعية السياسية.

كانت لي نقاشات مع العديد من قواد المعارضة بغية الاستماع لتحليلاتهم وخلصت إلى أن المستقبل القريب، بالنسبة لنا جميعاً، مازال يشكل تساؤلا كبيراً. لكن اليسار، وفي خضمّ حاجته ليكون قوياً، كان بحاجة جهد كبير بغية إعادة جمع المعارضة الديمقراطية على شكل تحالف بنّاء. لكن الحالة لم تكن كذلك لأنّ الناصريين كانوا يفتقدون لعنصر الشباب والبعثيين لم يستطيعوا تجنيد أعضاء جدد. بقيت لدينا التنظيمات الماركسية المعارضة الّتي كانت تغطي الجغرافيا المناطقية فضلاً عن تغطيتها الجغرافيا الطائفية بالإضافة لمتوسط أعمار شاب نسبياً ونهج غير عقائدي. أحد الأصدقاء الشيوعيين أسرّ لي أن مشروع التجمع الشيوعي جار على قدم وساق. وأحزنني أن تنظيمنا تم استبعاده من هذا التجمع.

لقد ناقشنا خلال اجتماعنا مسألة مستقبل التنظيم: ثلاثة أعضاء من كل خمسة قالوا أن التنظيم يعيش أزمة عميقة، بينما رأى العضوان الباقيان أن حالة تنظيمنا تشكل انعكاساً لصورة البلاد في ظل الحكم العسكري وأن السلطة، رغم ضراوتها، لم تنجح باستهداف فكر المعارضة. نحن، من يجب عليه الآن مواصلة الطريق.

أحمد كان يرى وجوب إيقاف كل شيء والعودة بالتنظيم إلى نظام الحلقات القديم، والعمل على مستوى القاعدة على أساس اللامركزية.

اقترح أصلان قواعد صارمة تتماشى مع الوضع في البلاد بشكل يساعد على البقاء على قيد الحياة وإعادة بناء كل شيء. بالنسبة لي، لم يكن لنا حق اتخاذ القرار بعد الآن، كان يجب

علينا عقد مؤتمر استثنائي تُتخذ فيه قرارات مصيرية. وإلّا، وداعاً للديمقراطية الداخلية لأننا سنقرر وحدنا مستقبل العالم أجمع.

تم رفض اقتراحاتي. اقترحت على القيادة كتابة آرائي المتعلقة بتسريع عملية الإندماج مع المنشقين الشيوعيين من خلال الدخول الجماعي في تنظيماتهم بغية تشكيل حزب كبير يقرّ بمبدأ الّتيارات السياسية ويصبح بمثابة العمود الفقري لجبهة ديمقراطية معارضة. وافق أصدقائي على منحي خمسة عشر يوماً أكتب فيها وجهة نظري، ليكون لهم بعد ذلك خمسة عشر يوماً يصوغون فيها تقريرا مضاداً. ثم يتم طرح التقريرين بشكل متزامن للمداولات الجماعية.

بدأت، في بيتي، كتابة تقرير كان عنوانه "إلى أين نتجه؟". بعد يومين أصبح المنزل خال تماماً من أي أحد. مرّ عليّ أبو عبده مصادفة فسالته إن كان لديه أخبار عن أصلان. فأجابني أن أصلان، عباس وفاتح ذهبوا ليشرحوا لأعضاء التنظيم كافّة وجهة نظري وردودهم عليها.

عندما سمعت هذا الكلام شعرت كأنّ أحداً صفعني على وجهي وعاودني شعور مزعج لا يطاق. بالنسبة لي، لم يكن يسمح لأحدنا أن يمارس الخداع والتسييس. لقد ضحينا جميعنا بعوائلنا، دراستنا، أمننا وأعمالنا بغية الوصول إلى أخلاق أسمى. لقد كان الخلاف موجود بيننا في أغلب الأحيان لكننا الإحترام والثقة المتبادلان كانا دائماً أساس علاقتنا.

لقد أعادني حمّام خيبة الأمل البارد هذا إلى جملة كنت قد سمعتها من أحد المناضلين اللبنانيين منذ أربع سنوات:

_ "لا يوجد أصدقاء دائمون في السياسة، بل يوجد حلفاء وأعداء". أجبته في ذلك اليوم:

_ بكل تجرد، إن كلاماً كهذا من شأنه تكريس الحروب وإدامتها. لن يكون بمقدورنا بناء عالم جديد بمفاهيم أكل الدهر عليها وشرب. أنا أفضل أن تعتبرني ساذجاً على أن أعيش في عالم كهذا.

حصل شرخ بيننا منذ تلك اللحظة، لم أعد أعرف كيفية التصرف. احتفظت بالصمت في عدة مناسبات لأن شعوراً كان يتملكني بأننا جميعاً نعاني من صعوبات. وضعت هذه الحادثة حداً لتجربتي السياسية ولم أعد قادراً على الإنتماء لأي حزب. كان بإمكاني دعم احد البرامج السياسية، التصويت لأحد المرشحين، الكتابة في أحد الصحف الملتزمة وإعطاء نصائح لكن في أعماقي كان قرار الطلاق، في تلك الحقبة، مع الإنتماء للأحزاب السياسية قراراً لا رجعة عنه.

ولكن كيف لي أن أعلن عن قراري هذا؟ لدي التقرير الّذي أعمل عليه والّذي يقدم واحداً من الحلول الممكنة للأزمة الّتي نمرّ بها، لدي أصدقاء ملتزمين يقبعون في المعتقلات، في العمل السري وفي كل البلاد. كانت السلطة الأمنية العسكرية تذبح وسائل التعبير المختلفة الموجودة في المجتمع.

تابعت إعداد التقرير وادخلت عليه بعض التعديلات وطلبت من توفيق أن يتواصل مع المنشقين. مرّ أحد الأصدقاء من أعضاء الهيئة المركزية مرّ لرؤيتي واسمه "سلطان أبازيد". تحدثنا واقترح علي اللقاء برياض الترك وفايز الفواز.

رياض إنسان بسيط، واثق وحذر ويجيد الطبخ بشكل جيد. كان يملك فكرة غامضة جداً عن الحلقات الماركسية. عادة ما يكون اتصالنا داخل حزبه مع مسؤول العلاقات الخارجية الّذي لعب دوراً سلبياً في نقل المعلومات بين الطرفين، على العكس من نائبه "جون نسطه" طبيب باب توما، الّذي كان اتصالنا معه فعّال ودقيق.

فايز، ابن مدينة الرقة، كان رجلا سياسياً ذو آراء عصرية وكرم بدوي. إنه بدون شك واحد من أفضل خبراء النفس الشرقية. لقد كان حديثهما شفافاً ولم يكن عقائدياً، كان النقاش قاسياً منفراً ولكننا أصبحنا أصدقاء بسرعة واستمرت صداقتنا دون أن نعمل معاً على أي مشروع.

" قال لي رياض: إن الصداقة شيء أشمل وأعم من الحياة السياسية، لدي أصدقاء لا ينتمون للحزب، مثل الدكتور جمال الأتاسي، ولكنهم أعز عليّ من أصدقاء كثر في الحزب. تلعب العلاقات الشخصية في مجتمعاتنا دوراً مهماً، وقد ارتبط سوء الفهم بين قوى اليسار أيضاً بغياب علاقات الصداقة القادرة على تليين الأجواء في كل مرة نمر فيها بأزمة"

لقد أثر المناخ القائم مع رفاقي على مشروعي بشكل كامل لأن أي زواج لابد وأن يتوافر فيه توافق الطرفين. بعد سنتين، كان يوجد في البلاد تنظيمين مختلفين عن بعضهما، بينما فقد مشروعنا بإقامة حزب موحد سبب وجوده.

بعد خلاف مع أحد الأعضاء من الإدارة، تركت الشقة وانتقلت للبحث عن مكان آخر. كان من الأفضل أن أحدّ من اتصالي بهم لتجنب ارتكاب أيّة حماقات. عرض عليّ أحد الأصدقاء البقاء عنده دون تحديد المدّة. ولكنني رأيت، بعد أربعة أيام، ثلاث سيارات تابعة للمخابرات واقفة تماما بجانب البيت فقررت تغيير البيت من باب الإحتياط. خلال زيارتي لأحد الأصدقاء، مرّ بالصدفة أحد الأطباء الّذين كانوا في دفعتنا ليرد له زيارة كان قد قام بها مسبقاً، فسألني عن أخباري ودعاني للعشاء في أحد المطاعم.

انفجر مضيفي من الضحك عندما أخبرته القصّة وشرح بدوره الوضع لصديقنا. صديقنا الطبيب، الّذي لم تكن له أية علاقة مع أي جهة أو عمل سياسي، أصر على دعوتي على العشاء فخرجت معه. وهناك، قال لي: "تعال وابقَ عندي. لن يشك أحد فيّ على الإطلاق. كنت أعلم أنك ملاحق واخترعت قصّة المطعم فقط لأدعوك لتأتي وتجلس عندي"

لقد أثّر عرض صديقي هذا فيّ بالغ التأثير، لقد شعرت بطيبة الجنس الإنساني... لقد قال لي رجل عجوز ذات مرة *أنه في خضم دفاعي عن الإنسان، قضيت عمري في الدفاع عن وحوش*. إذا استطعنا إيجاد صديق واحد من بين آلاف الوحوش فإن ذلك كفيل بأن يفني المرء عمره في الدفاع عن هذا الوحش.

كان أصدقائي المحيطين بي يسألونني دائماً عن سبب بقائي في سوريا، لأن علاقتي مع التنظيم انتكست ولم أكن آمن على نفسي، وأنتظر غوامض المستقبل. لذلك سألني أحد الأصدقاء العرب:

_ إن بقائك هنا الآن هو انتحار صرف، لا أعرف لماذا أنت هنا، ألكي تذهب إلى السجن؟

_ ولكن أين سأذهب؟ إلى مصر السادات؟ لا. أفضل السجن هنا. إلى لبنان؟ أنت تعرف جيداً أنهم قاموا باختطاف عقل قربان، خليل برايز، علي الغضبان وقتل محمد عمران... ليست لدي رغبة بأن أكمل اللائحة.

_ إرحل إلى فرنسا، نحن بحاجة للعمل على مجلة باللغة العربية. كنا قبل ذلك نريد إصدارها في بيروت لكن هذا لم يعد ممكناً الآن.

أعجبتني الفكرة واستشرت وعرضتها على عدة أصدقاء فشجعوني على ذلك. ولكن كيف وأين يمكن لنا أن نجد المال اللازم للذهاب؟

توجد في حياتي امرأتان تحملان نفس الاسم "نجاح" واللّتان كان لهما السبق في إنقاذ حياتي الإجتماعية ومساعدتي في كل مرة أجد نفسي بحاجة للمساعدة. نجاح "الأولى" هي أمي، قالت لي:

_ بالنسبة لأي أم ترى ابنها بقربها فهذا يعد هدية من السماء، لكن بالنسبة لي فأنا أقول لك "إرحل يا ولدي. إرحل بعيداً من هنا. حماك الله من الظلّام والحكام وأولاد الحرام" سأدبر لك المال اللازم للسفر.

ذهبت لزيارة أحد الأصدقاء وزوجته وصغيرهم لأخبرهم عن سفري فدعاني للبقاء عنده حتى موعد السفر.

حدّثت ميشيل عن مشروعي بحضور زوجته، فسألتني زوجته "ماري":

_ كيف ذلك؟ بالسيارة؟ وماذا بعد ذلك؟

_ كل خطوة في وقتها

_ سأذهب معك

_ لا، لا داعي لذلك.

_ بلى. هذا أفضل من الروتين الّذي أعيشه هنا، وفي النهاية هذه مغامرة.

_ أنا ليس لدي خيار.

لم يكن ميشيل مؤيداً لفكرة ذهاب ماري معي بالسيارة. طلب مني مخطوطتين كنت قد كتبتهما له.

_ أعطني النسخة الأصلية، نحن لا نعرف أبداً، إن النسخ الفوتوكوبية لا تعيش عشر سنوات، ومن يمكنه القول أنك ستعيش عشر سنوات؟

_ شكراً ميشيل لرفعك معنوياتي، لا شيء أفضل من ذلك.

خلال عشرة أيام، التقيت بأصدقائي الّذين كانت لديّ رغبة برؤيتهم قبل مغادرتي ولكن دون أن أعرّض نفسي للخطر. وفي ليلة سفري تعشّيت مع رياض وفايز.

قال رياض:

_ لا تقلق، لن تقوم الثورة غداً. استفد من تجوالك واهضم المعرفة الحديثة جيداً.

_ انتبه أثناء سفرك، هل أنت بحاجة لأي شيء؟ قال فايز

_ لا شكراً. كل شيء على ما يرام.

في الصباح، أخبرني أحد أصدقائي المخلصين في التنظيم عن بيان يخصني كان التنظيم قد نشره. لم يكن نص البيان بحوزته ولكنه قال لي بأنهم وصفوني بالنبي اليهودي الكاذب. ثم أردف:

_ هذا مؤسف. أنا لا أحب الإفتراء. هذا يذكرني بالمحاكمات الستالينية. أنت لست مجبراً على الرد.

_ كيف أردّ على بيان لم أقرأه؟

_ حتّى ولو قرأته، دعك منه. ليس لأحد الحق بإهانة امرأة مارس معها الجنس يوماً. إن تاريخنا أكبر من مجرّد قصّة حب.

قرأت البيان لاحقاً ولكنني لم أردّ عليه أبداً.

كانت روز آخر شخص قال لي وداعاً. أكلنا سوياً ثم أخذت سيارة أبو شريف برفقة ماري وكلبتها في 27 نيسان عام 1978.

ماري هي من ذهب لرؤية شرطة الحدود، كان عناصر الأمن يركزون على تنورتها القصيرة أكثر من تركيزهم على البطاقات الشخصية الثلاثة. بعد أن اجتزنا الحدود مباشرة سألتني ماري:

_ ماذا الآن؟

_ التأشيرة.

_ وبعد ذلك؟

_ كل خطوة بوقتها.

في بيروت، طلب ميشيل من "بيت الشرق الأوسط القديم، مركزالعالم الإسلامي" أن يرسلوا لي دعوة للطاولة المستديرة الّتي ستنظم في مدينة ليون في 10 أيار.

تلقيت الدعوة الّتي أرسلت إلى مركز الدرسات والبحوث المعاصر في الشرق الأوسط. اصطحبت الدعوة معي عندما ذهبت لطلب التأشيرة لكن القنصل الفرنسي رفض.

كان ميشيل مصدوماً للغاية، بالنسبة له، كان مؤتمر كهذا يستحق تأشيرة. لقد كانت سمعة بلد "يسمى متحضراً" على المحك.

_ تعال معي ميشيل، سنرى صديقاً طيباً

ذهبنا لرؤية مضيفي "مسعود يونس" في بيته، وعندما بدأت أشرح له القصّة انفجر من الضحك.

_ إذن صديقك ميشيل يؤمن بفرنسا الثقافة؟

_ اللّعنة. قال ميشيل.

_ هات، أعطني جوازك. سيكون غداً في السفارة الفرنسية مصحوباً مع ثلاثين طلب تأشيرة رجال أعمال. سنشرب بصحة الطاولة المستديرة في ليون. الغرب هو قبل كل شيء "المال". أما الفقراء أمثال ميشيل فيقضون أعمارهم بتقديم الواقع المرير بأفضل أشكاله.

في اليوم التالي عاد صديقنا إلى البيت حاملاً معه التأشيرة.

زرت برفقة مضيفي قرية تنورين وقضينا مع الأصدقاء عدة أمسيات لا تنسى قبل أن أستقل الطائرة باتجاه باريس في 27 أيار 1978.

في الطائرة، لم تكن لديّ رغبة في تذكر أو التفكير بأيّ شيء. لقد انتهى للتو فصلا من فصول حياتي، مليئاً بالشكوك.

ألعاصفة

"ما لا يقتل السلطة يجعلها أقوى، أمّا الّذي لا تقتله السلطة، فهو يضعفها بدوره"

راول فاينغام

لقد كان مشروعي الثقافي عندما وصلت إلى باريس واضحاً في ذهني تقريباً: مزيد من التعليم العالي في العلوم الإجتماعية، مجلة للناطقين بالعربية ذات توجه عربي، حرة ومستقلة وبوسائل كتابة بسيطة. إنّ النضال بالنسبة لي، من الآن فصاعداً، بات يكمن في مناهضة النظام العسكري من موقعي هنا خارج البلاد.

لم أكن أعرف ماذا أفعل لكي أجعل وجودي قانونياً في فرنسا ولكي أكسب قوت يومي، كنت أملك تأشيرة صالحة لثلاثة أشهر وكان هذا الوقت كافياً جداً للتفكير لكن إمكانانياتي المادية كانت لا تذكر تقريباً ومع ذلك رفضت الخوض في احتياجاتي المادية الشخصية حتى مع أقرب أصدقائي. كان من الواجب عليّ إيجاد عمل أستطيع من خلاله كسب بعض المال ولكن على أن لا يؤثر ذلك، في الوقت نفسه، على الوقت اللازم لمشاريعي الفكرية. ساعدني أصدقائي المغاربة الّذين ينتمون لتنظيم "23 مارس" في إيجاد شقة صغيرة في مدينة ميودون قرب باريس.

بعد تسعة أيام من مغادرتي لبيروت، شنّت السّلطات حملة اعتقالات واسعة طالت صفوف التنظيم الأساسية، تمّ اعتقال كلّ من موفّق، أبو أيمن وعبّاس. طالت الإعتقالات كلّ الشّرائح: عمالاً، طلاباً وضباطاً في الجيش. هاتفني أحمد من بيروت طالباً منّي التّحرك وفعل أيّ شيء ووعدني أن يرسل لي قائمة بأسماء الرجال والنساء المعتقلين. لم تكن روز على علم

باعتقال أعضاء خليتها السابقين، ولم أكن بدوري قادراً على قول أي شيء لها بسبب نقص المعلومات الدقيقة. بدورها، إعتُقِلَت روز في 17 حزيران بعد عدّة ساعات من مكالمة هاتفيّة جرت بيننا عند شخص ثالث. كان من بين الأمور الّتي تكلّمنا عنها إمكانية مجيئها إلى باريس لتشاركنا في مشروعنا.

وقّع 217 محامي عريضة يطالبون فيها بإنهاء حالة الطوارئ، إحترام القانون وإرساء الديمقراطية في البلاد. فيما طالبت نقابة المحامين في دمشق في مؤتمرها الّذي انعقد في 1978/6/22 بإلغاء حالة الطوارئ أيضاً وإيقاف العمل بالأحكام العرفيّة، إحترام الحريات الأساسية، إلغاء المحاكم الإستثنائية و استقلال القضاء. تلقّيت رسالة من أحد أصدقائي المحامين الّذين كانوا يريدون الدفاع عنّي قبل سنتين:

" صديقي العزيز

إنّ المطالب الّتي كانت تنادي بها الرابطة السورية لحقوق الإنسان وبعض المحامين، بشكل خجول، قبل سنتين، باتت اليوم مطالب أساسية لغالبية المحامين، الأطباء والمهندسين. إنني سعيد للغاية لأنّه، وأخيراً، فإنّ السلطات ليس لها خيار، فإما أن تكشف عن وجهها الحقيقي وإمّا أن تضطّر لتقديم تنازلات للمجتمع. أمّا أنت، فكن عاقلاً ولا تتهور. ليس لدينا رغبة في رؤيتك الآن"

إنّ تشكيل حركة نقابية تطالب بدولة القانون يعتبر خير مثال على الدّور القوي للقوى الاجتماعية في الدولة. لقد انتقدت القوى اليسارية، في أغلب الأحيان، لأنها لم تكن تأخذ النشاطات الاجتماعية والمدنية في المجتمع بشكل جدي بصرف النظر عن تجربتنا في الجامعة. فقط الإخوان المسلمين هم من أعطى الجمعيّات الأهلية مكانتها الّتي تستحق.

لقد أعطتني هذه الرسالة دفعة من الأمل بعد سلسلة متتابعة من الأخبار السيئة. ابتعدت عن الجميع، بضعة أسابيع، لأتمكن من وضع خطة العمل لأن كلّ شيء كان واضحاً في ذهني. أنا هنا بلا أمتعة أيديولوجية، رجل حرّ له علاقة بنّاءة مع المعارضة الديمقراطية العلمانية، مستعدّ لبذل أقصى مايستطيع من أجل كلّ المعتقلين السّياسيين والحرّيات الأساسية. وسأكون مستعدّاً لتلبية النداء في أي لحظة يطلب مني فعل أي شيء في هذا الإطار.

في 27 حزيران، أي بعد شهر من وصولي، كانت هذه أولى الإنطباعات الّتي دونتها، كمراقب من الخارج، حول وضع البلاد:

"في ما يتعلق باليسار فنحن نسير نحو مأساة صغرى ولكن فيما يتعلق بالبلد فنحن نسير نحو مأساة كبرى: بدأ اليسار يصبح شيئاً فشيئاً أكثر ديمقراطية وتشظي أمّا السلطة فبدأت تصبح

شيئاً فشيئاً أكثر قمعاً وأكثر قوّة عسكرية. لن يستطيع الإخوان المسلمين الوصول إلى السلطة أبداً حتى عن طريق حرب أهليّة. أمّا فيما يتعلق بالبقيّة فلست متأكداً من أنّهم سيخاطرون بأنفسهم بخوض مواجهة شاملة مع السلطة"

تبيّن هذه السّطور الّتي كتبت قبل وصول الخميني إلى السلطة في إيران البعد المحلّي للحركة الإسلاميّة في سوريا. لا تتخطّى نسبة السنّة بالنسبة للسكان العرب 60%، الأكراد الّذين نادراً ما تجد إسلاميّاً واحداً في صفوفهم تقارب نسبتهم 10%، الأقلّيّات مسيّسون حتّى النخاع وحاضرون بشكل جيّد، قسم لا يستهان به من السّنّة علمانيّين أو يعارضون الإسلاميّين بشكل علني.

كانت الرّسائل الّتي استقبلتها من داخل البلاد في تلك الحقبة تطلب مني الكتابة عن الإسلاموية وتشير إلى الشّاحنات الّتي كانت تنقل الأسلحة إلى حماه عن طريق الصحراء السورية "البادية".

أحد الأصدقاء الّذين لا أشك بصدقهم كتب لي:

" هل تصدّق بأنهم يقومون بتخزين الأسلحة في المستودعات؟ ستمرّ البلاد بأوقات عصيبة. أنا متأكّد من أنّ جهنم ستمر من قربنا هنا خلال بضعة شهور"

ها أنا ذا أتابع الأحداث الّتي تجري في بلادي عن طريق الهاتف والبريد الإلكتروني: الرّجل الّذي كان فاعلاً بالأمس أصبح اليوم مراقباً بالرغم من كونه لم يتعايش مع فكرة بقائه على الهامش بعد، حتى ولو قام غالباً بإيصال رسالة أو كتابة مقال من شأنه نقل حجم المأساة الّتي تعيشها بلاده إلى الرأي العام العالمي.

إنّ حياة المنفى ليست ورديّة بالكامل، لقد مرّت عليّ أشهر بأكملها كانت وجبتي الرئيسية فيها تتكون من الزعتر البري مع زيت عبّاد الشمس بالإضافة لنصف قطعة خبز "باغيت" وثلاثة قطع من البندورة في الأسبوع الواحد، وسمك السردين المغربي بمعدّل وجبة كل يومين.

كتبت لصديقة عزيزة جداً على قلبي:

"إنّ مشروع القدوم إلى فرنسا بالنسبة لبعض جوانبه هو خيال وهمي، ولبعض الجوانب الأخرى هو سيمياء صرفة ، لا شيء واضح، في رأسي، في كل المراحل منذ وجودي في دمشق. كنت أفكر أن مرحلة وجودي في باريس هي المرحلة الأكثر سهولة لأن الأمن فيها،

بالمعنى الدقيق للكلمة، أخيراً، أصبح واقعاً معاشاً. لكنّ الأمن، بالمعنى الواسع للكلمة، في باريس، أو بمعنى آخر الخبز، لم يكن موجوداً. الشيء الأساسي هو أنني لن أضطر لقضاء السنوات العشر المقبلة من حياتي في السجن لمجرد حقيقة كوني أرفض الأسلوب القمعي لسلطة الأسد.

إن وصولي إلى باريس وبحوزتي مخزون لغوي بسيط مثل، صباح الخير، إلى اللقاء وبسرعة، لم يسهّل عليّ المهمة. لقد بدأت علامات الشيخوخة تظهر على جلدي لأنني لا أتناول الخضروات. إحدى الصديقات بدأت بإعطائي بعض الدروس في الفرنسية مجاناً، كان سليم يرجوني أن أقبل منه مبلغ 500 فرنك لأستطيع الإتصال بأصدقائي، ومن المستحيل أن أتمكن من تمديد التأشيرة، سألتقي أحد محامي الرابطة الفرنسية لحقوق الإنسان خلال عدة أيام. إلى متى ستبقى دمشق تحت " البوط العسكري؟؟".

استيقظت باكراً، في أحد أيام الثلاثاء الّذي لا يختلف عن غيره أبداً، كان السوق مكتظاً بالزبائن. منتجات رخيصة معروضة للفرنسيين، بضائع مستعملة، فواكه، خضروات، يمكنك تقريباً أن تجد كلّ ما تريد. لم تكن لديّ رغبة في الشراء ولكنني بالأحرى كنت أريد أن أستذكر بعض مشاهد سوق باب سريجة الدمشقي. رجل في الثلاثينيّات يشرح للجمهور القدرة العجائبية لسائل قادر على تنظيف كل شيء. عرض حقيقي يذكرني بذلك الماكر الصغير الّذي كان واقفاً أمام طاولة عند مدخل سوق الحميدية في دمشق يحمل الأطلس الطبي في يده بغية إقناع القرويين من خلال مدحه وثنائه على مزايا شراب "القنواتي" الّذي يقتل كلّ أنواع الديدان. مساعدوه الذين يقتربون منه ليشتروا بلا تردّد، والقرويون الّذين يتزاحمون مسرعين ليشتروا قبل نفاذ الكمّية.

ركبت الميترو، كنت أرى الناس تمشي بسرعة كبيرة، وبالغريزة، أسرعت مثلهم في مشيتي، ثم توقفت: هم يعرفون، على الأقل، لماذا يسرعون في خطوهم ولكن أنا!! ماذا أفعل هنا؟ انحدرت إلى شارع "راسباي" لأصل إلى حديقة "لوكسمبورغ" مشياً على الأقدام.

قبلت امرأة مسنة في حديقة لوكسمبورغ أن تقرأ لي نصاً أدبياً باللغة الفرنسية بشكل صحيح. خاطبت حمامة مرت بحذائي باللغة الإنكليزية، قلت لها:

_ هل تريدين أن نتبادل الأدوار أنا وأنت؟ سأترك لك مشاكل رجل بلا وطن وأعيش بضعة أشهر من حياتي بلا تأشيرة ولا أوراق ولا حدود. هل تعلمين أيتها الحمامة الصغيرة، أنه عند بني جنسي، ممنوع علينا امتلاك الحمام الزاجل، مرسوم 45 بتاريخ 1966/6/15، وإذا أردنا امتلاكه فيجب أن نحصل على تصريح.

لحسن الحظ لم تكن المرأة قادرة على فهم أية كلمة مما أقول.

بعد الظهر، عدت لأقرأ أربع ساعات قبل أن اتناول وجبة خفيفة ثم بحثت عن ورقة لأكتب رسالة من رجل هارب إلى صديقة معتقلة. وهذه هي الرسالة:

" جميلتي

لقد كتبتِ لي في اليوم الّذي غادرتُ فيه:

لقد أصبحت دمشق حزينة... لا لون لها. شوارعها من الآن فصاعداً متسخة للغاية، أشجارها لا ربيع لها بل خريف دائم، لم يعد يعني لي شيئاً بعد الآن أن أركب سيارة الأجرة وأتنزه في شوارع دمشق مدخنةً سيجارتي، حتى وجبتنا الاخيرة كانت علقمية الطعم.

لدي شعور بأن نفسي لم تعد كما كانت أبداً"

أعدت قراءة ما كتبتِ لي لأن نهاري تبدّد بين اليوم والغد، أعود للحظة الراهنة لأنّني منغمس بها كلياً أبحث عن إمكانية تخطّي هذا التمزق الّذي يضرب مخيلتي. أشتم كلّ الطغاة منذ الفراعنة وحتى هذه اللحظة، لكنني أعلم جيداً أن الشّتائم لا تزحزح طاغية عن مكانه أبداً. تنتصب مراحل حياتي البائسة جاثمة أمام عينيّ.

سأنهي رسالتي بالجملة الّتي كنت قد كتبتيها أنت:

" يبكي الفلاحون عندما لا يهطل المطر، ويبكون أيضاً عندما يهطل. أمّا نحن فلن نبكي، سنأخذ الماء الّذي نحتاجه من السماء بأيدينا "

" سيأخذ هذا وقتاً طويلاً ولكن لا بدّ أن نصل "

التقيت أحد المحامين الأعضاء في الرابطة الفرنسية لحقوق الإنسان وشرح لي المخاطر الّتي تنطوي عليها حالتي.

_ يعتبر اللجوء حق، فمنذ الثورة الفرنسية، وفرنسا تحترم هذا المبدأ حتى وإن كان على الورق فقط. تنص المادة 120 من الدستور الفرنسي على ما يلي: " يمنح الشعب الفرنسي حق اللجوء لكل الأجانب المبعدين من أوطانهم لأسباب تتعلق بالحريات، لكنه لا يمنحه للطغاة. "

_ وإذا لم يكن بإمكاني دفع تكاليف محام؟

_ إن ملفك واضح ولا يحتاج لمحام، فقط اذهب إلى الرابطة الفرنسية لحقوق الإنسان وإلى المفوضية العامة للاجئين.

وهذا بالضبط ما فعلته، وبدأت مرحلة الإنتظار.

وصلتني رسالة من سوريا حملها إليّ أحد الأصدقاء. فتحتها، رسالة من أبي في السجن

" بنيّ..

أُرسل لك أشواق وسلام رجل محروم من التواصل الإنساني مع إبنه، وخاصة في اللحظات الحرجة من حياته. محروم من أن يعبّر له عن حبه في ظروف عادية، محروم من أن يعبّر عن مشاعره لأطفاله....

رأيت فيك الإبن القادر على إحياء القيم والمبادئ، والقادرعلى فهم مشاكلنا والعمل على تغيير الواقع. أنا متاكد بأنك ستواصل طريقك، في تجربة المنفى، كما كنت هنا، شمعة تحترق لتضيئ دروب الآخرين ولو على حساب حياتك الشخصية."

شعرت بعد قرائتي لهذه الكلمات بأن أصدقائي وعائلتي كانوا ينتظرون مني الكثير، ولعلّ هذا الشيء كان تحدياً لم يفارقني بعد ذلك أبداً.

بعد ثلاثة أيام تلقّيت رسالة من إحدى الصديقات في الكلية والّتي كانت قد رفضت قبل عدة سنوات الإنخراط معنا في العمل النضالي. قالت فيها:

" صديقي العزيز

لقد أفقدني موت منى التوازن، حاولت كثيراً أن أتصل بك ولكنني لم أنجح، أخيراً، قيل لي بأنك رحلت منذ سنتين.

منذ أكثر من سنتين، لم يعد وطني ينتمي لي، المرأة الّتي تكتسي جسدي الآن لديها شعور بأنها تعيش، يوماً بعد يوم، منعزلة عن الجميع. هل تذكر عندما كنّا في السنة الأولى فتاتين محجبتين من بين عشرة فتيات؟ إلا أننا كنا فاعلات، كانت لنا نقاشاتنا المهمة دائماً. ذهبت مؤخرا برفقة أختي الصغرى إلى الجامعة، كانت الفتيات قلة في السنة الأولى، يسود مناخ

من عدم الثقة وكل واحد خائف من الآخر. عدم الثقة هذا يسود حتى في الأوساط المغلقة. إن البلد يسير نحو الانفجار، الشيء الّذي لا أستطيع تحمله أبداً.

أنا قررت الهجرة إلى كندا. تستطيع أن تتصل بي إن احتجت أي شيء. أنا أدعم، اليوم أكثر من أي وقت مضى، معركتك للدفاع عن الرجال والنساء في بلدنا.

محبتي "

حصلت على اللجوء السياسي في 18 تشرين الثاني، بدأت بالعمل على بعض الترجمات إلى العربية من أجل كسب قوت يومي، لكنّ عقلي كان دائماً هناك.

بعد أسبوع وقّعت كل من سوريا والعراق ميثاق العمل القومي، خلال عدة أسابيع فقدت المعارضة الموالية للعراق بوصلتها.

عقد رياض الترك ورفاقه مؤتمرهم وكان من بين أهم النتائج الّتي صدرت عنه إلغاء مصطلح "الديمقراطية الشعبية" واستبداله بمصطلح "الديمقراطية" فقط. نشرت صحيفة الحزب مقتطفات واسعة من حديث رئيس الرابطة السورية للدّفاع عن حقوق الإنسان في 10 كانون الثاني. كانت جميع التنظيمات الشيوعية تعيش طفرات مهمة.

ترك الخميني مدينة النجف في العراق وتوجه إلى (نوفل لو شاتو) في فرنسا ثم دخل منتصراً إلى طهران في الأول من شباط عام 1979. طال تأثير الإسلام السياسي الّذي انتشر، كما ينتشر وباء الإنفلونزا كافة دول المنطقة: البحرين، السعودية، مصر، باكستان، أفغانستان والسودان، جميع هذه الدول عاشت بشكل أو بآخر حمّى الأصولية الإسلامية. تأثّرت مجموعة علاقاتنا الّتي قامت من أجل تأسيس مجلة ناطقة باللغة العربية إقتصادياً وفلسفياً أيضاً. ظلّ موقفي ثابتاً رافضاً لأيّ شكل من أشكال التحالف مع الأصوليين، مصرّاً على الدفاع عن حقّهم في الوجود كقوة سياسية غير مسلحة، على استمرار انتقاد كلّ من المدرسة الوهّابية في السعودية والمدرسة الجعفرية في إيران وعلى ضرورة دعم المشاريع الإصلاحية في الإسلام. على الصعيد الفكري، احتلّت كلمة "تنوير" الصدارة: التنوير أو ضرورة وجود حركة إصلاحية ثقافية حقيقية في العالم الإسلامي.

أسعدني وصول صديقي "أبو علي" إلى بيروت للمشاركة في الكتابة في أحد المجلات، شاركت أنا و"القرمطي" في جمع عدة نصوص للمساهمة في مشروعهم. في باريس، كلّمني كل من "محمد الحربي" و "مصطفى الخياطي" للمشاركة في مجلة ناطقة بالفرنسية (سؤال)، أعطيتهم موافقتي على الإشتراك فيها على أمل العمل سريعاً لترجمتها إلى العربية.

كتب لي أحد الروائيين السوريين:

" صديقي العزيز

يجب أن تكتب عن الإسلام والثورة، إنّ المناصرين المحتملين "لخميني سنّي" يزدادون هنا يوماً بعد يوم. حجّتهم بسيطة، عجز اليسار وعدم قدرته على التحرك لمواجهة السلطة العسكرية. يجب أن يدفعنا للتفكير بشكل جدي بصعود الحركة الإسلامية. هذا يعدّ كارثيّاً بالنسبة لي إلا أنني لم أكتب أبداً عن الإسلاميين. إفعل أنت شيئاً.. "

وصل أحد الأصدقاء من دمشق، رأيت فيه صورة عن "المفكر" السوري الّذي يعيش في باريس ويسمي نفسه ديمقراطي. سمعت منه نقاشاً أزعجني عن العشيرة العلوية الّتي تحكمنا. لقد تحدث هذا الشخص، الّذي لم يكن قد أزعجني يوماً، عن العلويين كأنهم جميعاً كتلة حاكمة بينما يقبع أكثر من مئتي علوي في السجن في ظروف غير إنسانية من أجل تصرفات بسيطة لا تتماشى مع توجهات السلطة. لم أرد هدم كل شيء فوق رأسه لكنّني تركت "السيد الديمقراطي هذا" دون أن أفكر أبداً في العودة لرؤية هذا النمط من متسلقي "الصحوة الإسلامية". بدأت أشعر ببعض العزلة في باريس على الرغم من وجود شخصيات سورية واسعة الثقافة. لا أستغرب بعد 35 عاما أن يوجه هذا الشخص نفسه رسائل التحية والشكر لجبهة النصرة.

في المنفى، يمكنك إيجاد جميع التّنظيمات والمجموعات من مختلف المذاهب والمشارب، تم تأسيسها من هذا البلد أو ذاك بغية استخدام المعارضين كورقة ضغط عند اللزوم. كان همي الدائم أن أبقى على مسافة واحدة من جميع الموالين المرتزقة سواءاً لمنظمة التحرير الفسطينية، العراق أو آخرين. إن استقلالي، بالنسبة لي، هو ضماني الأخلاقي الأول. رفضت عدة عروض من الموالين، كان آخرها محاولة سفارة الإتحاد السوفييتي لإيجاد نوع من التنسيق بيننا.

أخيرا ولو لمرة، تزامن عيد الاستقلال مع مناسبة سعيدة بالنسبة لي، وجدت عملاً ليليا في مختبر النوم في مشفى " بيتييه سابيترير Pitié Salpetrière ". في الليلة الأولى لي في المشفى 17 نيسان، قمت بحساب الساعات اللازمة لإنجاز أطروحة الدكتوراه في الأنثروبولوجيا وتأليف أربعة كتب عن المرأة في الإسلام، المجتمع العربي الإسلامي من محمد إلى علي، إنتاج الإنسان شرقي المتوسط و الإسلام السياسي: خمس مئة ساعة حراسة ليلية. إذاً، يجب عليّ أن أعمل حوالي أربع إلى خمس سنوات. تمت المهمة المطلوبة في الوقت المحدّد، باستثناء الكتاب الأخير.

صحيح أن الجو بارد هنا في الساعة السادسة صباحاً بعد نوبة حراسة ليلية ولكنه ليس أبرد من الجو في سجن تدمر. لا ثمن للحرية، ولا منافس. إنّها تمنحني القوة اللازمة لأنه بالرغم من آلامي إلا أنني أركز على فكرة أن الرجل المنفي طوعاً هو رجل محظوظ أكثر من السجين القابع في زنزانة منفردة.

14 تموز كان أيضاً يوماً التقيت فيه بعالمة النفس اللبنانية الشابة "فيوليت داغر" الّتي أنهت لتوها دراستها الجامعية في جامعة "كان"، بنظارتها السوداء الكبيرة الّتي كانت تغطي وجهها وبنظراتها الحزينة. أمضينا كامل الأمسية في مقهى "موفتارد Mouffetard" حتى الصباح. التقيت فيوليت في ذلك اليوم وقصصت عليها فصولا طويلة من تجربتي.

_ لماذا تحدثني بكل هذا؟

_ لا أعرف. لديّ انطباع بأننا سنمضي سوياً وقتاً طويلاً.

_ سأسافر إلى بيروت خلال عدة أيام.

لم تكن فيوليت تعلم حينها أننا سنمضي معاً خمسة وثلاثين عاماً في السّراء والضّراء. سنوات من المعاناة المشتركة في الحرب الاهلية اللبنانية فضلاً عن الناتجة عن تدهور الوضع في سوريا. اكتشفنا معاً عالم حقوق الإنسان وأعدنا بناء الطريقة الّتي نعيش بها: منفيّان اثنان، أحدهما قسرا والثاني طوعاً بسببه هو. لحظات لا تنسى ومعارك شرسة في العلن. طريق نضالنا سيدوم طويلا. هي من دفعني لتأسيس اللجنة العربية لحقوق الإنسان في أواسط التسعينيات مع منصف المرزوقي ومحمد حافظ يعقوب. كانت تقول "يجب علينا العمل على مشروع كبير مستقل وفعال مع الأشخاص الأكثر ذكاءاً وصدقاً في العالم العربي".

في سوريا، سيدخل الإخوان المسلمين، بعد عدّة هجمات لم يكن أحد يرغب بها كانت تضرب بغباء وبلا تخطيط، في حرب مفتوحة مع السلطات إثر حادث خطير جداً لم تكن حركة الإخوان المسلمين، بحسب مصادري، تعلم عنه شيئاً: قام ضابط بعثي من عائلة سنية بمجزرة طائفية في الأكاديمية العسكرية في حلب. قام بفصل الطلاب بحسب الإنتماء المذهبي، ثم قتل بعد ذلك أكثر من 80 طالباً علوياً.

اتّهمت السلطة الإخوان الذين كانوا راضين عن ردة الفعل الإيجابية لبعض الطبقات الإجتماعية، والّذين تبنوا بشكل أو بآخر، في نهاية شهر حزيران، كلاً من العملية والضابط مما عجّل في احتدام المواجهات بين الإخوان والسلطة.

وزّع الإخوان المسلمون في شهر تموز منشوراً من أربعة صفحات يحوي فتاوى العلماء الّذين كفروا الطائفة العلوية، وطالبوا بتنفيذ هجمات لقتل العلويين فيما اعتذروا عن الضحايا السنة الّذين سقطوا أو من الممكن أن يسقطوا في هذه الهجمات ودعوا الشعب السوري المسلم للالتحاق بصفوف المجاهدين.

كانت المعارضة العلمانية منقسمة للغاية حول الموقف الواجب اتخاذه حول هذه المواجهات. طالبت النقابات باستقلال أكثر وحرية أكثر في البلاد. أعلن قسم من المعارضه رفضه المطلق لكل أشكال العنف وأعلنوا أن لا إمكانية للإختيار بين الكوليرا والطاعون بينما دعمت تيارات أخرى فرضية مفادها أن العدو المشترك هو السلطة العسكرية ممرّرين بصمت خطاب الإخوان المسلمين الطائفي. حاولت طائفة من المعارضة القيام باتفاق مع الجناح المعتدل في السلطة. أرسلت بدوري عدة رسائل لأصدقائي أطلب فيها ما يلي:

_ اتخاذ موقف صارم من الخطاب المعادي للعلويين.

_ اتخاذ موقف واضح من العمليات العسكرية للطليعة المقاتلة.

_ رفض كل أشكال المفاوضات الجزئية مع النظام.

_ إعطاء الأولوية لرفع حالة الطوارئ وبناء دولة قانون.

بدأت بإعداد دراستي حول المرأة في الإسلام لأشارك في الاحداث ولكن على طريقتي.

واصلت حركة الإخوان المسلمين القيام بهجمات ضد السلطة، واتّبعت السلطة بدورها سياسة الأرض المحروقة. اعتقلت أعضاء من الحركة، أصدقاءهم، أقاربهم وجيرانهم. بدأت تصلني لوائح بأسماء معتقلي الحركة الإسلامية: قائمة ليست كاملة تضم أسماء 760 اسم خلال أربعة أشهر. سارعت المعارضة العلمانية من عملية المفاوضات من أجل الوصول إلى "تجمع ديمقراطي". لكن صدارة المشهد كانت للانتخابات النقابية في كلّ من نقابة المحامين، الأطباء، المهندسين والصيادلة والّتي حملت هزيمة الأعضاء الموالين للبرنامج الحكومي وانتصار الأعضاء المدافعين عن البرنامج الديمقراطي في البلاد.

في شهر آذار عام 1980 حصل اشتباك عام في مدينة حلب بين سكان المدينة وقوات السلطة القمعية. خرج بيان من التجمع الوطني الديقراطي طالب بمايلي:

_ عودة عناصر الجيش إلى ثكناتهم.

_ إلغاء حالة الطوارئ.

_ إعلان الحريات الديمقراطية.

_ حل أجهزة المخابرات.

_ تعيين حكومة وحدة وطنية وتنظيم انتخابات حرة.

في 31 آذار عام 1980، سيعيش الشعب اليوم الأكثر أهمية في معركته ضد حالة الطوارئ. حيث دعت النقابات المهنية الحرة إلى إضراب عام يستمر ليوم واحد. طالبت النقابات في إضرابها هذا، الّذي زلزل كل من السلطة والإخوان المسلمين على حد سواء، بإنهاء حالة الطوارئ، إطلاق سراح المعتقلين وإرساء الديمقراطية في البلاد.

شنت السلطات حملة اعتقالات واسعة طالت القواد والشخصيات النقابية الرفيعة في البلاد. تم اعتقال أكثر من ألف محامي، طبيب ومهندس. رئيس رابطة حقوق الإنسان وأعضاء الرابطة، أساتذة جامعيين، طلاب وعمال، جميعهم تم اعتقالهم.

سلّمت حلب في الفترة الواقعة بين 7 و 13 نيسان إلى أكثر من 20000 رجلاً من عناصر الجيش والشرطة، قُتل عشرات الأشخاص بلا ذنب وحدثت سرقات واغتصابات وأكثر من 1500 حالة اعتقال.

تمّ حل الرابطة السورية لحقوق الإنسان وصدر مرسوم رئاسي يمنح مجلس الشعب سلطة حل جميع المجالس النقابية المنتخبة. سيتم تعيين رؤساء النقابات من الآن فصاعداً بقرار من الرئيس.

كتبت صحيفة البعث الّتي نشرت الخبر في 8 نيسان عام 1980 مقالاً في 31 آذار كان عنوانه "نظام السادات يحلّ مجلس نقابة المحامين المنتخب" وذلك اعتراضا وتنديداً بقرار الحكومة المصرية القمعي.

كان هناك شيء واحد مؤكد وهو أن جميع الانظمة في المنطقة كانت في خندق واحد ضد الديمقراطية، سواء كانوا أصدقاء أو أعداء لاتفاقية كامب ديفيد.

في باريس، أصدرنا عدة نداءات تطالب السلطة بوقف تصعيد العنف المستمر وتأجيج العنف المضاد. لكن لا حياة لمن تنادي.

في 7 تموز 1980، صوّت مجلس الشعب على قانون يجرم الإنتماء لجماعة الإخوان المسلمين ويعاقب كل المنتسبين له بالإعدام، وسيتم تنفيذ الأحكام في محاكم استثنائية تشكّل ميدانياً.

وكرفض منّي لهذا القرار كتبت للأمين العام للأمم المتحدة لكي أرجوه التدخل.

" سيدي،

(...)

إنّ موقفي إزاء هذه الحركة معروف للجميع، لكن القضية هنا تتعلق بالديمقراطية ومبادئ حقوق الإنسان. نرفض مثول الإسلاميين أمام محاكم استثنائية ومحاكمتهم صوريّا ليتم قتلهم، بوحشية، كالأرانب. لا يحقّ لأي محكمة كان أن تصدر أحكاما على الّذين يمارسون العنف في بلادي إلا إذا كانت محكمة عادلة وقانونية.

(...) "

تتابعت المجازر تترى، كانت تصلني كثير من الأخبار من حماه، جسر الشغور، إدلب، المعرة وسجن تدمر.

تمّ إعدام المسؤولين الرئيسيين عن الجناح العسكري في حركة الإخوان المسلمين، فيما واصلت الإدارة السياسية للحركة سيرها في طريق حمل السلاح. ضحّت الحركة بالشباب المنتسبين لها والّذين كان أكثر من 30% منهم لم يتجاوز سنّ الرشد بعد. أما بالنسبة للسلطة فقد تابعت العمل بسياسة "من لم يكن معنا فهو مع الإخوان". كانت الأخبار السيئة تصل كلّ يوم: تمّ اعتقال كل من نهاد نحاس، زياد رضا، رياض الترك، فايز الفواز والركابي...

تمّ اعتقال مسؤولين شيوعيين وبعثيين (حركة 23 شباط والقيادة القومية). تمّ إعدام الإخوان المسلمين ميدانياً فيما تمّ اعتقال العلمانيين لأجل غير مسمى بلا محاكمة ولا تهمة.

هذه شهادة لأحد رفاق الدرب أرسلها إليّ قبل اعتقاله:

"على الرغم من خطاب المعارضة المتكرّر حول ضرورة التغيير إلا أننا نعيش يوماً بيوم (مياومة يا عزيزي) منذ غادرت الوطن. فيما يتعلق بالحزب الشيوعي- المكتب السياسي، خرج رياض منتصراً من خلال أفكاره الاجتماعية الديمقراطية وقطيعته الحازمة مع النظام. تركت مجموعة قليلة من الأعضاء الحزب وشكلت تنظيماً جديداً اقترح ورقة عمل، مسعدة بذلك الجميع، وبالتالي لا أحد. كانت مسألة طبيعة النظام عندهم مشوشة غير واضحة وأعتقد أنهم كانوا يبحثون عن مكان لهم في جبهة السلطة. تركت مجموعة أخرى موالية

للإتحاد السوفييتي السلطة أيضاً ولكن هذه المرة لأسباب شخصية أكثر منها أي شيء آخر. لقد تميز تنظيمنا بشكل واضح عن كلّ ذلك وطالب بجبهة تضم كل القوى الشيوعية لتحلّ مكان رؤيته الوحدوية القديمة. لقد تمّ التخلي، خلال مؤتمر بيروت، عن أطروحة الجدلية الوحدوية وأعلن عن إنشاء حزب العمل الشيوعي الّذي يدافع عن مبدأ التعددية الشيوعية.

على الصعيد السياسي، طالب الشيوعيون المقربون من السلطة بممارسة قمع أكبر على "المجرمين والإرهابيين". كانت مسألة الحريات بعيدة عن تفكيرهم ولم يقوموا بانتقاد السلطة. أما مجموعة المكتب السياسي، فقد كرسوا الجزء الأساسي من خطابهم لانتقاد السلطة واعتبروا عمليات الإخوان المسلمين كردّة فعل، تعوزها الحنكة والبراعة، على تصرفات النظام القمعية.

بالنسبة لحزب العمل الشيوعي فإنّه من الواجب النضال ضدّ الّتيار الفاشي في السلطة وضدّ فاشية الإخوان المسلمين الظلامية في آن معاً. طلبت من أصدقائنا عدم إقامة أيّ اتّصال مع ما يسمّى الّتيار العسكري الدكتاتوري لأنه لا فرق بين رفعت الأسد وعلي دوبا "شقيق الرئيس ورئيس الأمن العسكري".

هنالك شيء واحد مؤكّد: بفضل الصعوبات الكامنة في طريق المعارضة العلمانية وتصرفات الإخوان المسلمين الخرقاء وغير المقبولة أبداً، سيبقى النظام هنا لعقد آخر من الزمن، على الأقل.

لا تنسى بأنّ الدفاع عن الضحايا يمثّل اليوم التصرف الأكثر فاعلية واستبصاراً بالنسبة لمستقبل بلادنا".

قُتل الشيشكلي والعبّود ومئات المساجين غيرهم تحت التعذيب... بدأت أسماء المفقودين تصل إلينا تباعاً. وإذا كان قد طال النقابيين والشيوعيين أذىً كبير، فإن الحركة الإسلامية ذُبحت بشكل أعمى. أسرّ لي أحد مسؤولي حركة الإخوان المسلمين، بعد ذلك بسنتين، أنّ ضحيتين من كل ثلاثة ضحايا لم يكونوا ينتمون للتنظيم.

لقد شكلت مجزرة حماه حدّا انتهت معه المواجهات، ولكن بأيّ ثمن؟؟ بعد المجزرة مباشرة، كتب لي أحد الأصدقاء المقربين جداً والّذي كان شاهداً على المجازر، كتب لي مايلي:

" صديقي العزيز

لقد خبأت الحياة لي كابوسين لم أكن أتمنى لمخلوق في هذا العالم أن يعيشهما، الأول مازال مستمراً منذ 12 عاماً وهو القتل البطيء للمجتمع، والثاني هو رؤية الإنسان مدينته تدمّر أمام عينيه. لعلك تكون قادراً من خلال مكانك الآن أن تصف الكابوس الأول خيراً مني،

سأكتب لك شهادتي على الثاني. وعليك أن تستغلها بحيث لا تترك مجزرة حماة تمرّ كأن شيئا لم يكن.

اخترقت أحد كتائب سرايا الدفاع، بقيادة علي ديب، مدينة حماه من جهة الشمال متوجهة نحو الملعب البلدي الّذي يقع في مركز المدينة. في المساء، هاجمت الشرطة واحداً من معاقل الإخوان في "الحاضر" فقام القائد "عمر جواد" بطلب المساعدة من المجموعات الأخرى. بعد قليل وصلت القوات لمساندته وقامت بتطويق قوات الشرطة واستعرت المعركة بين الجانبين. في نفس اللحظة، طوقت مجموعات أخرى من جماعة الإخوان مراكز الشرطة، استولوا على الأسلحة واقتحموا مدرسة كوادر البعث ومنازل المسؤولين. دعا المهاجمون الّذين كانت أعدادهم تتراوح بين 300 إلى 400 الشعب إلى الثورة وقاموا بتوزيع الأسلحة عليه.

الأربعاء 1982/2/3

انضم حوالي 2000 مواطن إلى جماعة الإخوان بعد أن أصبحوا المسيطرين على الشوارع، احتلوا السجن المركزي وقاموا بتحرير المعتقلين. وحدها ثكنات المخابرات العسكرية والأمنية استطاعت المقاومة.

تمّ إعدام كبار المسؤولين الرئيسيين في حزب البعث، وعددهم 95، رمياً بالرصاص. وهنا تلقت الفرقة 47 الّتي كانت تعسكر على مسافة 5 كم من حماة، تلقّت أمرا باحتلال المدينة. لم تستجب كل القطعات الّتي تشكل الفرقة للأوامر وانشق قسم منهم. تمّ إعدام جنود كثيرون منهم رميا بالرصاص.

أعلن الإخوان المسلمين من خلال مكبرات الأصوات أن الأحداث الدائرة لن تقتصر على حماة وقالوا في بيان لهم أن لا خيار بديل للسلطة إن أرادت أن تتجنب حماما من الدماء إلا التنحي.

بعد الظهر، قصفت المدينة بصواريخ أرض- أرض وتمّ قطع الماء والكهرباء.

الخميس 82/2/4

بدأ الهجوم على المدينة، في الفترة الواقعة بين مساء الأربعاء إلى صباح الخميس، من قبل فرقتين بقيادة شفيق فياض المسؤول عن عمليات تل الزعتر ضد الفلسطينيين، وبمساندة 2000 عنصر، كتيبتين من الوحدات الخاصة و1300 جندي. في فترة بعد الظهر، اقتحمت المدرعات منطقة "البياض" شارع 8 آذار.

الجمعة 82/2/5

استطاع الجيش احتلال النقاط الاستراتيجية بعد معارك عنيفة. وخلال ثلاثة أيام، شاركت ألوية الدفاع المشترك بتنفيذ عمليات إعدام جماعية في شمال وجنوب الملعب البلدي، سوق الشجرة، الدباغة وأبي الفداء.

رجال ونساء وأطفال ذُبحوا دون تمييز فيما قاوم حي "الحاضر" الّذي كان تحت سيطرة الإخوان حتى اليوم الثامن بحزم. كان الجيش مدعوما من سلاح الطيران الّذي كان يستخدم الغازات. وبدأت عمليات النهب واغتصاب النساء تنتشر على نطاق واسع.

بلغ معدل الدّمار 20% في حي العليليات والشريعة، 50% في سوق الشجرة، 100% في كل من حي الكيلانية الشرقي والشمالي، حي البارودية وحي الزنبقي. سيبلغ معدل الخسائر البشرية 15000 شخص من بينهم 3800 يدعمون النظام. طالت الإعتقالات 4000 شخص.....".

التفكك

لقد أثرت سنوات المواجهة الأربع بشكل عميق على المجتمع. إن عملية سحق أي أداة تعبير خارجة عن نطاق الحكومة لم تدع المقاومة الديمقراطية في البلاد بسلام. ارتفعت أعداد معتقلي الرأي لما يقارب 9000 شخص، فيما تم اعتبار أكثر من 3000 شخص في عداد المفقودين.

الرجل الّذي لا وطن له، الذي تلبسني منذ وصولي العاصمة الفرنسية الّذي، شعر بخطيئة الرحيل وحاول فعل شيء ما. صار من الضروري وضع خطة جديدة للسنوات المقبلة. سأكتب عن تاريخ الإخوان المسلمين وسأحاول استخلاص العبر من انهيار الحركة النقابية وسأعمل على المساعدة للحد من أضرار الناجمة عن تراكم عدد الضحايا. يجب أن تحتل مسألة "التنوير" حيزاً أكثر أهمية في نشاطاتي ككاتب. يجب عليّ أن أمضي اكثر من 2000 ليلة حراسة حتى يكون ضميري مرتاحاً.

دون أن أمتلك التجربة والمهارة وللضرورة المحضة، بدأت بالعناية بضحايا المأساة الّذين استطاعوا الفرار من الموت، وبأهالي المفقودين. لم يكن الحديث عن حقوق الإنسان حلما أيديولوجيا جميلا أو موضوعاً دارجاً ولكنه كان ممارسة طبّية طارئة لمجتمع يحتضر حرمته السلطة العسكرية من أي شيء من شأنه أن يعيد له الحياة.

تمّ حل الرابطة السورية لحقوق الإنسان فنشرت رسالة مع صديق فرنسي كبير،" J. Finnet" للمطالبة بإطلاق صراح رئيسها. نصحني أن أضيف في نهاية الرسالة عبارة: اللجنة المختصة بالدفاع عن د.موفق الدين الكزبري. نسقنا جهودنا بشكل ممتاز مع كل من " Aby Pam" الناشط الدؤوب في منظمة العفو الدولية ومع فرعها في سوريا. راسلت كل من رئيس الفدرالية الدولية لحقوق الإنسان " Michel Blum "، منظمة الأمم المتحدة والنقابات المهنية الحرة. واكتشفت أروقة لجنة حقوق الإنسان في جنيف.

كان هناك مبادرات أخرى حيث قرر كلّ من البعثيين، الناصريين، والشيوعيين في المعارضة أن يجعلوا مسألة حقوق الإنسان في صلب نشاطاتهم واهتماماتهم في المهجر. أخيراً بدأ الكلام عن الوجه الآخر لسوريا. وبدأ الشعب داخل البلاد باكتشاف حقوق الإنسان ولكن هذه المرة في ميادين تتجاوز بشكل واسع نقابة المحامين.

لحسن الحظ أو لسوئه، فإن تجربة العالم العربي، بشكل عام، في التعرف والدفاع عن حقوق الإنسان كانت نتاج الألم والمعاناة بسبب اعتداءات السلطة السياسية وخاصة فيما يتعلق بالإعتقال التعسفي، التعذيب والاختفاء القسري. الأمر الذي طرح دائما نقطة استفهام لعدم التواؤم بين ردة فعل في الوعي الجمعي على انتهاكات جسيمة وضرورة بناء ثقافة حقوقية تنبع من تجربة معاشة. لقد التقيت معتقلين سياسيين سابقين ليست لديهم فكرة عن ماهية "مذكرة الإعتقال" والتقيت أيضاً مثقفين يدّعون أنّهم يدافعون عن حقوق الإنسان ولكنهم بنفس الوقت مازالوا مع فكرة عقوبة الإعدام والتعذيب الجسدي "حرصا على مشاعر الجمهور"؟.

لم يقدّم مرض الرئيس السوري حافظ الأسد أي شيء من شأنه تسهيل الأمور وحل المشكلة، حيث كرّست منظمة المرتضى الفاشية الّتي أنشأها رفعت الأسد شقيق الرئيس السوري كلّ مجهودها لتغذية الحقد الطائفي بين العلويين وأصبح السكان يعيشون، من جديد، تحت خطر المواجهات بين عناصر الجيش من جديد.

وحده مشهد القمع ظلّ مستمرّاً

" صديقي العزيز

بات الفضاء ضيّقاً، توقّف الزّمن عن كونه شاهداً، غيرت حقول القمح لونها وأصبحت الأمهات تعيش في هذيان تام.

توقّف الوطن عن بكاء أطفاله خشية إزعاج القائد الأعلى، ولم يعد لأصدقائي الحق في الإعتراض على أي شيء من شأنه المساس بالوحدة الوطنية.

صاح الجلّاد: "يا علي، يا أبا الحسن، أعنّي على عقاب هذا الخائن..."

منذ متى أصبح "علي"، "عليّنا جميعاً" أداة تستخدم بيد البربريّة البوليسية؟

مات "أمين" بعمر الزهور، في 5 كانون الثاني 1983، مات تحت التعذيب وبسبب كذب الضابط الّذي جعل منه مجرماً. تمّ رميه من الطابق الرابع في مشفى اللاذقية الوطني بغية تجميل سبب وفاته.

لقد بات حبّ الحرية يا صديقي سبباً رئيسيّاً للمثول أمام محاكم أمن الدولة.

أنا مُهانة ويائسة حدّ الموت، لم أعد أعرف ماذا أفعل.

هل تستطيع قول أي شيء لي؟ لديك بالتاكيد إحدى صوري في مكان ما، عندك، أنظر إليها وعانقني بقوة، فأنا أحتاج ذلك حقّاً. "

.....

قرّرت السلطة الإبقاء على ألف من المحامين، الأطباء، والمهندسين في السجن، بدون تهمة ولا محاكمة، لإخماد أي نشاط احتجاجي، اجتماعي كان أم مدني، وإيقاف أية أداة تعبير نقدية: أصبح التجمع الوطني الديمقراطي مشلولاً بشكل شبه تام، أصبحت النشاطات الثقافية مسؤولية وزارة الدفاع. واصلت أحزاب جبهة السلطة تصرفاتها السطحية والمتحنطة الّتي كانت عسرة الهضم والتحمل بالنسبة لأغلبية السوريين.

عن بلاد الأفواه المكمّمة، سأتحدث بعد مرور عشر سنوات، في واشنطن، جنيف وباريس:

" المادة 4 من المرسوم رقم 51 لعام 1962 الّتي تخص حالة الطوارئ تجيز للحاكم العرفي الحق بإصدار الأوامر المكتوبة في ضوء اعتماد قيود تحيل المخالفين إلى المحاكم العسكرية.

من بين هذه القيود: مراقبة الرسائل المكتوبة وكافة أشكال الاتصالات. مراقبة الصحف، الدوريات، المنشورات، الرسوم، المطبوعات، البث الإذاعي وكافة وسائل التعبير والدعاية والإعلان قبل صدورها. وأيضاً الاستيلاء عليها، مصادرتها، تعليق إصداراتها، إلغاء حقوقها وإغلاق الأماكن الّتي طبعت فيها"

إنّ التطبيق التعسفي لقانون حالة الطوارئ في 8 آذار 1963، جعل من هذه المادة "ميدوزا" حرية التعبير منذ 32 عاماً.

ولنعد إلى الأذهان أن 8% من السكان كانوا يشترون الصحف قبل هذا التاريخ، لكن اليوم أصبحت النسبة أقل من 1%.

بحسب الإعلام الرسمي، لم تعد الأمية موجودة في سوريا لكنّ الحقيقة كانت غير ذلك تماماً. إنّ 32 عاماً من حالة الطوارئ كانت كافية لتهميش التعددية السياسية، الإختلاف الثقافي والغنى الفكري والمعرفي في البلاد. لقد أضحى مصير الفكر النقدي إما في السجون أو في المنافى أو قابع بين الأشخاص المنسيين من الجيل القديم الّذين اختاروا الصمت.

ما ميّز السنتين التاليتين لإعلان حالة الطوارئ أنّهما كانتا بمثابة فترة انتقالية. لم يكن الجيش قد سيطر بعد على المجتمع وكانت قوات الأمن تمتلك صحيفة واحدة فقط هي صحيفة الحزب. بدأت المفارقة طيلة الفترة الممتدة من 1966-1970، اعتقلت السلطات اثنين من الكتّاب الثلاثة الّذين شاركوا في صياغة نص "بعض المنطلقات النظرية" الّذي اعتمد في المؤتمر السادس لحزب البعث، والّذي كان الجناح اليساري في السلطة يرى فيه غذاء الروح.

تمّ أيضاً، في السنوات الست الأولى بعد إعلان حالة الطوارئ، اعتقال كتاب، شعراء وباحثين من بينهم ناصريين، بعثيين، قوميين عرب وشخصيات من اليسار الكردي في سوريا.

في عام 1969، احتلّ وزير الدفاع الجنرال "الأسد" الصحف المحلية والبث الإذاعي وفي العام 1970 أنهى ازدواجية السلطة من خلال تقديمه، للمرة الأولى في حياته، نصّا تمّت كتابته لمؤتمر الحزب. نصّاً يمتاز بالعمليّة والبساطة والتواضع، لم يعدّل هذا النص بعد ذلك أبداً. لكنّ دستور عام 1973 هو الدستور الّذي حمل الآمال والأوهام. دستور تمّ وضعه بطلب من الرئيس وتمّ تقديمه مع ديباجة تحدّد دور الحزب وتعرّف "الديمقراطية" كديمقراطية شعبية غير واضحة المعالم. ينصّ الدستور في المادة الثامنة منه على مايلي: "حزب البعث هو الحزب القائد للدولة والمجتمع". باختصار، دستور مستوحى من أنموذج رومانيا القديم.

بالرغم من كلّ هذه الضمانات للسلطة التنفيذية إلا أنّ هذا الدستور لن يطبّق في ظل حالة الطوارئ، وستبقى المادة 38 منه الّتي تتناول حرية التعبير حبراً على ورق. بارك المثقفون الّذين يعرفون، نوعاً ما، كيف يجمعون بين السلطة والعقل النقدي، باركوا هذا التغيير. كتب اتحاد الكتاب العرب "الرسمي" الّذي لم يتجرأ قط على الحديث عن حالة الطوارئ، كتب: ها نحن ذا نكتشف أن الوطن بحاجة لبطل والحزب بحاجة لزعيم، وهذا كله موجود في شخص رئيسنا.

في المقابل، اشتدت الرقابة، وخضعت الجامعات للمراقبة والعسكرة شيئاً فشيئاً، وأصبح البحث عملاً مشبوهاً منذ بدايته.

صحيح أنه لا يمكن للرقابة أن تكون شاملة وتامة إلا أنها خلقت بلا عقلانيتها وبأفقها الضيق خوفاً كان من شأنه الحد من أية إمكانية لإنتاج المعرفة بمفهومها الواسع وأي حياة فكرية طبيعية.

لقد أعطى ارتفاع مستوى العنف في البلاد بين عامي 1979-1982، سواء أكان آتيا من جهة النظام أو من جهة الأصوليين، أعطى الحجة لاعتقال أكثر من 1000 شخص من كوادر الموظفين والإداريين: جامعيين، باحثين، أطباء، مهندسين، محامين وغيرهم.. تم اعتقال أغلبهم إثر احتجاجات نقابية كبيرة كانت تدعو إلى إنهاء حالة الطوارئ.

وجد ما يقارب نصف المثقفين أنفسهم مجبرين على اتخاذ طريق المنفى، طوعاً أو كرهاً، هرباً من القمع الأعمى ومن سياسة "إن لم تكن معنا فإنك مع الإسلاميين".

في الجامعات، أكثر من 100 أستاذ جامعي تم فصلهم، اعتقالهم أو ملاحقتهم. حلّت المحسوبيات مكان الكفاءة وضغط التهديد العسكري بقوة على الجامعات حتى يومنا هذا.

بعد عودة القمع الوحشي إلى حماه، أوضحت لعدد نادر من الكتّاب الّذين تم استجوابهم بلا عنف، بعد أحد عشر عاماً على استجوابهم، بأن عملية استجوابهم بدون تعذيب كانت امتيازاً كبيراً بالنسبة لهم.

أفرز إعلان حالة الطوارئ مثقف السلطة الّذي يعمل من أجل السلطة ولكن بقليل من السلطة. لم تفرز البلاد طوال 32 عاماً، صحفياً واحداً يعيش في البلاد ويستحق هذا اللقب. لقد تمّ افتتاح مؤسسات ثقافية خاصة في البلاد، لكنها ظلت قابعة تحت مراقبة شديدة وظلت تتحرك، غالباً، بأيدي مسؤولي الحزب السابقين. لقد تمّ تحجيم علم السياسة إلى مقاييس مماليك العصور الوسطى: سياسة تتبع وتخدم السلطان.

هذا مقطع صغير كتبه أحد الصحفيين الّذين يحبون السلطة الحاكمة في سوريا الّتي لا يمكن لإنسان أن يحبها:

" سيد الأمة... حافظ الأسد، لا يمكن مقارنته بأي أحد، ولا يمكن لأحد قياس محبة الشعب له لأنه لا شبيه له. في الاستفتاء، ستهتف القلوب للرئيس قبل الأصوات... يظلل الفرح والسرور الأمة عندما يكون الرئيس مسروراً... لكنّ حزن الرئيس زعيم الامة كافياً لملئ الشوارع بدموع الشعب"

بذلت مجهوداً لإعادة صياغة بعض فقرات هذا المقال الخطير الّذي نشر في صحيفة لا تقل خطورة:

"تشرين 1994/8/30.

هل يمكننا حقاً أن نتكلم عن الصحافة مع وجود عيّنات من هذا النوع؟؟

منذ أكثر من سنتين، شهدنا محاكمة جماعية لأكثر من 500 سجين رأي أمام محاكم أمن الدولة، شكل الطلاب فيها الطبقة الإجتماعية الأكثر تضرراً تلتها طبقة المثقفين ورجال الفكر منهم 9 صحفيين علمانيين، وثلاثة منهم تمت محاكمتهم بسبب انتسابهم إلى لجنة الدفاع عن الحريات الديمقراطية وحقوق الإنسان في سوريا (C.D.F).

هناك أشخاص ولدوا قبل إعلان حالة الطوارئ، كتاب، صحافيين، روائيين وشعراء اتخذوا موقفاً من السلطة، يتم استجوابهم مرة واحدة على الأقل كل أربعة سنوات، استوعبوا جيداً أن هنالك خطوطاً حمراء لا يجب عليهم تجاوزها.

لقد تعلّم الجيل اللّاحق جيداً كيف يواصل العيش في ظلّ حالة الطوارئ الّتي يعدّ هو نفسه ثمرتها وضحيتها في آن معاً.

ذات يوم، قدمت السلطة الدستور على أنه أعظم إنجازاتها. هذا الدستور الدائم التعطيل، سيعتبر بعد 38 عاماً، واحداً من الدساتير الأكثر قمعاً في العالم. بقي أن نشير إلى أن هذه السلطة نفسها هي الجهة الوحيدة الّتي تنتهك هذا الدستور وتتصرف خارج القانون في البلاد.

يحدث أن يكون معتقل الرأي غير حزبي أو حتى لا رأي له. يمكن أن يكون ابن عم أحد المعارضين، أخاه أو زوجته. تمّ اعتقال أربعين شخصا من عائلة الضابط المسؤول عن مجزرة الأكاديمية العسكرية في حلب، خمسة عشر شخص من عائلة واحدة اعتبروا في عداد المفقودين. ناهيك عن أن السلطات تعاقب بشدة كل من يدان بالتضامن العائلي أو الاجتماعي مع عائلات المعتقلين.

ذات ليلة شتوية، طرق رجل مقنع باب بيت عمي حسّن الّذي يملك محل "نوفوتيه" والّذي يقبع أخ له في السجن وإثنان في المنفى، وحسّن نفسه لا علاقة له بالسياسة.

_ يا عم، إن جارتكم ستموت من الجوع لأن زوجها في السجن

_ أعلم. المسكينة، نحن نحاول مساعدتها

_ خذ هذا المبلغ الّذي جمعه أصدقاء زوجها وجزاك الله عنها خير الجزاء

أخذ حسّن المال دون حتى أن ينظر للرجل، وذهب إلى المرأة سرّاً وقص عليها الحكاية. لم تستطع المرأة الّتي أنهك الجوع قواها إخفاء فرحها عن الجيران الّذين كان أحدهم يعمل في المخابرات.

اعتقلوا حسّن وعذّبوه بوحشية ليتكلم عن هوية الرجل الّذي أعطاه المال ولكن بلا نتيجة لأنه أصلا، ليس لديه شيء يذكر عن الموضوع. وعند مثوله أمام محكمة أمن الدولة، طرح على القاضي الّذي كان أصله من الفلاحين سؤالاً:

_ إذا طرق أحدهم على بابك وطلب منك المساعدة ماذا كنت لتفعل؟

_ لا أرفض

_ لماذا إذاّ يحق لك أنت أن تكون كريماً وتساعد الآخرين بينما لا أملك أنا الحق بذلك؟

لم يصدر القاضي حكما حينها وتأجّلت القضية لموعد لاحق حيث حُكم حسّن بالسجن المؤبد. في السجن، أصيب حسّن بمرض "الزرق" (جلوكوما)، بذلت من أجله جهودا حثيثة وراسلت أكثر من عشرين منظمة غير حكومية، لم يعتنوا به ففقد بصره. بدأت صحته تتدهور بشكل سريع بعد أن فقد بصره، لكننا استطعنا أخيراً إطلاق سراح العم "أبو مرعي" بعد أحد عشر عاماً من الاعتقال. قضى مع أطفاله أقل من عام. لم يستطع تحمّل إعاقته ولا الظلم الّذي حلّ به. مات العم حسّن دون حتى أن يفهم كيف يكون الإنسان قادراً على إيقاع الكثير من الضرر بأخيه الإنسان.

.....

كتب لي والدي رسالة من السجن يقول فيها:

" أيّ معنى يبقى للحياة حين تقيد الكلمات بالسلاسل؟ وماذا يتبقى للإنسان حين يُغتال حقه في التعبير؟ هل هناك أحد يستطيع تجميد الخطاب حتى نختنق به وقتل الكلمة قبل أن تغادر الفم؟ أيعقل أن نبقى كائنات حية بعد هذه الضربات الّتي تستهدف إنسانيتنا؟ والّتي تخدش قيمنا؟ والّتي تحرم أفكارنا من أن ترى النور؟ لماذا مازلنا، حتى الآن، نعتبر أنفسنا أحياءا إذا كنا لا نملك الحق في نطق كلمة حرة منذ وقت طويل؟

إنّ البلد الّذي يحكمه الصغار يصبح بالضرورة صغيراً"

بعد عدة أشهر، أخبرتني أمي بمرض أبي فقمنا بحملة لنقله للمشفى والمطالبة بإطلاق سراحه. نقل إلى مشفى المواساة في دمشق وأجريت له عملية على يد أحد زملائي. كتب لي من السجن، تماماً قبل إجراء العملية:

"بنيّ، ستتحسن صحتي وسأكون بأفضل حال بعد العملية. أريد أن أشكرك على ما تبذله من جهود استثنائية في منظمات حقوق الإنسان الدولية، وصلت رسائل كثيرة تسأل عني. إنّ

مجهودك هذا لا يقدر بثمن ولعلك تكون في مكان يسمح لك بشكل أفضل مني بتقدير نتائجه على كافة المستويات.

بفضلك وبفضل زملائك، بتّ أشعر أنّ نهاية الكابوس أصبحت قريبة جداً"

بعد أن واصلنا جهودنا، تم إطلاق سراحه بعد خمسة عشر عاماً قضاها في السجن، وعند خروجه، كان مصدوما بالواقع المجتمعي الجديد.

" بنيّ

لقد خرجت من السجن وفي جعبتي صورة وردية رسمتها خلال سنوات، أردت من خلالها محو عثرات الماضي وتجاوز بقع الأمس الرمادية، لكنني وجدت حياة تسحق الفرد بلا رحمة، وجدت نفسي بين حشد من الناس لا يضم اثنان يفكران بنفس الطريقة. لقد أضحى فن التكيف مع السلطة المهيمنة عاملاً من شأنه تسهيل الحياة اليومية. ما يفاجئني هو التغيير الكبير الّذي حلّ بالإنسان. لم يعد هناك وجود للشفافية والأمانة والتضحية على الإطلاق. أما هؤلاء الّذين مازالوا يؤمنون ببعض القيم فلا يملكون القدرة في التعبير عن آرائهم أبداً. لقد باتت المصلحة الشخصية والتفكير النفعي يشكلان أساس أي تواصل إنساني. لم تعد القيم الإنسانية والوطنية الكبرى موجودة إلا في إطار المزايدات وبدون أي فكر استمراري. ولكنني سأبقى رغم ذلك، كما تعرفني، رجل المبادئ، مهما كان الثمن. لست أنا الرجل الّذي، في عمره هذا، يتخلى عن أغلى ما يملك"...

بعد اثني عشر يوماً من حصار الجيش السوري لمدينة درعا، اتصلت بي أمي، في الأول من شهر أيار، لتخبرني أن أبي لم يعد يعاني منذ اللحظة الّتي فارقنا فيها. لم يكن لدي حق بلوغ عامي الستين دون أن تثقل كاهلي فجيعة إضافية. لم تكن أمي تعلم بأن هذا ليس إلا فاتحة لقائمة أموات طويلة، وأن اسمها سيكون من بين هذه الأسماء، في شهر أيار بعد سنتين.

لقد عانى والدي كثيراً من تراجع الأخلاق في المجتمع. لقد تغيرت البلاد كثيراً خلال خمسة عشر عاماً، سينضوي هذا الشعب الصغير، في غالبيته، من الآن فصاعدا تحت فئة "كل من تزوج أمي أصبح عمي". نجحت السلطة في الحدّ من فضاء الأحلام وأخضعت لسلطتها المقومات البدهية لأي وجود لا عنفي. يمكنك دائماً أن تفتتح مجلة، دار نشر أو مكتبة... ولكن يجب عليك أن تعرف ألحدود والخطوط الحمراء، يجب أن تحتفظ دائماً بعلاقات من شأنها طمأنة أجهزة الأمن، يجب عليك أن تعرف كيف تغلق فمك وتدفع البخشيش. أصبح الفساد مؤسسياً ومشجعاً لأن المدير الفاسد هو مخلص ملتزم بالضرورة. كلما زادت التسويات، زادت الحاجة لأناس خارجين على القانون لتسيير أوضاع خارجة على القانون.

مراسيم العفو الرئاسية الوحيدة الّتي يتم تطبيقها بدقة هي مراسيم العفو عن الجرائم الاقتصادية. لقد زادت أحكام تبرئة الأغنياء الجدد من عدد أصدقاء السلطة وجعلت من أعضائها أناساً أغنياء وشرفاء. وحده "الدفاع عن الديمقراطية" استمر كجريمة لا تغتفر، ولذلك أصبحنا نرى علامة مميزة على بطاقات المعتقلين القدامى الشخصية، عبارة يمكن اكتشاف إخلاصه للكرامة والحرية منها: "محروم من الحقوق المدنية".

لقد كان لدى والدي صعوبات حقيقية في مواجهة الوضع في البلاد، لقد كتب إلي عدة مرات بأنه كانت تنتابه أحيانا الرغبة بالعودة إلى السجن. لقد ضحى، بكل تأكيد، بجزء من شخصيته لكي يستطيع التكيف مع المجتمع.

"لا أخفي عليك يا ولدي أنه كان لدي صعوبات جمة في التعامل مع الناس، أحيانا كنت أرغب بشتم كل المبادئ والقيم الأخلاقية الّتي تقودني، ولكن ما كان يعزيني هو إيماني بالمثل القائل "إفعل الخير وأغلق عينيك عن رؤية ما سوى ذلك". أنا لم أقدم التضحيات لأنني أنتظر شكراً من أحد، ولكنه من غير المحتمل أن تسمع أن المقاومين هم قليل من السذج الّذين أضاعوا حياتهم من أجل لا شيء. المشكلة الرئيسية أنني لم أعد أملك الشباب اللازم كي أعيد خوض معركتي من جديد، ولذلك:

1. *لم يعد هناك وقت للبناء من جديد*
2. *لم يعد هناك وقت للتعبئة*
3. *يجب علي المحافظة على مبادئي وقيمي مهما كان الثمن*
4. *لا بد لي من اتخاذ موقف أكثر مرونة تجاه اللآخرين ولكن دون حلول وسط لحظة تحمل مسئولية مواقفي*
5. *يجب أن أموت بشرف وكرامة كما يموت الإنسان الحر*

لقد عملت كمحام لأتواصل مع الناس وهذا ماسمح لي بمواصلة البقاء على قيد الحياة. كل يوم، لدي موكّل يراقب نشاطاتي، لكنني أعتقد أنّ هذا لن يستمر لوقت طويل... عاجلاً أم آجلا، ستقتنع السلطة بشيء أساسي : مستقبل بلادنا سيبنى بيد جيل آخر غير جيلنا، وأنا سعيد لأن ولدي يقوم بواجبه على أكمل وجه "

لماذا يكون مصطلح "العدل "رهينة غالباً بيد الأقوى؟ وكم من المرات، على مدى تاريخ الإنسانية، سيمسح القويُ العدالةَ من ذاكرتنا الجمعية؟"

في اليوم الّذي قرات فيه رسالة أبي شعرت بالظلم تجاه إحدى الصديقات الّتي كنت قد طلبت منها الكثير، والّتي كتبت لي حينها:

" صديقي الأغلى، سامحني، ستقول بأنني أصبحت ضعيفة بعد أن كنت المرأة الحديدية، وأنا كذلك. يجب عليك أن تعلم أنّ لكلّ إنسان إمكانيات محدودة، وأنه يجب علينا أن لا نطلب منه ما يفوق طاقته".

تعلمت أن لا أطلب الكثير من أصدقائي الّذين يناضلون في ظل حالة الطوارئ.

تمّ إطلاق سراح عدد لا بأس به من المحامين، ونشطاء الرابطة أيضاً . طلب مني الدكتور جمال الأتاسي أن نؤسّس المنظمة السورية لحقوق الإنسان لكي نعمل بشكل أفضل. كتب لي حينها بأنه يجب علينا أن لا نعتمد على الرابطة القديمة، فأجبته برسالة مفصّلة مفادها أن الشيء الأساسي هو أن نؤسس منظمة في الداخل حتى ولو ضمت بعض الأشخاص السابقين ، وأنني جاهز وتحت تصرفهم. لقد رفضت دائماً ذلك النوع من المنظمات الّتي تؤسس بغية إظهار هيبة أعضائها .إن الخطاب العربي ضبابي ولا فائدة منه على الأغلب ، إن الالتزام الديمقراطي الفعلي يبدأ من الشارع والقرية وصولاً إلى الفضاء الثقافي العربي نحو نظرة عالمية، وعندما لا نضع القرية في حساباتنا الأساسية فإن المثقف سيتجنب طرح الأسئلة الصحيحة حتى لا يزعج أحداً .سبيقى كلامه في العموميات .

يهيمن البعد الغربي، على المنظمات الدولية. فمنظمة العفو الدولية، مثلاً ، ترفض أن يعمل الناشط على مواضيع تخصّ بلده الأم لضمان الحيادية . من المعيب مثلاً، أن تجد ناشطاً فرنسيا، عضواً في المنظمة، يعمل على المشاكل الموجودة في السودان دون أن يناضل أبداً، ولو بكلمة واحدة ، فيما يخص حقوق الإنسان في فرنسا. أن تشجب تصرفات "البشير" دون أن تنطق بكلمة واحدة تنتقد فيها قوانين باسكوا، وهناك بعد آخر كامن في أن المنظمات غير الحكومية الغربية الدولية تعطي الأولوية للحقوق السياسية والمدنية على حساب الحقوق الإقتصادية والإجتماعية الثقافية. لكي تستطيع النضال بشكل متماسك يجب عليك دائماً أن تملك نظرة شاملة لحقوق الإنسان على كافة المستويات وأن لا تنس الدفاع عن كل الحقوق للجميع.

بعد عدة أشهر (1987)، قامت السلطة بعملية، هي الأقسى، بالنسبة لحزب العمل الشيوعي. تمّ استجواب أكثر من 2000 شخص أعضاء وأصدقاء لهذا الحزب خلال ستة أشهر، أعضاء في حزب البعث المكتب السياسي بالإضافة إلى بعثيين يساريين، بقي أكثر من 800 منهم في السجن، وتم أخذ رهائن مكان الأعضاء الّذين فرّوا من الإعتقال، كان التعذيب وحشياً، وفُقد "مضر الجندي" بعد ليلة كاملة من تعذيب لا يحتمل. في هذه الحقبة، فقدت البلاد اثنين وعشرين مواطناً، من كافة الإتجاهات اليسارية، إثر معاملة غير انسانية :الروائي هيثم الخوجة، المربي الإجتماعي إحسّان عزو، سليمان غيبور، أحمد العباس، ابراهيم أحمدو، محمد العرّاج، أحمد أسعد غنوم، عمر الجميل، أحمد جارود، رفعت الرشيد، طه عبد الرازق سرحان، محمد راشد عباس، رضوان الدغيم، عمر وحيد حيدر، محمد عيسى المانع، عبد الرزاق أبازيد، عبد القادر مرتضى، صالح رخيمة، وجيه شحادة، موسى زيدان، أحمد الزير وجنين عمره تسعة أشهر مات على إثر تعذيب أمه وفاء .إذا علمنا أنه تم تحييد أي شكل من اشكال العنف السياسي غير الحكومي، في البلاد، منذ خمس سنوات، فإن الوضع غير الإنساني في السجون السورية لم يعد يجد تفسيرا عقلانيا مقنعا حتى لأنصار السلطة بعد الآن .

لم يعد المعتقل والمفقود مجرد رقم بعد الآن، وذلك بفضل الإتصالات المباشرة مع الضحايا وعائلات الضحايا الّذين لم يكونوا أقل ألما .كانت كل حالة، بالنسبة لي، مستقلة عن غيرها، لأنه لا يمكننا أبداً إعادة تصنيع كائن إنساني واحد .أماكن الإعتقال، تواريخ الإعتقال، الحالة المدنية ،المهنة إلخ ... لم يكن ذلك العمل يتعبني لأنه كان عبارة عن استبيانات يجب ملؤها وإرسالها إلى المنظمات غير الحكومية .الفترة الّتي تم اختطاف ميشيل فيها ،الفترة الّتي

فقدت عائلة مصطفى أثره فيها ،الحزن الموجود على وجوه أصدقاء طفولة محمود أو المعالجة النفسية لأحد أخوات المفقودين الّتي كانت تعيد علي كلماتها بلا توقف " ،لقد أصبحت الضحية نبعا لا ينضب بالنسبة لعلم النفس الإجتماعي وللكرامة الإنسانية ،ولقد بات محيط الضحية يهمنا أيضاً بنفس قدر الضحية نفسه لأن الآثار باتت الأن تذهب أبعد حتى من الأسرة نفسها ." لم يعد الأمر يتعلق كثيراً بالمراوغة والالتفاف حول الطرق التقليدية الّتي تطالب الحكومة بالقيام بخطوة ما ،ولكن أيضاً ،وبشكل خاص ،بمعرفة وإمكانية التعبيرعن الغضب العميق للكائن الإنساني الّذي لا يمكنه إلا أن يتقاسم ويقاسم الاخرين آلام الضحايا :

"يقول فرويد :إن الألم يتهددنا من ثلاثة جوانب :الجانب الأول يأتي من أجسادنا الّتي تسير نحو الفناء والانحلال والّتي لا يمكنها حتى التخلص من التنبيهات الناتجة عن هذا السير الّذي يسبب لها الألم والكرب ،والجانب الثاني هو العالم الخارجي الّذي يتمتع بقوة لا تقهر تسعى للنيل منا وتدميرنا . وأخيراً الجانب الثالث يأتي من علاقاتنا مع غيرنا من البشر وتعدّ المعاناة الناتجة عن هذا المصدر بالنسبة لنا أقسى ربّما من أيّ شيء آخر."

أرى أنّ المعاناة المشتركة ليست شكلاً من أشكال التهديد ، إنّها ليست من الكماليّات أو شيء لا طائل منه ،إنها تشكل واحدة من اللحظات الأكثر نبلاً في الوجود الإنساني لأننا نشعر ،من خلال الحفاظ على سلامتنا ،بالترابط الإنساني الجدير بوجودنا البشري .

دفعتني كل من "إيتالا "و "ليليان "للكتابة عن الوجه الآخر للقمع وعن تجربتي مع المئات من عائلات الأشخاص المفقودين ،وهذا ما بدأت بالقيام به بالفعل .تعدّ هذه الملاحظات الّتي كتبتها تكريما لعائلات المفقودين من بين أكثر النصوص الّتي أحبها:

"لم أكن أريد بيع الأوهام لأحدى نساء المفقودين عندما سألتني ذات مرة :

_هل تعتقد بأنهم قادرين على قتله؟

_لأكون صادقاً معك ، إنهم قادرين على فعل كل شيء"..

عرفت بعد ثلاثة سنوات أنّ هذه المرأة لم تستطع النوم لأسبوع كامل بعد هذا الحوار ،وانتهى بها المطاف إلى الخضوع للعلاج في أحد المشافي لكي تستطيع النوم وذلك بعد أن ذهبت إلى البصّارة لتستطلع مصير زوجها الّذي كان يجب عليه أن يبقى على قيد الحياة على الرغم من المعاملة الوحشية الّتي يتلقاها من خاطفيه .لقد اضطرت هذه المرأة لانتظار ثلاث سنوات حتى يتم اطلاق سراح أحد أصدقاء زوجها الّذي كان قد خطف معه واضعاً بذلك حداً لهذه المأساة المزدوجة .ستتقبل أخيراً أنها كانت أرملة منذ أحدى عشرة سنة وأنّه سيتوجب على الطفلة التي كانت تنتظر والدها ،من الآن فصاعداً ،أن تتقبل فكرة عدم عودته أبداً .

هكذا بدأت هذه السيدة ،ومنذ هذا التاريخ ،بإعادة ترتيب حياتها على أساس المعطيات الجديدة .لقد توجب عليها ،كما الكثير غيرها ،وضع حد لحالة الضياع الّتي كانت تعيش فيها .

"إنّ هذا الخبر مؤلم بالتأكيد ،ولكنني سأعرف الآن على الأقل على أي وسادة سأضع رأسي .سيدي ، لقد حدثوني عن الحياة وعن الموت لكنني لم أتوقع أبداً أنه من الممكن أن يوجد هناك حالة ثالثة " ..!!

لقد نجحت في الشعور بالخلاص على وقع هذه المأساة الجديدة لأنها باتت تعلم الآن ما يمكن توقعه ،لقد وضع ذلك حداً للشك الّذي لم يكن يفارقها أبداً . لم تعد تجرؤ الآن على تصديق حتى الأخبار الجيدة لأن خيبة الامل حلّت مراراً وتكراراً مكان الأمل ،لقد تعلّلت بأمال كاذبة بغية التغلب على الآلام المتأصلة في حالة الشك هذه ،على خطيئة الفراغ الّتي كان يمكن لها أن تبتلع كل شيء في طريقها ،لا سيما وأنها عاجزة عن امتلاك الوسائل الفعالة لمواجهتها .لقد بات الغياب الجسدي وفقدان أي وسيلة اتصال مع الشخص الّذي لم يكن قد صنف من بين الأموات بعد ولم يكن يشكل جزئا من الأحياء أيضاً ،بات يجردها بالكامل من كل قواها و يغرقها في ضياع كامل لأن هذه الحالة لا تجيب على تساؤل ثقافي حاسم .

يشكل الطلاق والسفر مرحلة بعينها ،في الغيبوبة أو في الأمراض الخطيرة ، نحن نحافظ على مفهوم الزمن ،نستطيع أن نقدر ،نلاحظ ،نستنتج ،نرى التقدم أو التراجع .ولكن لا يمكننا تصنيف الإختفاء ضمن المعايير الطبيعية لوجودنا لأنه يبتلع الزمن الّذي يصبح الغائب الأكبر في منطق الأحداث.

بأي طريقة يمكننا تناول الموضوع والتحدث عن المفقود؟

بالماضي؟ أو الحاضر؟ وكيف؟ لا نعلم إن كان يجب علينا استخدام "كان "أو "يكون الآن ."تصبح الكلمات جوفاء وخالية من المعنى ويفقد بعض أشكال التعبير سبب وجوده .

كيف لنا أن نوقف الزمن دون أن نقلب بنيتنا النفسية رأساً على عقب ،ونشل تمثيلنا الرمزي؟ مهما كانت الخصوصية الثقافية للضحية أو للدائرة المحيطة به

التكيف هو العنصر الأول الّذي لا يمكن أن يحصل والّذي يخترق الأساس المنطقي للدائرة المحيطة بالضحية .الفتاة البولونية الّتي فقدت أثر أبيها في معسكر الإعتقال ،الصحفي المغربي الّذي لم يكن يعرف شيئا عن مصير أبيه المفقود ،الطبيب السوري الّذي دخل السجن مع أخيه وخرج منه وحيداً ، الخطيبة الإيرانية الّتي لا تستطيع أن تسأل عن أخبار شريك حياتها لأنها لم تصبح بعد رسميا زوجته قبل اختطافه ،الأم التشيلية الّتي تعلم أن الطبيعة تقطف حياة الأطفال بعد أمهاتهم لكن وجب عليها استنتاج أن بعض البشر قلبوا المنطق وقرروا شيئا آخر ،الأطفال الّذين يجبرون على غش الكبار ،ولا يستطيعون شرح ما يحدث بدون غش ...جميعهم لا يستطيعون التعامل مع المشكلة بلا مشاعر وعلى الأغلب بلا أزمة عاطفية لأن الجرح غائر ولا يمكن اندماله أبداً مهما طال تاريخ الإختفاء .وطالما أن الحال كذلك تبقى ردود الأفعال نابضة ويبقى الماضي المؤلم يهدد بالطفو على الصطح برفقة موكب المشاعر المتشابكة .إن كون الإنسان حي وميت بنفس الآونة ،غائب وحاضر ،في الداخل أو في الخارج ،هو شيء لا يبرّر ولا يطاق .بالنسبة

للضحايا فإن سير التاريخ سيتوقف في اللحظة الّتي يصل فيها رجال مجهولون ويقتحمون البيت إلخ "...

تعيش الدائرة المحيطة بالضحية حياة من الخوف بعد أن حُكم عليها بانتظار المجهول دون حتى أن تعرف إلى متى ،لأنها لا تعرف بأي طريقة سترتب حياتها .وكيف ستستطيع تحديد مصيرها إذا كانت تجهل مصير مفقودها؟ إنه لشعور آثم للغاية أن تفكر الدائرة المحيطة بالمفقود بنفسها في مثل هذه الظروف الّتي يفضل المرء فيها أن لا يفكر بشيء على الإطلاق .

أصبحت "لو" الكلمة السحرية للرغبة الواعية أو غير الواعية لهؤلاء الأشخاص .ولكن ألا يقال في الأسطورة الشرقة أن "عند لو يبدأ عمل الشيطان"؟ وهكذا يخطف واحد من آخر أسلحة المقاومة الّتي تمتلكا العائلة الّتي سحقها الشك .

إنّ العدوانية تجاه "الشخص الغائب" لا يمكن لها أن تشقّ طريقها للعلن وتعبّر عن نفسها، ولكنها على العكس من ذلك ، تنعطف باتجاه الشخص الّذي يعيشها :والحداد الّذي يمكن له أن يخفف من وقع الحالة ينتهي مفعولة لحظة انتهائه .وهكذا فإن هذا الإختلال والنتائج الّتي ترشح عنه لا يمكن لها أن تكون محدودة في الزمن .

إنّ النسيان الّذي يخفف من المعاناة عند موت الشخص المحبوب لا يمكن له أن يكون موجوداً في حالة "الانتزاع "هذه .يبقى الإثم ومشاعر المسؤولية دائمة الظهور بلا انقطاع ،والوحدة الّذي يسببها ابتعاد القريب تتصف بالفراغ الناتج عن الإختفاء وبالحوار الدائم مع الغائب الموجود في كل مكان .

كيف يمكننا الحديث إذاً عن الراحة وعن إعادة دورة الحياة من جديد دون تحديد هوية واضحة ومستقلة للشخص الغائب؟ ودون إنقاذ العائلة من هذا الشر؟ إذا كان الموت يشكل جزءا من وجودنا الاجتماعي والثقافي فإن الاختفاء لا مكان له في تمثيلنا النفسي والانتروبولوجي .ولذلك فإنه حتى على المستوى اللغوي فإننا لم نستطع التعامل مع هذه الظاهرة الخارجة عن الطبيعة .

لا يمكننا توصيف هذه الحالة من الحداد غير القابل للإنتهاء أو المرضي على الرغم من وجود بعض أوجه التشابه ،لأنه لا يمكن للاضطراب أن يكون محدودا في الزمن ولأن الشخص الغائب هو حاضر دائماً .وبالمحصلة ،فإن الضياع يأتي من أن هذه الأعراض والاضطرابات تجتاح الفضاء النفسي

دون أن تؤشر على وجود مراحل محددة أو تقدم تطوّراً زمنياً .وبالأحرى هنالك خلط واضطراب في المظاهر الّتي تظهر على نطاق واسع :الإحباط ، الإكتئاب ،الاضطرابات النفسية الجسدية، الإضطرابات العاطفية، غياب مفهوم اللذة، عدم إيلاء اهتمام بأي شيء وأمور أخرى ..يمكن لكلّ يوم يمر أن يجعل ردات الفعل تطفو من جديد على السطح بكل تفاصيلها المعقدة ... ونتسائل أحيانا إذا كان الأشخاص المعنيين يضيفون شيئا من عندهم لقصة أنهكت ذاكرتهم ووعيهم.

أضف إلى أن هناك علاقة غير طبيعية تنشأ مع الزمن، وتأخذ بعدا يتجاوز بمراحل حدود السؤالين البسيطين: **منذ متى وإلى متى** ، للتعامل مع أوضاع عبثية غير قابلة للعقلنة.

تكمن المشكلة بشكل كلي في دوام شكل من أشكال التعذيب العائلي الناتج عن حالة من الانقطاع غير المحدد في الزمن .

وغني عن القول أن هنالك عدة عوامل تؤثر على التمايز بين الأفراد وطريقة التعبير عن حالة الفقد هذه كالشخصية ،العمر ،الخبرة ،الثقافة والإيمان ناهيك عن متانة العلاقة بين المفقود ومحيطه .

ولكن في جميع الحالات يمكن لنا أن نتسائل ،بشكل شرعي ،عن المفقود الأكبر هنا :هل هو الضحية ،الموت ،الحياة أم الزمن ...؟"

.....

"صديقي العزيز

يقول هانس سيلي "Hans Sely"أن متلازمة التكيف العامة تمر بثلاث مراحل :ردة فعل التنبيه ،مرحلة المقاومة ومرحلة الإنهاك ...وكون الإنسان يعيش في مرحلة الإنهاك فهذه لحظة جيدة .ماذا يوجد بعد ذلك؟ يمكننا سؤال السيد "هانس "لأنني أنا لم أعد أعرف شيئا على الإطلاق .إن المستقبل مظلم جداً أكثر من الحاضر ،واليأس هو دين الأغلبية "

تابعت عملي وأبعدتني وحدة 21 عاما مع الليل شريكا عن كلّ ما من شأنه المساس بإرادتي الذهاب بعيداً وحافظت ،متخذا جميع احتياطاتي ،على المراسلات مع أصدقائي داخل البلاد .حاسوبي ،كتبي ،الشاي و شراب الاعشاب ،قرائات ليلية تقطعها رغبة مريض بالنوم ،إعادة التأهيل البصري اللازم حتى أستطيع العمل حتى السادسة صباحا منتظرا ضوء الصحراء . بعض أصدقائي اتهمني بالجبن لأنني لم أعلن عن إنشاء تنظيم جديد في المنفى .لكن البلاد ليست عقيمة أيضاً كما يريد النظام الدكتاتوري ، ولذلك انطلقت نقاشات واسعة النطاق لتشكيل منظمة لحقوق الإنسان .لم تفلح الاتصالات الّتي جرت مع وسطاء عرب لتأسيس منظمة قانونية ،فقرر مجموعة من الأشخاص تأسيس منظمة سرية ريثما يمكن لها العمل بشكل قانوني .في بلاد يوجد فيها أكثر من ثمانية عشر الف معتقل سياسي وثلاثة آلاف مفقود ،لا يمكننا الإنتظار إلى الأبد لكي نفعل شيئا وخصوصا أنّ التغييرات الّتي حصلت في الدول الغربية ماثلة أمامنا كمثال حي .

AMARJi أمارجي

في 1989/10/12، وبعد اجتماعات استمرت ثلاثة أشهر، عقدها شخصيات من مختلف الانتمائات والطبقات الاجتماعية، الثقافية، المهنية، أبصر النور في دمشق بيان إعلان تأسيس لجان الدفاع عن الحريات الديمقراطية وحقوق الإنسان في سوريا (CDF). جاء فيه:

"إيماناً منا بالضرورة الحيوية للديمقراطية من أجل التطور الثقافي والإجتماعي، وإيماناً منا بوجوب احترام حقوق الإنسان، ولإيماننا الراسخ بأنه لا يمكن لمسيرة الحياة أن تتطور بشكل حقيقي بدون وجود حرية الرأي، حرية التعبير وحرية المعتقد، نعلن في هذا اليوم العزيز على قلوب الشعوب، العاشر من كانون الأول 1989، والّذي يوافق الذكرى الواحدة والأربعين لليوم العالمي لحقوق الإنسان الّذي أعلنته الامم المتحدة في العام 1948، نعلن تأسيس لجان الدفاع عن الحريات الديمقراطية وحقوق الإنسان في سوريا، منظمة اجتماعية غير سياسية، ومستقلة عن جميع الاحزاب السياسية، داخل البلاد كما في خارجها. تتعهد المنظمة باحترام مبادئ الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، العهد الدولي الخاص بالحقوق الإقتصادية والإجتماعية والثقافية، وذاك الخاص بالحقوق المدنية والسياسية، والعمل على نصرة هذه المبادئ. نعلن أيضاً عن انتخاب أمانة عامة مؤقتة، مكلفة بنشر هذا البيان وكتابة قوانين المنظمة....."

عندما دعاني الأصدقاء كنت على أتم الاستعداد للتلبية.

بدأت المنظمة بعمل شاق وجهد جبار داخل البلاد وخارجها: وضعت قوائم دقيقة لأسماء المعتقلين والمفقودين، أجرت دراسة عن النزعات الإستبدادية المختلفة في بنية السلطة،

نشرت صحيفة سرية، وزعت الميثاق العالمي لحقوق الإنسان وكانت تعدّ تقريراً سنويا الخ..

لم تكن المنظمة ظاهرة خارقة للعادة ولكنها كانت حالة فكرية، أردنا القيام بمبادرات أخرى تهدف إلى ترقية التعددية الإجتماعية وكنا غيورين جداً من استقلالنا هذا عن جميع الاحزاب السياسية، لأن هذه العلاقات في الماضي كانت تسبب لنا الكثير من الضرر.

بدأت منظمتنا تقطف أولى ثمار تأسيسها عندما قامت أجهزة الأمن بحملة اعتقالات واسعة جداً داخل البلاد بغية كسر المنظمة من الداخل. أجبرت حملة الإحتجاجات العالمية السلطة العسكرية على التحرك قليلا وتغيير طرق عملها حيث التقى ثلاثة ضباط المحامي أكثم نعيسة بعد أسبوعين من تعذيبه طرحوا عليه أسئلة، بطريقة ودية، عن طبيعة هذه اللجان. تحدث معهم وكأنه يشرح لمواطن عادي، شرح لهم كلّ شيء لأنه ليس لدينا ما نخفيه. وفي نهاية شرحه عرضوا عليه اتفاقاً: حل هذه اللجان مقابل إطلاق سراح ناشطيها. إن وجود منظمة للدفاع عن حقوق الإنسان في البلاد يمثل بالنسبة لهيثم ليس فقط شيئا ضروريا ولكن حيويا في غاية الأهمية بالنسبة لمستقبل البلاد. لقد ولدت هذه المنظمة في وقت كان فيه المجتمع يطالب بوجود سلطة تحميه من هذه السلطة التعسفية، سلطة مضادة لا تسعى وراء مكان لها بين الأحزاب السياسية أو عند السلطة من أجل مشروع أو طموح. لقد ولدت اللجان في لحظة كانت فكرة المواطنة فيها قد وصلت إلى نقطة هامشية لم تبق لها فيها سوى خيار البقاء على قيد الحياة، أو أن لا تعيش بعد الآن فهنالك الاختفاء، السجن، الملاحقة، المنفى، التسريح من العمل، المنع من النشر، أو المنع من السفر الخ... كل هذا كجائزة يومية.

أحالت السلطة الدكتاتورية سبعة عشر عضوا إلى محكمة أمن الدولة. حكم عشرة منهم من خمسة إلى عشر سنوات مع الأشغال الشاقة والحرمان من الحقوق المدنية. بعد التعبئة الّتي قمنا بها من أجل أصدقائنا، قبلت السلطة، وللمرة الأولى، بحضور محامية من اللجنة الدولية للحقوقيين يوم صدور الأحكام. لقد رأت آثار التعذيب الّتي بقيت ظاهرة على جسم أكثم ونزار نيوف بعد مرور ثلاثة أشهر. لقد قامت بتوصيف المحاكمة، الدوافع والانتهاكات. أشار رئيس المحكمة، نفسه، إلى المنشور الّذي تسبب في هذه الاعتقالات والإدانات، منشور رأي يتعلق بالاستفتاء وبإعادة انتخاب رئيس الجمهورية.

إنّ الحقائق معروفة لكنّ السلطة لا تتغيّر أبداً. وإليك الطريقة الّتي تكلمت بها السلطة عن المدافعين عن حقوق الإنسان في وثيقة سرّية مقدّمة إلى الأمم المتحدة:

"فيما يتعلق بالاتهامات الموجّهة ضد أعضاء ما يسمى لجان الدفاع عن الحريات الديمقراطية وحقوق الانسان في سوريا، إنّ الإدعاءات المتواصلة الواردة في تقرير اللجنة الّتي أفادت بأن هؤلاء الأشخاص أحيلوا إلى محكمة أمن الدولة العليا فقط لأنهم وقّعوا على وثيقة تشير إلى حقوق الإنسان ولأنهم انتقدوا الطريقة الّتي أجريت بها الانتخابات الرئاسية، إنّ هذه الإدعاءات مجانبة تماما للحقيقة. لقد تمّ توقيف هؤلاء المتهمين لارتكابهم عدّة جرائم من شأنها زعزعة الأمن الداخي والخارجي للدولة.

في الواقع، إنّ المطالب الّتي ينادون بها ليس لها هدف سوى إخفاء نواياهم وتحركاتهم السرية، ولقد وجدنا أن أغلب أعضائهم ينتمون لمنظمات نفذت أعمال إرهابية داخل البلاد، وقد نفذوا جرائمهم بالتنسيق مع هذه المنظمات. أضف إلى أنهم قاموا بتأسيس منظمة سرية، أطلقوا عليها تسمية "لجان الدفاع عن الحريات الديمقراطية وحقوق الإنسان" المقصود منها أن تكون غطاءا لتحركاتهم. تعمل هذه المنظمة غير الشرعية بشكل مخالف للأنظمة والقوانين ودون الحصول على الموافقة القانونية المطلوبة. ومن جهة أخرى، أظهرت التحقيقات تلقّيهم أموالاً من جهات خارجية بهدف تنفيذ نشاطات سرية من شأنها الإخلال بالأمن والسلم في البلاد وبهدف تلطيخ سمعة البلاد الدولية عن طريق نشر معلومات كاذبة ومزيفة، وأظهرت أيضاً تنفيذهم لجرائم أخرى تمسّ برئيس الدولة وبهيئات حكومية أدّت إلى قيام تمرّد مسلح. من المؤكد أنهم يملكون كميات كبيرة من المنشورات السرية الّتي تمس أمن وسلامة الدولة والّتي تمت كتابتها، نسخها وتوزيعها برعايتهم"

أيعقل أن تتّهم منظمة تضمّ بين أعضاء الشرف فيها كلاً من " إيف ديشزيل Yves Dechesells، إرنست ماندل Ernest Mandel، كوستا غافراس Costa Gavras، محمد حربي، ناصر بكدمان، فيوليت داغر، منصف المرزوقي وجيمس بول James A Paul، أيعقل ان تتهم منظمة كهذه بالإرهاب؟؟ حتى رئيس محكمة أمن الدولة وجد هذا المصطلح مهينا.

من خلال محاكمة أصدقائنا، استطعنا إثارة قضية الإعتقال التعسفي في سوريا. تم بمساعدتنا نشر أكثر من 27 تقريراً وكتابا عن سوريا خلال ثلاث سنوات. أقمنا شبكة اتصالات دولية مع أكثر من 120 منظمة غير حكومية حول العالم، قمنا بتركيب فاكس قبل أن تسمح السلطات بذلك في البلاد، نجحنا بالحصول على خط تلفوني تطوعي دائم لمدة ساعة كل يوم وقمنا باجتماعات في كبريات المدن الاوروبية. وقد ترافق كل ذلك مع رفضنا التام لقبول أيّة مساعدة من أيٍّ كان حتى لا ننتهك القوانين العرفية. لقد رأت هذه المنظمة النور في سوريا وفي الخارج على نفقتنا الشخصية فقط.

لكي نتمكن من إطلاق حملة تليق بالسجناء السياسيين في سوريا، ذهبت إلى البنك وأقفلت حساب توفير السكن خاصتي، ما سمح لنا بتنظيم أكثر من 18 مؤتمر في أوروبا. قالت لي فيوليت داغر الّتي كانت قد وضعت لتوها مولودتنا "نالا": إن تحرير السجناء في سوريا هو أمر اكثر أهمية من امتلاك شقة في باريس.

لقد قررنا أن لا يكون لدينا عدد أكبر من المعتقلين في الداخل، ولذلك قمنا بإيقاف كل المنشورات والنشاطات التنظيمية لكن بالتزامن مع إقامة شبكة معلومات قادرة على تزويدنا بالمعلومات الضرورية لنا وشبكة أخرى للترويج لحقوق الإنسان. شكلنا شبكة أخرى موازية، متزامنة ومستقلة عنا، كان الهدف منها دعم نشاطاتنا. استمرّينا بالقيام بأعمالنا ولكن دون أن نخلطها بالأوهام ودون أن نعتمد مطلقاً على الحكومات، لأن الوضع المعقّد في الشرق الأوسط كان يجبرنا على أن نأخذ بعين الاعتبار المعطيات المختلفة لكل واحدة من نشاطاتنا المختلفة. وهكذا كان لنا طريقتنا في التفكير فيما يتعلق بحقوق الإنسان بكونه مازال مشروعا غير مكتمل في عصرنا الحالي. كنا نعمل في السجون والمنافي على توفير وسائل الحماية المختلفة للمدافعين عن حقوق الإنسان وناقشنا ضرورة وجود توازن دقيق ومدروس على الأرض بين الحقوق الخمس: الاقتصادية، السياسية، المدنية، الإجتماعية والثقافية...

لقد استطعنا الحصول على اعتراف وطني ودولي على الرغم من وجود القمع الّذي يلاحقنا. وها أنا ذا في لجنة حقوق الإنسان في الأمم المتحدة لكي أثير مأساة بلادي:

"لقد ولد أكثر من ثلثي السكان السوريين بعد إعلان حالة الطوارئ وتكاثر قوانينها غير الشرعية وغير القانونية والّتي خلقت مناخا من الخوف، بل والرهاب المعمم.

" كتب لنا مواطن سوري ما يلي: أخاف أن أتكلم، أخاف أن أسمع، أخاف أن أمزح أو حتى أن أكون جدّيا. في الحقيقة، أنا خائف من أن أعيش. إن اعتقلت ذات يوم، يمكن أن يستمر اعتقالك شهر، سنة أو عشر سنوات.. لا أحد يمكنه أن يعرف. لقد تم اعتقال جارنا حكمت نصر الله مكان ابن عمه، تماما قبل أن ينهي الثانوية العامة، وبقي معتقلا 14 سنة... لقد تحطمت حياته ولا أعرف كيف مازال يحتفظ بعقله حتى الآن"

عند عودتي من جنيف وصلتني رسالة من صديق عزيز جداً:

" وأخيراً، سمعت لجنة حقوق الإنسان في الأمم المتحدة صوت المجتمع المدني السوري، ولكن صديقي، يجب عليك العودة إلى العمل السري لأن حياتك في خطر! انتبه، ستكون اتهامات قضية لجان الدفاع عن الحريات وحقوق الإنسان أنموذجا يحتذونه ضد 600 معتقل سياسي "

للوهلة الأولى لم أصدّق عيني!! أصدرت السلطة لتوها المرسوم رقم 10 الّذي يتعلق بالخصخصة، وستحاكم المعارضة حسب قانون حماية الثورة؟؟

بعبارة أخرى، إتهام الشيوعيين والاشتراكيين بتهديد نظام اشتراكي لا يمكن لأحد أن يجرؤ على أن يطلق عليه هذا الاسم.

إنّ التجمع العسكري الأمني الحاكم لا يعقّد الأشياء، وكما يقول " سيبستيان جيوديسلي Sebastien Giudicelli" (الكتابة الاستبدادية طبيعية، بسيطة وواضحة. المستبد لا ينظّر، بل يعتمد على نظرية موجودة مسبقا، يعمل على نظام غاية في الوضوح ومتاح للجميع).

لقد لخص الناس الّذين رأوا الواقع الّذي تجاوز الخيال بعبثيته، لخصوا حال المحاكمات غير القانونية الّتي تجري بكثرة من خلال حوار متخيل بين قاض وجلاد:

_ هل تعترف بانتهاكك الجسدي للمعتقلين؟

_ إذا كان السيد يحترم نفسه فبالتأكيد لا

_ وإذا لم يكن السيد يحترم نفسه؟

_ ليسامحنا الرب

هذه هي المرة الأولى الّتي يتجاوز فيها عدد المعتقلين المقدمين للمحاكمة أمام محكمة أمن الدولة 450 معتقلا وذلك منذ اعتقال والدي ورفاقه في 1970. بعض المعتقلين الّذين قدّموا للمحاكمة كانوا قد قضوا ثلاثة عشر عاماً من الاعتقال التعسفي، والبعض الآخر بعد سبع سنوات كان فيها بحاجة للعناية الطبية. لم يستثن المرض حتى أولئك المنسيين من حالة الطوارئ. 29 شخصا من المتهمين كانوا مصابين بأمراض خطيرة ولم يتلقّوا العناية اللازمة.

هذه هي المحكمة نفسها الّتي عيّنت المحامين وحدّدت مسبقا، في غرف مغلقة، مجموعة الإجراءات القضائية بلا شهود ولا مراقبين. كان رئيس رئيس المحكمة يعيد نفس الابتهالات الّتي قيلت في قضية نشطاء حقوق الإنسان والّتي تصلح لأن تكون مثالاً يحتذى، بينما لا تتغير الأسئلة بشكل فعلي: هل تنتمون لهذا الحزب؟؟ هل وزعتم مناشير هذا الحزب؟؟ الخ...

كانت الأحكام قاسية ومقتضبة، أدين اكثر من ربع المتهمين بأكثر من 12 عاماً في السجن. لقد كان موقف السجناء مثاليا، وقاموا بتحضير دفاعاتهم، بشكل جماعي أو منفرد، بلا أوهام

ولكن بكثير من الصفاء. إنّ النصوص الّتي قام المساجين بتحضيرها تشكل مجلداً كبيراً ومهما من تاريخ سوريا المعاصر. إليكم بعض المقتطفات من الدفاعات الّتي قام هؤلاء السجناء بتحضيرها والّتي تعطي فكرة عن طبيعة هؤلاء الأفراد المصنفين كمجرمين بحسب المجلس العسكري:

" باسم الحرية الّتي تمّ اغتيالها في بلادي منذ أكثر من ثلاثين عاماً على يد حالة الطوارئ والأحكام العرفية.

باسم كل اولئك الّذين حرموا من هذه الكلمة في أجسادهم، افكارهم وعقولهم.

باسم ابنتي الّتي لا تسطتيع خيانة طفولتها والّتي تؤمن بالشعارات الّتي أُجبرت على ترديدها كلّ صباح في مدرستها.

أعلن، كوني إنساناً شاعراً ومناضلاً سياسياً، أنّ الحرية هي القيمة العليا لفلسفة التاريخ الإنساني وأنني ضدّ كل أولئك الّذين يقفون ضد الحرية، حتى لو كنت أنا نفسي المقصود أو كان حزبي.

اكتسيت، كوني شاعراً وكوني سياسياً وقع في حب وطنه، بوطني حتى القصيدة الاخيرة.. إن هذا الّذي مزقته الديكتاتورية حين اعتقلت الشاعر في 1978 والمناضل في عام 1987، إنه وطني....

ليس هذا الوضع استثنائيّاً بالتأكيد ولا حالة فردية لأنّ الاضطهاد الصرف الّذي يمارسه الحكام على نطاق واسع هو العدالة الوحيدة الّتي يحاولون تطبيقها على جميع المحكومين. انا لا أتلاعب هنا بالكلمات لأنني اعلنها بصوت عال *إن من يحكم في سوريا هو قانون القوة وليس قوة القانون* لأنه وخلال ثلاثين عاماً كانت الأنظمة المتتابعة تحكم بقوة الدبابات وبفضل الانقلابات العسكرية وليس عن طريق الانتخابات ما يعني عدم شرعيتهم وعدم شرعية كل القوانين والمؤسسات الّتي فرضوها علينا، ومن بين هذه المؤسسات محكمة أمن الدولة الّتي أمثل أمامها أنا الآن وأحاكم كمتهم، والّتي أحترم أعضائها كأفراد ولا أحترمهم كمسؤولين عن مؤسسة استثنائية.(..)

من الواضح أنه من الصعب عليكم استيعاب ما أقول، لأنكم لم تجربوا التعذيب بالكرسي الالماني (أو بالأحرى النازي لكي لا نظلم كل الألمان)...

نعم، أنتم لا تعرفون هذه الكراسي.. أنتم لم تروا دموع الأم الّتي كانت تزور ابنها بعد خمس سنوات من الاعتقال. كيف لكم أن تفهموا ما تعنيه دموع السيدة الّتي زارت ذلك المعتقل بعد

10 سنوات من اعتقاله وسمعته يقول لها "يا أمي"، بينما لم تكن هي الا شقيقته و أمه كانت قد (..)

ستخجل أجيال المستقبل من هذه الصفحات السوداء في تاريخنا.

أطالب بمحاكمة مدنية وبوجود صحفيين ومنظمات غير حكومية ومنظمات حقوق الإنسان وأطالب بوجود شهود قادرين على تمييز من يحاكم من؟

وإلا، فإن اتهاماتكم لا معنى لها وأحكامكم غير مبررة(..)

أشكر أمي الّتي علمتني أن الحرية الّتي تسكننا أقوى من السجون الّتي نسكنها.... ولذا فإن الحرية ستنتصر"

(*فرج بيرقدار، معتقل منذ العام 1987 لانتمائه لحزب العمل الشيوعي. حكم عليه بالسجن 15 عاماً).*

" سادتي،

يبدو أننا نعيش في مرحلة يجب على الضمير فيها أن يتنحى وعلى العقل أن يتقلص...

قبل الشروع ببحث مسألة شرعية محكمتكم، أودّ ان أشير إلى جانبين من جوانب هذه المحاكمة:

الأول أمني، لأنكم تطلبون منا الاستقالة من أحزابنا ومن الحياة السياسية؟

والثاني سياسي لأن هدفها هو الديمقراطية وحقوق الإنسان.

محكمتكم تلغي حقوق المواطن في التعبير عن آرائه وتمنعه حتى من أن يقول رأيه على الرغم من وجوده في مؤسسة أنشأتها السلطة.

أنتم تحاكموننا اليوم بعد مرور 12 عاماً من الاعتقال، التعذيب والاضطهاد الجسدي والأخلاقي الّذي لن أتحدث عنه، لأنه حتى المواطن العادي لا يستطيع سماع تفاصيله، لقد سمع كثيراً عن هذا وعن الاضطهاد والسجون حتى أصبح خبزه اليومي الّذي مافتئ يدعوه إلى التقيئ.

أليس من المضحك المبكي رؤية الشيوعيين والديمقراطيين الآخرين يتهمون بمحاربة الوحدة والحرية والاشتراكية؟ على الرغم من كل سنوات النضال من أجل الديمقراطية

والاشتراكية؟؟ لقد تبنينا منذ العام 1979 في مؤتمرنا مبدأين أساسيين هما : الاستقلال كحزب والديمقراطية...

إن الديمقراطية هي حق النقاش، حق كونك مختلفا، حقك في التصويت، في أن تنتقد وأن تعبر عن آرائك المختلفة... هذه الحقوق الّتي تشكل مجتمعا يكون الإنسان فيه هو القيمة العليا وتكون المواطنة وحقوقها متاحة لكل الأفراد.

إنّ السؤال الّذي يجب عليّ أن أطرحه عليكم هو: في كل محكمة يوجد تسجيل شخصي لكل المتهمين الّذين تحاكمهم المحكمة، لو راجعتم تاريخ كل معتقل على حده ستجدون أن المعتقلين يتصفون بصفتين هما: الكفاءة والشرف، سواء في حياتهم المهنية أو على المستوى الاجتماعي والانساني.

وهذا يوضح لكم نوعية المواطنين الّذين تحاكمونهم وماهيّة المستفيدين من أحكامكم.

سادتي،

إنّ الأمة الّتي لا تستشرف المستقبل ولا تعمل من أجل المستقبل.... ليس لها مستقبل. "

" كان هذا جزءا من دفاع الاستاذ عبد الكريم عيسى العضو في الحزب الشيوعي، المكتب السياسي الّذي اعتقل تعسفيا منذ 1982/5/3 وحكم عليه بالسجن 14 عاماً "

د. فايز الفواز، الوفي لنفسه، أجاب على الأحكام من خلال نقاش تمّ قبل الجلسة أثار فيه مسألة النهضة: إنّ الإنسان هو مركز الثقل في أي مشروع نهضوي، حريته وكرامته تشكلان فيه أساس التفكير لأن النهضة الحقيقية هي نهضة الإنسان. إنّ الحرية والكرامة والازدهار تتطلب أيضاً إلغاء استغلال الإنسان لأخيه الإنسان... وتبقى الاشتراكية هي مشروع مستقبلنا(..) أضف إلى أن فصل الاشتراكية عن الديمقراطية تعني نهاية أية تجربة إشتراكية.

أثار فايز مسألة الديون الخارجية (الّتي ارتفعت لتصل اليوم إلى 110 مليار فرنك فرنسي)، إرتفاع الأسعار الجنوني بشكل غير مدروس، إفقار السكان، الفساد، الجريمة، عودة العلاقات العضوية والخسائر الفادحة في الدخل القومي وذلك من أجل تطبيق قاعدة بسيطة "السلطة هي صوت الثروة والثروة هي صوت السلطة". تحدث فايز عن مسرحية مايسمى جبهة السلطة الوطنية الّتي وقعت بيدها على تخليها عن كل انشطتها السياسية الحقيقة بهذا الاسم. شدد على دمقرطة البلاد وأنهى دفاعه بملاحظة تفاؤلية: إن التغيير هو المطلب الأساسي في الوقت الحاضر، وتأخيره لعام أو عامين سيزيد من قوة مجيئه. يمكنكم أن تكموا أفواه هذا الشعب عقدا أو عقدين من الزمن لكنه يوماً ما سينهض لا محالة.

أثار محمد نزار المرادني، بعد دفاع سياسي قانوني، أكثر اللحظات المؤثرة في مداخلته، تلك الّتي تتعلق بالإنسانية الجريحة:

"في فجر 1986/12/7، داهمت دورية مؤلفة من عدة ضباط "ذكر اسم اثنين منهم" وعدة عناصر من الفرع 235 فرع فلسطين "مركز الاعتقال في دمشق"، داهمت بيتي بغية اعتقالي، وعندما لم يجدوني في المنزل قاموا بضرب زوجتي أمام طفلتها الصغيرة ذات الأربعة أعوام ثم اقتادوها إلى فرع فلسطين وفصلوها عن ابنتيها الّلتين لم يكن عمر الصغرى فيهما يتجاوز الشهر.(...) تمت مصادرة المنزل وتعرّض لعدة سرقات من قبل عناصر المخابرات، الأمر الّذي علمته زوجتي عند عودتها إليه بعد عدة أيام. مارست السلطة ضغوطا على مالك المنزل لكي لا يفي بالتزاماته معنا ولكي يطرد عائلتي من المنزل. أطلب من محكمتم تقييم الأضرار الناتجو عن الطرد القسري الّذي تعرضت له زوجتي وطفلتاي.

لقد تعرضت لتعذيب وحشي منذ اعتقالي في 1987/9/19 لكي ينتزعوا مني المعلومات. جلدوني وعذبوني على الكرسي الألماني، حرقوا أجزاء من جسدي بالأسيد وسحقوا أصابعي. عذبوني نفسيا وجلدوني وكالوا الشتائم لأمي ثم أحضروها وهدّدوا بتعذيبها أمامي. وجهوا إلي بعد ذلك اللكمات والرفسات فكسر أنفي جراء ذلك. ثم باعدوا بين أقدامي بشدة حتى كسروا لي عظام الحوض. ظل الاستجواب مستمرا مع كل هذا التعذيب وماهي إلا ستة أيام حتى تمّ نقلي إلى المشفى للعناية بعظامي المكسرة. أخرت المخابرات عملية علاجي طيلة ثلاثة أيام كاملة. أعلن الأطباء بأنني كنت بحاجة علاج في المشفى لشهرين متتابعين على الأقل. ما إن بدأ العلاج حتى أوقفته المخابرات من خلال عدة محاولات من الضغط قام بها الضباط على الطبيب المشرف على علاجي. انتهى الأمر بالطبيب إلى الاستسلام بعد حوالي ثلاثة أسابيع... وأوقف علاجي قبل أن يكتمل. غادرت المشفى في 1987/10/22 بعاهة دائمة. استمر الاضطهاد في سجن تدمر أربع سنوات دون أن يسمحوا لي بتلقي العناية الطبية".

أيعقل أن يحكم مرادني بخمسة عشر عاماً في السجن؟ ويبقى جلادوه طليقون يتابعون ممارسة عملهم القذر؟؟

لقد أثارت مداخلات الديمقراطيين الأكراد ومحاموهم القضية الكردية بشكل أفضل وحاولت التعريف بمطالب الأقلية الكردية في سوريا. أخذت مسألة "الحرمان من الجنسية" الّتي تمسّ أكثر من 150 ألف كردي أولوية بالغة الأهمية، حيث أثار جميع المساجين هذه القضية ونتائجها الغير إنسانية ومنها: الحرمان المطلق من أية ملكية للأراضي أو للعقارات، الحرمان من العمل في قطاعات الدولة، الحرمان من بطاقات الحصص الغذائية، رفض

تسجيل زيجاتهم وأطفالهم في الدولة بشكل طبيعي، الحرمان من الحقوق المدنية والسياسية، منع السفر، إلخ....

كل ذلك مازال مستمرا منذ العام 1962 حيث صدر قانون المرسوم الّذي حرم جزءا مهمّا من الأقلية الكردية من الجنسية السورية. تعدّ هذه القضية واحدة من أكثر القضايا إلحاحا بالنسبة للمدافعين عن الحقوق الإنسانية.

حكم فاتح وأصلان بالسجن 15 عام، ماجد حبّو 14 عام، مصطفى فلاح وخليل برايز وهيثم نعال أمضوا 27 عاماً في المعتقلات، عماد الشيحة قضى 32 عاماً من حياته في المعتقل على الرغم من جميع مراسيم العفو الرئاسية. في يوم وفاة الرئيس حافظ الاسد كان يقبع حوالي 2800 سجين سياسي في السجنون السورية، وكانوا يشكلون جزءا من حوالي 43000 شخصا عرفوا الإعتقال التعسفي في ظل حالة الطوارئ. يمكنني القول، لسوء الحظ، أنّ عدد الناجين من بين 3000 مفقود لا يتجاوز المئات.

في المهجر، كنت أشكل جزءا من منفيي الرأي الّذين يشكلون 2% من سكان سوريا.

إنّ اكتشاف آليات عمل الأمم المتحدة سمح لنا بالتعريف بسيمفونية البؤس الّتي يعزفها التجمع الأمني العسكري الحاكم وإيجاد بعض الاجوبة لآلاف الاسئلة الّتي تطرحها عوائل المفقودين، ولكن كذب السلطة كان يطغى في كل مرة كانت تعرض فيها إحدى مآسي سورية على الملأ:

أجابت السلطات السورية في مراسلات سرية عن سؤالنا فيما يخص المهندس مضر الجندي المولود في العام 1958، متزوج له طفل واحد، فقد منذ العام 1987:

" تم توقيف الشخص المطلوب في 20 أيلول عام 1987 بسبب انتمائه لمجموعة إرهابية كانت قد ارتكبت ممارسات عنيفة ضد مواطنين قامت باختطافهم واحتجازهم في أماكن سرية بغية إخضاعهم لاضطهاد جسدي أدى إلى تشوهات لديهم. اتخذت العدالة مجراها بحقه في 24 آذار عام 1988ثم مات بعد ذلك".

كيف مات مضر؟

نحن نتسائل كيف لرجل ينتمي لمجموعة إرهابية كانت قد ارتكبت ممارسات عنيفة ضد مواطنين قامت باختطافهم واحتجازهم في أماكن سرية بغية إخضاعهم لاضطهاد جسدي أدى إلى تشوهات لديهم، كيف له أن يبقى أمره سريا دون أن يتحدث عنه أحد بعد كل هذه الفظاعات الّتي ارتكبها والّتي، وحتى يومنا هذا، لم تعلن السلطات عنها أبداً؟

ولد مصطفى أبو قوس تحت حالة الطوارئ وفقد منذ العام 1983، وهذا هو جواب السلطات السورية فيما يخصه: تم توقيف الشخص المطلوب في 17 نيسان 1980 لانتمائه لمجموعة إرهابية مسلحة كانت قد قامت باغتيالات وهجمات وتفجيرات في سوريا. اتخذت العدالة مجراها بحقه وحكم عليه بالإعدام.

لدينا أدلة تشير إلى أن مصطفى نجح في امتحان البكالوريا وانتسب إلى جامعة حلب قسم رياضيات-فيزياء-كيمياء بعد هذا التاريخ، حتى أنه كان يمارس الرياضة في أحد النوادي الموجودة في الحي إلى أن تم توقيفه في العام 1983. لم ينتسب مصطفى طيلة حياته لأي تنظيم سياسي (مسلح أو سلمي). ألم تحاول السلطات تغيير تاريخ اختفائه لتشبيه حالة اعتقاله بحالات اعتقالها للإسلاميين إبان الصراع معهم؟

وها نحن الآن أمام مئات الملفات ذات الأوضاع السيئة جداً، رسائل تصلنا من السجون ورسائل مفصلة حول انتهاكات حقوق الإنسان في البلاد. أحيانا نتوقف أمام ضحية جديدة دون أن نتمكن من قول كلمة واحدة. منذ أربع سنوات، ووجه الدكتور نور الدين الاتاسي، الرئيس السوري الأسبق الّذي مات في المشفى الأمريكي الواقع في (نويي سور سين،Neuilly sur Seine) في باريس، أربع سنوات ووجهه لا يفارقني في كل مرة أحضّر فيها بيان أو أقوم بكتابة رسالة. لم يكن هو ذلك الرجل الّذي رأيته في التلفزيون قبل 22 عاماً، قبل اعتقاله تماماً. مريض أنهكه السرطان واثنين وعشرين عاماً قضاها في المعتقل دون اتهام أو محاكمة. لقد تطلب إطلاق سراحه وتلقيه عناية طبية، كانت متأخرة جداً، تدخل شخصيات ذات وزن ثقيل في تلك الحقبة. لم يتفوه بكلمة واحدة عن نفسه، عن اعتقاله أو آلامه. أمسك يدي وقال لي: "أنقذوا الآخرين، فكروا بهم، نحن لم نقم بما يكفي أبداً لإغلاق باب القمع بشكل نهائي".

هل يمكننا التفكير بالمخاطر أو بالأحرى التفكير بأنفسنا؟ إن حياة الآخرين مهمة أيضاً بنفس القدر، كرامة الآخرين تخصنا جميعاً، كيف يمكن لنا إغلاق أعيننا؟؟ كيف يمكننا أن ننسى وأن لا نفعل شيئا؟

أحيانا انظر إلى السماء لكي أجيب نور الدين: أبو عبده، هل يمكنني نسيان وصيتك؟

" صديقي العزيز

علمت بانتخابك نائباً لرئيس الفدرالية الدولية لحقوق الإنسان من راديو مونت كارلو"الشرق الاوسط". أنت تعلم بأنّها المرّة الأولى الّتي يتم فيها انتخاب شخص سوري في قيادة هذه المنظمة الدولية، إنها مسؤولية كبيرة ونحن فخورون بك جداً. لكنني أخاف من أن يحرمك التزامك الجديد من تخصيص وقت كاف لسوريا. لا تنسى أنّ رفاقك مازالوا في السجن

ومعهم 3000 معتقل. لقد قمت بعمل عظيم كان من شأنه إجبار السلطة على تغيير كيفية تعاملها ولكنه لم يغير طبيعتها. يتوجب عليك المثابرة في النضال دون كلل لأنك ربحت معركتين أو ثلاثة ولكنك لم تربح حربك الّتي تخوضها للوصول إلى دولة مواطنة وقانون في سورية. إنّ الدينامية الداخلية الآن في أدنى مستوى لها ومن المؤكد أنه مازال بإمكان الضحايا أن يعوّلوا عليك. لقد أعادت السلطة ترميم صورتها منذ حرب الخليج واتفاق مدريد وماتزال مهمتك بالغة الصعوبة لغاية الآن. تذكر حلم الأمس "تحويل السجون إلى منتزهات عامة".

ستشرق الشمس من جديد، إن الآن أو لاحقاً، على هذا الجزء من العالم وأتمنى أن يبقى بعض الأحياء من جيلنا لكي يشاركوا في هذا العيد "

إنّ الرفاق في الداخل هم مصدر تمويلنا بالمعلومات والوثائق. إنهم يشكلون مصدر اتصالنا مع الحياة اليومية في البلاد، لإنّ سنوات المنفى تتوالى ولا يمكننا أرتكاب اخطاء من شأنها أن تستغل من قبل السلطة للإسائة لقضيتنا. ولذلك كنا نستخدم دائماً تقارير، رسائل مفصلة، صور، شرائط تسجيل وشرائط فيديو في كل مرة يتطلب الأمر منا استخدامها.

هذا جانب من أحد رسائل التقارير الّتي كتبت من قبل سجين رأي كان يمارس دوره كمدافع عن حقوق الإنسان في السجن:

" أصدقائي الأعزاء

إنّ سجن صيدنايا هو قلعة حقيقية مبنية على شكل مثلث يتألف من ثلاث طوابق، كل طابق يضم ثلاثة أجنحة وكل جناح يضم 20 عنبرا. ما يجعل العدد الإجمال للعنابر هو 120. يوجد في كل مهجع من8-10 أشخاص مع قدرة استيعاب 22 معتقلا كحد أعلى. وبذلك يمكن لهذا السجن أن يستوعب 3-4 آلاف معتقل. خطط لبناء مسرح فيه ومكتبة ومطعم ولكنها لا تعمل جميعها.

تفتح أبواب العنابر في الساعة 7 صباحا وتغلق الساعة 19:30 ليلا في الصيف وفي الشتاء 16:30. يمكن المشي في الممرين الّذين يمتد كل منهما بطول 65 مترا. يوجد أيضاً ساحة صغيرة يمكن الوصول إليها مرة أو مرتين في الأسبوع للتنفس. يمكننا أيضاً لعب الورق، الشطرنج وقراءة الصحف الرسمية(الثورة،تشرين والبعث) الّتي توزع يوميا. ينام المساجين على الأرض مع غطاء لكل واحد منهم.

أما بالنسبة لظروف الاعتقال، فقد لاحظنا وجود تحسن عام يعزى بالتاكيد إلى الحملة العالمية لحقوق الإنسان الّتي قامت بها لجان الدفاع عن الحريات الديمقراطية وحقوق الإنسان. انخفض معدل الشتائم كثيراً وأصبح الحراس يبدلون نوباتهم مرتين يوميا.

نوعية الغذاء تشبه تلك الّتي تقدم للجنود في الجيش، أحيانا يقدمون لنا الخضار النيئة وكذلك بعض الشاي والسكر ويمكن لنا أن نطبخ باستعمال فرن صغير.

في حال تمت مصادرة رسالة رسمية أو قام أحدهم بارتكاب مخالفة فإن العقاب يطال كامل المجموعة وليس فقط السجين المخالف.

يلتقي مدير السجن المعتقلين ويتناقش معهم حول وضعهم والمشاكل الموجودة في السجن، وهذه طريقة تعامل حديثة العهد بالدولة السورية.

فيما يتعلق بالمشاكل الصحية فإن الأطباء المساجين يتولون بأنفسهم العناية الطبية بالمرضى السجناء.

أما فيما يتعلق بالأدوية فيمكن لنا الحصول عليها إمّا عن طريق العائلة أو، مرة كل شهر، من خلال إدارة السجن الّتي تسلمنا قائمتين شهريا: الأولى تضم مشتريات الخضار والبيض والثانية تضم المشتريات المختلفة.

يتم نقل الحالات الصحية الصعبة إلى المشفى العسكري في التل أو إلى مشفى تشرين عندما يتعلق الأمر بالحالات المستعصية وخلال هذه الاوقات تستمر معاملة السجناء بشكل سيء للغاية في مشفى التل الّتي يغلقون فيها الأبواب على السجناء المرضى بالأقفال مقيدين أرجلهم بالسلاسل، تاركين لهم مهمة تدبر أمورهم بأنفسهم دون أية مساعدة من أحد.

إن الشتاء قاس جداً في سجن صيدنايا، تعمل التدفئة المركزية ساعتين أو ثلاثة في اليوم، هذا في حال أريد لها أن تعمل، وإلا فلا شيء للتدفئة طيلة أيام وأسابيع. أصبحت حالتنا تمثل بؤسا حقيقيا، تثير الضحك أكثر من كونها تثير الشفقة لأننا نبحث عن ملجأ لنا فيما تبقى من الأغطية والبيجامات والحقائب والأشياء الأخرى من خلال تحويلها إلى أغطية وملابس لكي نحصل على قليل من الدفء.

تختلف معاملة السجناء باختلاف الأبنية، (بعض الأجنحة تسمح فيها الزيارات دون البعض الآخر) وعندما يكون هنالك عقاب فإن السجين ينقل إلى مبنى الاستجواب ".

لم يعد السجن، العزل والتعذيب ناجحاً في تكميم أفواه الإنسان الحر في هذا البلد الصغير الّذي يدعى سوريا، لكنه ترك آثاره على وجوه أطفالنا وعلى حائط الصمت الّذي يبكي

الضحايا، على طرائق عمل الديمقراطيين الّذين أجبروا على إنقاذ ما يجب إنقاذه وعلى أخذ الجانب الأمني بعين الإعتبار.

كم من السنوات من تاريخ سوريا أهرقت بسبب حالة الطوارئ وقوانينها؟ رجال عصاباتها، مفسديها وجلاديها.

أردت الحديث في 1996/3/17 عن هذا الجانب من حالة الطوارئ في المؤتمر العالمي الّذي نظمه كل من الاتحاد الدولي لحقوق الإنسان، لجان الدفاع عن الحريات الديمقراطية وحقوق الإنسان وجمعية الحقوق الإنسانية، في باريس:

" أصدقائي الأعزاء

سأقتصر في حديثي إليكم على بعض التداعيات الّتي سببتها حالة الطوارئ في حياة أحد الأفراد اليومية. هي باختصار تنهدات لكائن يشبه المواطن في مكان يشبه الوطن، مكان عرف حالة الطوارئ قبل حتى أن يعرف دولة القانون، كائن وجد نفسه محاصرا بقوة الأشياء الّتي دفعته للدخول إلى عالم حقوق الإنسان. كائن شبه مواطن تردّد كثيراً على ساحات المنظمات الدولية تحت اسم مستعار على الرغم من معرفته أن هذه الساحات لم تكن ماسونية أو طائفية. هل من الممكن بالتالي أن يناضل من أجل حقوق الإنسان على الرغم من عدم كونه سوى شبح بلا بطاقة شخصية وبلا أذن سفر. نحن نستطيع أن نصل إلى الدول العربية بلا تأشيرة ولكننا نتوجه مباشرتا إلى مكتب أمن الدولة لنخضع للاستجواب، في مرحلة سابقة لأي عمل تقوم به أي بعثة إنسانية أو لأي مؤتمر نشارك فيه.

كائن شبه مواطن يشرح لمهاجرة شبه مواطنة معنى منظمة حقوق الإنسان، ومعنى مكتب تلقّي شكاوى من أشخاص تعرضوا للاضهاد على يد أشخاص آخرين، لكنها تجيبه: أنت تمزح بالتأكيد!! لماذا إذاً يمنع هؤلاء الأشخاص "قديسوا العصر الحديث، من التدخل في سوريا؟؟

لنتكلم بصراحة وبصوت عال، نحن لا نتمنى لأي مخلوق أن يعيش تجربة أي شكل من أشكال النضال الّتي خضناها، نحن لا نريد حتى أن نفكر بأنه يمكن للآخرين أن يغاروا منا من أجل ذلك. نحن نرفض أن تصبح تجربتنا مثالا يحتذى به لأنه في حالتنا كان الجلاد هو من يقرر مكان إقامتنا، المجالات الّتي نتدخل بها، أولويتنا في العمل، حدود علاقتنا مع

الداخل في البلاد ويفرض علينا طريقة عملنا الّتي يجب علينا قبولها لأن خيارنا هو إما ان نكون احياء تحت هذا الوضع وإما ان لا تكون احياءاً أبداً.

بكلمة واحدة، تجربة نضالنا ليست للعرض ولكنها موجهة لكي تحفظ في الأرشيف ونحن نعول على اعتبارها معلما للعلوم الطبيعية الّتي تصف الحيوانات وهم في طريقهم إلى الإنقراض. ماذا يمكننا القول في الوقت الّذي تمنعنا فيه الضرورات الأمنية من الكشف عن مبادئنا وطرائق عملنا بغية البقاء على قيد الحياة حتى ذلك اليوم الّذي سترفع فيه حالة الطوارئ.

لقد ترك النظام الاستبدادي المزمن بصماته على كلّ مكوّنات المجتمع دون استثناء، ومن ضمنهم نشطاء حقوق الإنسان. حتى لو لم تستطع السلطة قتل الاخلاق في قلوب البعض منهم إلا انها أثرت على طريقة عملهم وتصرفاتهم، وباتت قادرة على شل حركتهم في كل مرة تضرب فيها رموزهم وقادتهم.

هكذا بات همّ النشطاء مكرسا لكيفية إنشاء شبكة معلومات لا يشك بأمرها من قبل قوات الأمن وإنشاء محيط من الأصدقاء قادر على حماية النشطاء وأيضاً وسائل تبادل معلومات بين الداخل والخارج ناهيك عن كلمات سر يصعب حلها من قبل المخابرات العامة، بات همّهم محصور في كل هذه الأمور بدل أن يستغلوا ذكائهم لابتكار وسائل تواصل ثقافية ومعرفية من شأنها دعم المواطنين بشكل إيجابي.

لقد تعلّم النشطاء في ظل حالة الطوارئ، بالتأكيد، آليات عمل الأمم المتحدة وكل الأمور التقليدية في هذا المجال، ولكن يجب عليهم قبل ذلك البدء بتعلم كيفية حماية أنفسهم وإبعاد خطر السجن الّذي من شأنه شلّ القدرات الخلّاقة للفرد ولمحيطه. إن السلطة الاستبدادية المزمنة تخلق نوعا من التطهير العام الّذي يتصف بشكل أساسي بقدرته على إلغاء المقدرة الانتاجية، على نطاق واسع، عند النشطاء والمدافعين عن حقوق الإنسان الّذين لم يتبق لهم بدورهم مايخسرونه أبداً بعد الثمن الباهظ الّذي دفعوه ثمنا لطموحهم الذي يسمونه "الحرية".

عندما لم يعد يتعلق الأمر بالسعي وراء نفحة من الهواء المنعش أو شكل من أشكال تنسيق مع النشطاء كان حل السلطة البديل هو التضييق على الفرد من خلال جعله يتنكر لذاته ويخون ماضيه ومحيطه وجعله غير فعال متعلقا بالاعذار، ومن أراد غير ذلك فمصيره الذل والمهانة.

لقد أجاب أحد الأصدقاء على هذا السؤال الّذي طرحه عليه المحقق خلال الاستجواب "لماذا تساعدهم؟ ألا تخشى العودة إلى السجن مرة أخرى؟" كان جوابه كالتالي " تستطيع أن توجه هذا السؤال إلى الاحياء، لكن أنا.. قد قتلني السجن حقاً وإنه من الصعب أن يموت الإنسان مرتين".

لقد باتت حالة الطوارئ المزمنة تشكل القناع القانوني الأخير الّذي يرتديه نظام يحتقر القانون ويعجز عن تحقيق الشرعية لنفسه.

لقد اشترك المهندس سليم خير بك في العام 1980 في إضراب ليوم واحد فدخل السجن على إثره وعندما خرج منه بعد اثنتي عشرة سنة قضاها دون محاكمة قامت الشركة العامة الّتي كان يعمل بها في السابق برفض عودته إلى العمل بسبب عدم حصوله على موافقة أمنية من أفرع المخابرات. في الوقت ذاته، كان من المستحيل بالنسبة له الدخول في القطاع الخاص بالنظر إلى وضعه. كيف سيستطيع هذا الإنسان أن يعيش؟

عندما أعطت اللجنة الطبية، الرسمية جداً، رأيها القاضي بضرورة الإفراج عن المحامي مصطفى حسين بسبب الاضطرابات النفسية الخطيرة الّتي أصابته بعد 13 عاماً من الاعتقال أجابت اللجنة العسكرية بأن حكمه سينتهي في خريف العام 1997 ثم تم اقتياده إلى سجن تدمر كعقوبة قصوى.

في العام 1994، اشترى معتقلو سجن صيدنايا، بواسطة حراسهم، أجهزة تلفزيون صغيرة دفعوا سعرها أضعافا مضاعفة من جيوبهم وجيوب عائلاتهم لكي يخففوا بهذه الطريقة من آلامهم ويبقوا على تواصل مع الخارج. لم يكن لدى هؤلاء المعتقلين أدنى شك بانه بعد عدة أشهر، 2 آذار 1995، سيصادر الحراس أنفسهم هذه التلفزيونات بحجة منعها مما زاد من مكاسب هذه التجارة السوداء دون أن يستطيع أي أحد من المعتقلين إظهار معارضته واستنكاره.

تبذل السلطات الإستبدادية أقصى ما تستطيع لتهميش الحريات وتعقب من بقي من المدافعين عنها داخل البلاد وتسعى أيضاً للبحث عن وسيلة تبقيها على قيد الحياة مهما كان الثمن. هانحن ذا، عشر سنوات مضت على السماح لدور النشر الخاصة بالعمل، تطبع سوريا فقط 34 كتابا في السنة بينما تطبع بيروت الّتي عانت من الحرب 1358 كتابا. حتى عندما يكون الإنتاج الفكري مسموحا فإن مهمة الرقابة توزع على عدة مؤسسات مختلفة: حزب البعث مسؤول عن المواضيع الدينية والسياسية، إتحاد الكتاب مسؤول عن الكتب الأدبية، وزارة الشؤون الدينية مهمتها مراقبة المواضيع الّتي تمس الدين، المواضيع العسكرية هي من اختصاص كل من وزارة الدفاع والإدارة السياسية، المواضيع التربوية تبقى مهمة وزارة التربية وأخيراً تهتم وزارة الإعلام بكل المواضيع المتبقية.

لم يعد لمذكرة التوقيف أية حاجة أو معنى في ظل حالة الطوارئ لأن الحكم على أي شخص يمكن أن يبدأ مباشرة بعد الانتهاء من تعذيبه ويمكن إعدامه بعد عدة أيام اخرى تماما كما حصل مع أعضاء المنظمة الشيوعية العربية. يمكن أيضاً تنفيذ الإعدام بحقهم ميدانيا كما حصل في حالة الإخوان المسلمين، أو الشروع في المحاكمة بعد أربعة عشر عاماً من الاعتقال وإصدار حكم بالسجن لخمسة عشر عاماً دون احتساب الفترة الّتي قضاها المعتقل في السجن. أما فيما يتعلق بمسببات الاعتقال فإنها تبدأ من قراءة صحيفة وصولا إلى الانتماء لحزب سياسي من اليسار المحظور. حتى أن مجرد وجود نشطاء المقاومة المدنية يزعج السلطة بكل تاكيد.

إن كانت السلطة السياسية قد عملت على تهميش أية مبادرة وأية حركة سياسية، إجتماعية، قانونية وحتى رياضية، خلال 12 عاماً، فذلك لأن وجود منظمة لحقوق الإنسان، خارج إطار المصطلحات، يعني قبل كل شيء بأن هنالك مؤسسة ديمقراطية منفتحة ستنشأ دون وجود الإمكانية السيطرة عليها ومراقبتها، لكنها بالأحرى ستكون تعبيرا حرا ومستقلا عن مجتمع بقي مخنوقا لفترة طويلة جداً... وهذا ليس لأن ذلك سمة من سمات عصرنا فقط ولكنها واحدة من حاجاتنا الأشد إلحاحا.

من جهة أخرى، فإنه ليس للحاكم ولا للمحكوم على حد سواء إلا التسليم بأنه لا يمكن للقمع أن يكسر دائماً صوت حقوق الإنسان لأنها تمثل انعكاسا لحركة اجتماعية تاريخية لا تعتمد على الأشخاص أو المنظمات لكنها تنطلق من حاجة المجتمع المخنوق لإيجاد انتمائه وحاجة المواطن المتعطش للحقوق الاقتصادية، الاجتماعية، الثقافية، السياسية والمدنية والّتي تم انتهاكها على نطاق واسع.

في 27 نيسان 1996، اليوم الّذي يصادف الذكرى التاسعة عشر لخروجي السرّي من سوريا، استقلّيت الطائرة المتوجهة إلى واشنطن بصحبة صديقي المنصف المرزوقي لتلبية دعوة من الأكاديمية القومية للعلوم. في يوم 28 نيسان، كانت لنا لحظات عاطفية جداً، لحظات خاصّة جداً بالنسبة لشخصين عربيين مدافعين عن حقوق الإنسان يتم تقديمهما من قبل رمز عظيم من رموز المقاومة والعلم " فرانسوا جاكوب Francois Jacop" ويتم تكريمهما من قبل رمز آخر من رموز الطب وحقوق الإنسان " تورتسن وايتسل Tortsen Wieseh".

قال لي منصف، في الليل عندما كنا نمشي بالقرب من نهر "بوماك" بأنه يرغب بالبكاء

_ لماذا؟؟

_ لقد تم تكريمنا اليوم من قبل الأوساط العلمية والمهتمة بحقوق الإنسان. غدا، أنت ستتوقف رحلتك في باريس، وسأعامل أنا كمجرم في مطار تونس ناهيك عن ساعات من التحقيق.

_ وحدها السلطة الاستبدادية هي من سيحمل عارها، إنها لحظة تاريخية لكل اولئك الّذين أقصاهم هذا النظام البوليسي.

.....

ها نحن الآن نقف أمام لحظة لم يعد الماضي فيها قادراً على قيادة المستقبل، لأن عجز السلطة عن متابعة العمل بطرق قد تجاوزها العالم يشير إلى نهاية حقبتها. مازال القادم مستترا ولم يكشف عن وجهه بعد، في مجتمع يتصف في أعماقه بالغموض وفي سلطة فاشلة تتقنع بلباس المنتصر.

في العام 1988، طالبت بصوت عال وقوي بتحرير السجناء الّذين كان نظام حافظ الأسد قد مات في قلوبهم وعقولهم، ولكن في ظل نظام قمعي مغلق، لا بد لنا، ولسوء الحظ، من انتظار الموت الجسدي للديكتاتور.

في الأول من شهر كانون الثاني عام 2000، قررت أن أنهي عملي في المشفى لأكرّس نفسي أكثر للبحث ولحقوق الإنسان ولكي أنهي موسوعة مختصرة "الإمعان في حقوق الإنسان".

5 حزيران عام 2000، كتبت مقالة لجريدة الحياة اللندنيّة عنوانها " الخيار الديمقراطي في سوريا"، اتصل بي حازم صاغية من الصحيفة ليطلب مني تأخير نشر المقال حتى يوم الأحد ليكون في إطار تغطيته الأسبوعية. مات حافظ الاسد يوم السبت 10 حزيران. تم نشر المقال بدون أية تعديلات.

لعل نهاية الكابوس الّذي يعيشه منبوذو دمشق قد أزفت، لم تعد لديهم الرغبة في العيش في الظلام.

يلخّص " إريك فروم Erich Fromm" رفضهم اعتماد التشاؤم كمبدأ موجِّه في عبارته الّتي تقول:

" يعيش أولئك الّذين لا أمل لهم، في الضعة أو في العنف. أما اولئك الّذين يملكون الأمل فإنهم يستبصرون أية إشارة لحياة جديدة ويتعلقون بها، إنهم مستعدون أن يساهموا، في كل لحظة، في إظهار كل ما من شانه أن يولد من جديد " .

.....

فهرس الاحداث

1910

نشر أول مجلة نسائية في سوريا " العروس ".

1914

نقل مقر "الجمعية العربية الفتاة " الّتي أسسها مجموعة من الضباط والمثقفين العرب إلى دمشق.

1916

6 أيار: السلطات العثمانية تعدم مجموعة من الوطنيين الديمقراطيين العرب في دمشق وبيروت.

1918

تشرين الأول: دخول قوات عربية وإنكليزية إلى دمشق معلنة نهاية الهيمنة العثمانية.

1919

انعقاد المؤتمر العربي السوري العام في دمشق. إقرار أول دستور للمملكة الأردنية الهاشمية.

1920

8 آذار: المؤتمر العربي في دمشق. إعلان استقلال سوريا الكبرى وتتويج الملك فيصل ملكا على سوريا.

تموز

دخول الجيش الفرنسي إلى دمشق بعد معركة ميسلون.

1922

24 تموز: عصبة الأمم تقر الانتداب الفرنسي على سوريا.

1923

الانتداب الفرنسي يخلق دويلات صغرى في سوريا، مشروع يجعل المشهد الجيوسياسي في البلاد طائفيا.

1924

ولادة الحزب الشيوعي السوري. (السوري اللبناني)

1925

الثورة السورية الكبرى في البلاد بقيادة سلطان باشا الأطرش، الجيش الفرنسي يقصف دمشق لقمع الانتفاضة المناهضة للاستعمار

1 نيسان: إضرابات في المصانع السورية من أجل مطالب إجتماعية ولمساندة حركة التحرير الوطنية.

15 نيسان: نشر صحيفة " الإنسانية " أول صحيفة عمالية سورية لبنانية

تأسيس حزب الشعب

1928

انتخاب الجمعية التأسيسية

1930

أيار: حل الجمعية التأسيسية

1932

انتخاب جمعية جديدة، مؤتمر الكتلة الوطنية

1933

ولادة الاتحاد النسائي العربي في سوريا الّذي يضم الجمعيات الّتي تدافع عن حقوق المراة.

ولادة رابطة العمل القومي. (حركة للعرب كافة) في لبنان.

1935

اندلاع عدة انتفاضات شعبية في البلاد.

1936

شباط – آذار: إضرابات وانتفاضات ضد الانتداب الفرنسي.

أيلول: إقرار المعاهدة السورية الفرنسية في البرلمان السوري. لم تقر المعاهدة في الجمعية الوطنية في بارس.

1937

15 أيار: تشكيل عصبة لمكافحة الفاشية، في سوريا. نشر أول كتاب يتحدث عن حقوق الإنسان "حقوق الإنسان، من أين؟ وإلى أين المصير" رئيف الخوري.

1939

فرنسا تسلم "لواء اسكندرون" الّذي يشكل جزءا من سوريا إلى تركيا.

6-7 أيار: المؤتمر الأول للعصبة السورية اللبنانية المكافحة للفاشية.

1940-1941

سوريا تحت ديكتاتورية حكومة فيشي. العصبة تعمل بشكل سري وتكسب كثيراً من الأعضاء الجدد.14 حزيران-41: إحتلال سوريا من قبل القوات الإنكليزية وقوات فرنسا الحرة.

10 حزيران: أصبح إسم العصبة "عصبة مكافحة الفاشية والنازية "

27 تشرين الاول: إعلان الإستقلال السوري.

20 كانون الأول: نشر مجلة " الطريق " مجلة عصبة مكافحة الفاشية والنازية.

1942

نيسان: تأسيس "رابطة الطلاب الديمقراطيين العرب" مجموعة ديمقراطية مناهضة للفاشية وداعية للاستقلال.

1943

الانتخابات التشريعية والرئاسية. انتخاب شكري القوتلي رئيسا للجمهورية العربية السورية. فوز الكتلة الوطنية. الحركة الشعبية في السويداء والتقدميون في البلاد ينجحون بإزالة نظام الاستقلال السياسي والمالي الخاص الّذي فرض في السويداء واللاذقية على أساس طائفي.

1944

ولادة إتحاد المحامين العرب في دمشق.

1945

22 آذار: ممثلين عن مصر، سوريا، العراق، الأردن ولبنان يوقعون ميثاق تأسيس جامعة الدول العربية.

15 حزيران: إنتفاضة جبل العرب تنجح برفع العلم السوري على مدينة السويداء.

29 حزيران: إنتفاضة عامة في سوريا. الجيش الفرنسي يقصف دمشق ويقتحم البرلمان.

9 تموز: فرنسا تشكل الجيش السوري.

الأول من آب: السلطات السورية تبدأ تولي إدارة القوات المحلية.

1946

4 شباط: سوريا ولبنان تطلبان من الأمم المتحدة الإجلاء الكامل والمتزامن للقوات الفرنسية والبريطانية.

17 نيسان: خروج آخر القوات الأجنبية. العيد الوطني في سوريا.

3 تموز: خروج العدد الأول من صحيفة البعث

1947

7 نيسان: إنعقاد المؤتمر الأول لحزب البعث في دمشق. تصويت على الدستور والقانون الداخلي.

تموز: إنتخابات من خلال الاقتراع العام في البلاد.

27 تشرين الثاني: الأمم المتحدة تصوت لقرار تقسيم فلسطين ب33 صوتا ومعارضة 13 وامتناع 10 عن التصويت.

كانون الأول: إجتماع لجنة الاتصال العسكري في جامعة الدول العربية في دمشق.

1948

15 أيار: إعلان قيام دولة إسرائيل. حرب 1948 تبدأ.

17 أيلول : إغتيال وسيط الأمم المتحدة "الكونت برنادوت" على يد مجموعة "شتيرن" الصهيونية.

22 أيلول: الجامعة العربية تنشأ حركة فلسطينية في غزة. تشكيل المجلس الوطني الفلسطيني في المدينة في 30 من نفس الشهر. الإعلان في 2 تشرين الأول عن دولة فلسطيية ذات سيادة.

10 كانون الأول: الأمم المتحدة تعتمد الإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

1949

30 آذار: إنقلاب العقيد حسني الزعيم.

20 تموز: إتفاق الهدنة بين سوريا وإسرائيل.

14 آب: إنقلاب العقيد سامي الحناوي. مقتل الزعيم.

15 تشرين الثاني: إنتخابات الجمعية التأسيسية.

المرأة السورية تحصل على حق التصويت.

19 كانون الأول: العقيد أديب الشيشكلي ياخذ السلطة.

1950

5 شباط: تأسيس الحزب العربي الاشتراكي. السيد أكرم حوراني.

5 أيلول: إعلان الدستور السوري.

1951

27 أيلول: اللجنة الاستشارية في الأمم المتحدة المتخصصة في بحث القضية الفسلطينية تقترح اتفاقا حول تعويضات الحرب بين العرب والإسرائيليين، توزيع اللاجئين، إجتماع بعثة الهدنة من أجل وضع الحدود، إنشاء سلطة دولية لمراقبة مياه نهر الأردن، اليرموك وبحيرة طبريا وبناء الميناء الحر في حيفا.

مصر، سوريا، لبنان، الأردت توافق من حيث المبدأ. إسرائيل تطالب باعتراف الدول العربية كشرط مسبق.

21 تشرين الثاني: الشيشكلي يحل الجمعية التأسيسية. العقيد يُمنح الصلاحيات الكاملة.

كانون الأول: حل المجلس.

1952

عام ديكتاتورية الشيشكلي. تعليق الأحزاب السياسية. فرض حظر على الصحف غير الحكومية. توقيف المعارضين.

23 تموز: الإنقلاب على الملكية في مصر من قبل الضباط الأحرار.

من 1946-1952 إنشاء أكثر من 70 مصنع في سوريا.

1953

10 تموز: استفتاء النظام الرئاسي.

آب: الشيشكلي يصبح رئيسا للجمهورية.

المرأة السورية تحصل على الحق في الترشح للانتخابات التشريعية.

9 تشرين الأول: حركة التحرير العربية (الشيشكلي)، المنظمة القانونية الوحيدة، تفوز في الانتخابات. نموذج "الشيشكلي" سيصبح مثالا لجيل كامل من الضباط.

الإندماج. بعد نقاشات مطولة، بين حزب البعث وحزب الحوراني في بيروت. الحزب الجديد سيسمى " حزب البعث العربي الاشتراكي"

تشرين الثاني: المعارضة تشكل جبهة مشتركة ضد الشيشكلي.

1954

كانون الثاني: جبل العرب يثور ضد الشيشكلي.

23 شباط: استقالة الشيشكلي وعودة التعددية السياسية.

أيلول: الانتخابات التشريعية مع دفعة لقوى اليسار.

1955

2 آذار: التوقيع على الاتفاق العسكري المصري السوري.

22 نيسان: إغتيال الضابط التقدمي عدنان المالكي.

18 آب: تسمية شكري القوتلي رئيسا للجمهورية.

20 تشرين الأول: توقيع مهاهدة التحالف بين سوريا ومصر.

1956

عام استقلال ثلاثة دول عربية (السودان – تونس - المغرب) وتأميم قناة السويس.

29تشرين الأول-2 تشرين الثاني: العدوان الثلاثي (البريطاني الفرنسي الإسرائيلي) على مصر، تعبئة عامة لا مثيل لها. سوريا توقف مرور خط شركة البترول العراقية "البريطانية" من 29 تشرين الاول حتى آذار 1957.

1957

مجلس الشعب يعلن رغبته بالوحدة مع مصر.

تأسيس الحزب الديمقراطي الكردي في سوريا.

1958

22 شباط: إعلان الجمهورية العربية المتحدة بين مصر وسوريا. جمال عبد الناصر رئيس الدولة. حل الأحزاب السياسية.

آذار: إعلان الدستور المؤقت للجمهورية العربية المتحدة.

1959

8 تموز: إنتخابات الاتحاد الوطنية، فرض الحزب الواحد من الأعلى.

تشرين الأول: إنشاء اللجنة العسكرية للضباط البعثيين في القاهرة.

1960

إنشاء الجمعية الوطنية الموحدة للجمهورية العربية المتحدة

1961

حزيران: مرسوم تأميم المصانع

28 أيلول: إنقلاب في دمشق يقود إلى انفصال سوريا

5 تشرين الأول: إعلان الجمهورية العربية السورية.

1 كانون الأول: انتخاب المجلس التأسيسي

14 كانون الأول: إنتخاب ناظم القدسي رئيسا للجمهورية.

1962

28 نيسان: محاولة إنقلاب.

إنشاء الرابطة السورية للدفاع عن حقوق الإنسان.

حزيران: إقصاء أكرم الحوراني وأنصاره من حزب البعث.

23 آب: الحكومة السورية تصدر مرسوم القانون 93 القاضي بإجراء تعداد سكان خاص بمنطقة الجزيرة.

5تشرين الأول: اعتبار أكثر من 60 ألف كردي كأجانب.

1963

الإعلان عن انقلاب عسكري قاده ضباط بعثيين وناصريين. إعلان حالة الطوارئ في دمشق.

17 نيسان: إعلان ولد ميتا لتشكيل اتحاد سوري مصري عراقي.

13 أيار: مرسوم تأميم البنوك ومؤسسات التأمين.

25 حزيران: المرسوم 88 للإصلاح الزراعي.

18 تموز: فشل إنقلاب قام به الضباط الناصريين.

تشرين الأول: مؤتمر حزب البعث السادس وجنوحه لليسارفي خطابه ومبادئه.

1964

14 كانون الثاني: مرسوم إنشاء إتحاد الفلاحين العام.

كانون الثاني: المراسيم الاشتراكية في رمضان. وضع أكثر من مئة شركة صغيرة تحت سلطة الدولة.

22 شباط: الإضراب العام في حماه وتطويق السكان لعناصر مقربة من السلطة. الجيش يحتل المدينة ويهاجم جيوب المقاومة مع توقيف إسلاميين في حمص، حماه، حلب ودير الزور.

نيسان: تأميم معمل الصناعات النسيجية في حلب.

24 نيسان: إعلان دستور مؤقت.

14 أيار: تسمية أمين الحافظ قائداً للدولة.

المرسوم التشريعي 31 القاضي تعيين هيئات الإتحاد العمالي العام لمدة ستة أشهر من قبل وزير العمل والشؤون الإجتماعية.

22 كانون الأول: تأميم الصناعة النفطية.

1965

شباط: التأميم يطال الصناعات الغذائية والدوائية.

كانون الأول: حل القيادة القطرية لحزب البعث، توسيع المجلس الوطني.

19 كانون الأول: وحدات من الجيش في حمص تدعم القيادة القطرية.

1966

1 شباط: إضراب في قطاع النفط والعمال يحصلون على معظم مطالبهم.

23 شباط: إنقلاب أبيض يقوده صلاح جديد. إستبدال قياديي الحزب وإعتقال رئيس الدولة ومئة من القياديين في حزب البعث. نور الدين الأتاسي رئيس الدولة الجديد.

اتحاد الفلاحين يعلن في مؤتمر له استقلاله المالي والعمل باستقلالية أكثر.

1 أيار: مظاهرات في حلب ضمت معارضين بعثيين.

آب: خالد الجندي أمين عام يشكل كتائب العمال المسلحة.

1967

5 حزيران: إشتعال حرب بين إسرائيل وجيرانها العرب. وزير الدفاع السوري حافظ الأسد يأمر بانسحاب الجيش السوري من الجولان.

22 تشرين الثاني: التصويت على القرار 242 في مجلس الأمن.

1968

20 أيار: تأسيس الجبهة الوطنية التقدمية بشكل سري والّتي تتألف من (الاتحاد الاشتراكي، حركة القوميين العرب، والحزب العربي الإشتراكي). إعتقال مئة من المعارضين.

14 آب: " نضال الفلاحين" تطالب باسم الفلاح المجهول حرية الجمعية والحريات الديمقراطية: حرية التعبير، النشر، التجمع والصحافة. استبعاد المحرر منصور الحسن من الصحيفة ومن اتحاد الفلاحين.

1969

من شباط إلى آذار: إزدواجية السلطة تصل للحظة فارقة، وتبرم العسكريين بانتقادات البعثيين.

"إنتحار" عبد الكريم الجندي في مكتبه.

21 نيسان: سوريا تنضم إلى الميثاق الدولي المتعلق بالحقوق المدنية، السياسية، الإقتصادية والاجتماعية الثقافية.

1 أيار: إعلان الدستور العلماني المؤقت.

توقيف أكثر من 120 معارض.

اختتام مؤتمر الحزب الشيوعي الثالث بقرارات إستقلالية. جلسة للحزب تضم تنظيمين يحملان نفس الاسم: ولاء الأول لموسكو والثاني يطالب بمبادئ إشتراكية ديمقراطية وبوحدة عربية.

1963-1970: السلطة التنفيذية تمارس الوصاية على ماتبقى من استقلالية المجتمع: من النوادي الرياضية إلى المدارس الخاصة.

1970

أيار: توقيف اكثر من 500 بعثي من المعارضة.

أيلول: تدخل الجيش السوري في الأردن لدعم القوات الفلسطينية.

13-16 تشرين الثاني: وزير الدفاع حافظ الأسد يستولي على السلطة ويشكل حكومته. توقيف قيادة الحزب، رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء. سيبقون في السجن لأكثر من 22 سنة بلا تهمة ولا محاكمة.

1971

12 آذار: الجنرال الأسد رئيسا للجمهورية.

14 أيار: تعيين الاسد أمينا قطريا للحزب.

3 آب: محكمة أمن الدولة تصدر أحكام قاسية بحق 200 بعثي معارض.

آب: حافظ الأسد يصبح الأمين العام لحزب البعث.

1972

7 آذار: إنشاء الجبهة الوطنية التقدمية الّتي يهيمن عليها البعثيون بالاشتراك مع الشيوعيين والناصريين. تعيين الأسد رئيسا للجبهة الوطنية التقدمية.

14 آذار: إغتيال الجنرال محمد عمران، في طرابلس، الّذي يعد واحداً من اللاعبين الأساسيين في 8 آذار 1963.

ترحيل 23 طالب أردني و 7 طلاب عراقيين من البلاد.

1973

31 كانون الثاني: مجلس الشعب يوافق على دستور دائم.

حزب الاتحاد العربي الاشتراكي يغادر الجبهة الوطنية التقدمية.

زيادة ثراء المجلس العسكري الحاكم: الدولة تخصص عقود المشاريع الكبرى المحتكرة تقريباً من قبل مجموعة تقتصرعلى الوسطاء الّذين يستغلون علاقاتهم مع بارونات السلطة والّذين سيكونون حلفائهم فيما بعد.

آذار: الاستفتاء الدستوري: 97%

أيار: الانتخابات التشريعية: 140 مقعد (100 منها مخصص للبعثيين) من أصل 186 مخصصة للجبهة الوطنية التقدمية.

6 تشرين الأول: حرب تشرين مع إسرائيل.

24 تشرين الأول: مجلس الأمن يعتمد القرار 338.

توقيف " سيد حوا " منظر الإخوان المسلمين في سوريا وبقائه 3 سنوات في الاعتقال.

1974

31 أيار: توقيع إتفاق فك الاشتباك السوري الإسرائيلي في جنيف.

للمرة الأولى، العمال يجبرون رئيس الجمهورية على إلغاء مرسوم تعيين أحد الفاسدين في شركة الصناعة الحديثة. انتظرت السلطات حتى انتهاء الأحداث ثم تم نقل وطرد 36 عاملا الأكثر نشاطا في المصنع.

1975

آذار: إضراب كلية العلوم في دمشق.

5-15 نيسان: إنعقاد المؤتمر الإقليمي السادس لحزب البعث بعد توقيف عدة مئات من أعضائه.

حزيران: موت مؤسس الطليعة المقاتلة مروان حديد في السجن بسبب إضرابه عن الطعام.

23 أيلول: إحتلال وزارة التعليم العالي في دمشق من قبل طلاب كلية الطب لإلغاء اللوائح الجامعية.

29 كانون الأول: إضراب عمال الغزل والنسيج في القطاع الخاص.

31 كانون الأول: تعديل القانون المدني في سوريا. قانون 133/ ليصبح أكثر ملائمة للتقليديين.

اعتباراً من هذه السنة، الحكومة تخفف تشريعاتها المتعلقة بقطاع النفط.

1976

6-2 شباط: إضراب مصنع الحرير في حلب.

آذار: عريضة طلابية في حلب تطالب بدمقرططة الحياة الجامعية.

22 آذار: إضراب كلية الفنون الجميلة.

31 آذار: مظاهرات في الجامعات بمناسبة يوم الأرض وتوقيف 21 طالبا. إلقاء القبض على 16 فلسطينيا في ضاحية مخيم اليرموك في دمشق.

نيسان: عريضة مقدمة من الطلاب تطالب باستقالة اللجنة النقابية الموالية للسلطة.

نيسان: إلقاء القبض على ناشطي حزب البعث الديمقراطيين (23 شباط). ملاحقاًت واعتقالات لماركسيي رابطة العمل الشيوعي.

31 أيار: دخول الجيش السوري إلى لبنان.

18-16 تشرين الأول: قمة الرياض بحضور 6 دول عربية تحاول تجميل الوجود السوري في لبنان من خلال قوة ردع عربية قوامها 30000 جندي غالبيتهم من السوريين.

طرد 150 طالب عربي من سوريا.

1977

16 آذار: إعتيال كمال جنبلاط في لبنان. توقيف 80 ماركسي بعد ذلك في سوريا.

2-1 آب: إنتخابات تشريعية في سوريا. تقليص أنشطة أساسية في اللاذقية بسبب مطالب إقتصادية.

آب: انعقاد لجنة حكومية لمتابعة الأرباح والمكاسب غير المشروعة متبوعة بموجة تطهير ضد الفساد طالت الأشخاص الغير محميين من قبل السلطة.

28 كانون الأول: كلية الهنسة الزراعية وجامعة دمشق تقدمان التماسا تطالبان فيه بحظر استخدام الأسلحة داخل الجامعات وذلك إثر استخدام السلاح من قبل قوات الأمن.

1978

8 شباط: إعادة انتخاب حافظ الأسد رئيسا للجمهورية بنسبة 99،6%.

22 أيار: 217 محام يوقعون عريضة يطالبون فيها برفع حالة الطوارئ، احترام استقلال القضاء وإقامة الحريات الديمقراطية في دولة القانون.

17 آب: رئيس نقابة المحامين في سوريا يطالب برفع حالة الطوارئ، إقامة دولة القانون والحرية لجميع المعتقلين السياسيين.

26 تشرين الأول: توقيع ميثاق العمل الوطني بين سوريا والعراق.

1979

16 حزيران: مجزرة الأكاديمية العسكرية في حلب الّتي ارتكبت من قبل بعثي سني وراح ضحيتها 83 ضحية.

3 تشرين الثاني: عقد مؤتمر نقابة المهندسين في دمشق الّذي تبنى مطالب المحامين الديمقراطية وكشف عن وجود 130 مهندسا في السجون.

22 كانون الأول: انعقاد مؤتمر حزب البعث الّذي اتصف بوجود ضباط مخابرات كأعضاء في اللجنة المركزية.

إعتقالات جماعية لأعضاء مقربين من الإخوان المسلمين.

مؤتمر الحزب الشيوعي المكتب السياسي يتخلى عن مصطلح الديمقراطية الشعبية لصالح مصطلح الديمقراطية نفسه.

1980

18 شباط: مواجهات قوات الأمن مع المعارضة الإسلامية في حلب.

28 شباط: مؤتمر اتحاد المهندسين يعتمد مطالب المحامين.

آذار: ولادة التجمع الوطني الديمقراطي المعارض.

9 آذار: القوات الخاصة تهاجم جسر الشغور بعد مواجهات بين وحدات من الجيش مع الشعب، تهديم 20 منزلا وقتل حوالي 150 شخصا. دخول قوات الأمن إلى إدلب في نفس اليوم يخلف 16 قتيل و 30 قتيلا في المعرة.

31 آذار: إضراب ليوم واحد على نطاق واسع في البلاد دعت إليه كل من نقابة الاطباء، المهندسين، المحامين والصيادلة أعقبه اعتقال الآلاف بعد أسبوع.

9 نيسان: السلطات تحل النقابات المهنية في البلاد.

15 نيسان: اختطاف 38 شخصا في دير الوزر، وسجناء سابقين يؤكدون إعدامهم ميدانيا.

7-13 نيسان: تسليم مدينة حلب لاكثر من 20000 من عناصر الجيش وقوات الأمن. إعتقالات جماعية، سرقات واغتصابات.

27 حزيران: الهجوم الّذي شنه أخو الرئيس حافظ الأسد على سجن تدمر يخلف، بحسب وثيقة نشرها وزير الإعلام الأردني، أكثر من 750 قتيلا بين السجناء الإسلاميين أو المتهمين بكونهم إسلاميين.

7 تموز: مجلس الشعب يصوت لقرار يدين بالإعدام كل شخص ينتمي لحركة الإخوان المسلمين.

21 تموز: إغتيال صلاح الدين البيطار، رئيس الوزراء الأسبق وأحد مؤسسي البعث، في باريس.

23 تموز: إغتيال رئيس إتحاد الصحفيين في بيروت.

24 تموز: قوات الأمن تهاجم مدينة سرمدا لملاحقة عناصر مسلحة. تعتقل 200 شخص. 42 شخص اعتبروا في عداد الأموات أو المفقودين.

تشرين الأول: إعتقال المسؤولين الرئيسيين في الحزب الشيوعي السوري المكتب السياسي. أكثر من 1000 شخصية يسارية دخلت السجن في هذه السنة.

من تشرين الثاني 1979 إلى كانون الأول 1980: إعدام المسؤولين العسكريين الرئيسيين في حركة الإخوان المسلمين من قبل السلطة أو قتلهم، زغلوتة، جمباز، طنطاوي، البطل، الزعيم، أبو، خلوف، معمور.

1981

4 آذار: إغتيال الصحفي سليم اللوزي في بيروت.

15 آذار: إغتيال بيان الطنطاوي في ألمانيا، زوجة عصام العطار مسؤول الجناح غير العسكري في الإخوان المسلمين.

نيسان: مواجهات دموية بين الإخوان المسلمين وقوات الأمن في حماه. أشار أحد الأطباء إلى أسماء 255 ضحية في مشفى المدينة.

6 آب: في بيروت، إنطلاق المؤتمر التاسيسي لحزب العمل الشيوعي في سوريا.

3 أيلول: إنفجار سيارة مفخخة في دمشق يخلف 20 قتيلا.

29 أيلول: تحت قيادة سرايا الدفاع، نساء مظليات تنزع حجاب نساء أخريات في الشوارع وفي الأماكن العامة.

9 تشرين الثاني: إنتخابات مجلس الشعب.

29 تشرين الثاني: هجوم في دمشق يخلف 46 قتيلا.

14 كانون الأول: إسرائيل تضم الجولان. السكان السوريون يرفضون حمل الهويات الإسرائيلية ويخرجون في مظاهرات وإضرابات استمرت أشهر.

1982

3-5 شباط: مذبحة حماه

حزيران: الاحتلال الإسرائيلي للبنان. الجيش الإسرائيلي بقيادة شارون ينهي الوجود الفلسطيني المسلح بين بيروت وصور خلال ثلاثة أشهر. الجيش السوري سينهي خلال خمسة عشر شهرا العمل الّذي بدأته إسرائيل في لبنان.

1983

19 كانون الأول: بعد مرض الأسد، شكل إخوانه حركة التحرير الثورية "المرتضى" انطلاقا من جمعية المرتضى الطائفية الّتي تنادي بأن تكون عائلة الاسد هي من يقودها. نشطاء يطالبون عائلة الاسد بضبط النفس والتوقف عن هذا الهذيان.

1984

كانون الثاني: حملة اعتقالات واسعة تطال أعضاء حزب البعث الديمقراطي.

1985

10 شباط: إعادة انتخاب الرئيس الأسد.

22 آذار: إختطاف ميشيل سورا في بيروت.

31 آب: إنشاء قطاعات مختلطة بين السياحة والنقل.

18 أيلول: إغتيال ميشيل النمري رئيس تحرير صحيفة النشرة في نيقوسيا.

1986

26 شباط: مرسوم يسمح بإنشاء شركات "مشاريع مشتركة" في القطاع الزراعي والتغذية الزراعية.

شباط - أيار: إعتقال اعضاء اللجان الشعبية: اكثر من مئة شخص خلال أربعة أشهر.

21 آذار: مواجهات بين قوات الأمن والأكراد أثناء الاحتفالات بعيد النيروز خلفت عدة قتلى وجرحى.

2 أيلول: اعتقال أكثر من 36 مسؤولا وعضوا في التنظيم الناصري الشعبي في سوريا.

11 تشرين الثاني: حاكم الحسكة ينشر المرسوم 25/sad/1012 القاضي بمنع تداول اللغة الكردية في أماكن العمل.

1987

إعتقال أعضاء وأصدقاء حزب العمل الشيوعي، خلال عدة أشهر، وأيضاً بعثيي المعارضة وشيوعيي المكتب السياسي. تم استجواب أكثر من 2000 شخص وبقي أكثر من 900 منهم في السجون غالبيتهم ينتمون لحزب العمل الشيوعي.

1988

من 1982 – 1989: وضع قوائم لأكثر من خمسة آلاف وثلاث مئة فلسطيني معتقل في السجون السورية (من سورية، لبنان والاردن). عدد المساجين اللبنانيين قدر ب 1200 في عام 1988. بعد مرور عام، قدر المدافعين عن حقوق الإنسان السوريين عدد معتقلي الرأي ب 14000 معتقل في سوريا.

1989

موت ميشيل عفلق في 1989/6/27.

10 كانون الأول: ولادة لجان الدفاع عن الحريات الديمقرلطية وحقوق الإنسان في سوريا.

1990

19 آذار: مظاهرة أمهات المعتقلين السياسيين أمام القصر الرئاسي الّتي انتهت باعتداء قوات الأمن على المتظاهرات لتفريقهن.

2 آب: الجيش العراقي يحتل الكويت. الحكومة السورية تنضم للتحالف الّتي قادته الولايات المتحدة الأميركية.

نيسان: وفاة المهندس منير فرنسيس "30عاماً" في مشفى المواساة في دمشق بسبب نزيف داخي تسببت به المعاملة الوحشية الّتي لاقاها خلال التحقيق. تم توقيف الطبيب المناوب لأنه رفض الانصياع لأوامر العناصر الّتي أرادت منه أن يكتب في تقريره أن سبب الوفاة كان طبيعيا.

في هذه السنة أيضاً مات كل من حسّن العودات، محمد داوود، خضر جابر وعدنان سعود بسبب المعاملة السيئة الّتي كانوا يتلقوتها خلال اعتقالهم.

1991

بعد حرب الخليج باشرت السلطة بإطلاق حملة لإطلاق سراح بعض المساجين السياسيين استفاد منها قسم من المرضى، النساء، الفلسطينيين والرهائن إلخ.. قامت لجنة أمنية شكلها المجلس العسكري بتصنيف المعتقلين وقررت أن الاعتقالات كانت أكثر استهدافا لأشخاص بعينهم وأقل كمية من السابق.

4 أيار: إعتماد القانون رقم 10 في الاستثمار في سوريا الّذي يلزم البلاد باتخاذ طريق إقتصادي ليبيرالي. إطلاق سراح عدد جيد من سجناء الإخوان المسلمين.

30 تشرين الأول: إفتتاح مؤتمر السلام في الشرق الأوسط الّذي انعقد في مدريد.

كانون الأول: إعادة انتخاب الجنرال الأسد.

18 كانون الأول: إعتقال المئات من المدافعين عن حقوق الإنسان في البلاد في حملة طالت أعضاء لجان الدفاع عن الحريات الديمقراطية.

1992

23 كانون الثاني: وفاة منير الأحمد في سجن صيدنايا.

شباط: إعتقال آخر من تبقى طليقا من مسؤولي حزب العمل الشيوعي.

17 آذار: محكمة إستثنائية تدين 10 أشخاص من المدافعين عن حقوق الإنسان بالسجن (5 – 10) سنوات.

16 نيسان: موت رفعت أحمد رجب في سجن عدرا.

نيسان: مثول أكثر من 500 معتقل سياسي من الأحزاب المعارضة العلمانية غير المسلحة أمام محكمة أمن الدولة.

البعض منهم كان معتقل قسريا منذ 13 عاماً. كانت الأحكام قاسية جداً: اكثر من ربع المعتقلين أدينوا بأكثر من 12 عاماً سجن.

5 تشرين الأول: توزيع منشورات بمناسبة الذكرى الثلاثين لبدء تطبيق قانون 5 تشرين الأول 1962.

إعتقال 42 كرديا.

5 كانون الأول: وفاة الرئيس السوري الاسبق نور الدين الأتاسي في مشفى "نيي سور سين" في باريس بعد خروجه حديثا من السجن.

20 كانون الأول: وفاة ثلاثة معتقلين سياسيين بسبب المعاملة السيئة، قاسم حسّو، شكّور تبّان ومحسن عبد الله.

1993

24 آذار: حريق ضخم في سجن الحسكة يتسبب بموت 57 سجينا منهم 4 سجناء سياسيين.

نصرت ملّا حيدر رئيس المحكمة الدستورية العليا يتبنى مطالب المدافعين عن حقوق الإنسان المنادية برفع حالة الطوارئ، إنهاء العمل بالمرسوم رقم 6 ومحاكم أمن الدولة والمطالبة أيضاً باستقلال القضاء.

13 حزيران: سوريا تصادق بالقانون رقم 8 على اتفاقية حقوق الطفل.

19 آب: موت صلاح جديد في السجن بعد 23 عاماً من الاعتقال التعسفي.

1994

إنتخابات مجلس الشعب، القانون الانتخابي يمنع أيّة مشاركة سياسية من خارج الجبهة الوطنية التقدمية ويقسّم، مسبقا، المقاعد البرلمانية إلى فئتين: 66% مخصّصة للجبهة

و34% للمستقلين. في اليوم الّذي تلى الانتخابات، وزير الإعلام يصرح: "مهمة مجلس الشعب ليست تحديد السياسات وإنما المصادقة على القوانين"

1995

اتصف الجزء الأول من العام بحركة اعتقالات طالت المهربين من كل الأصناف والأشخاص المتورطين في الفساد. تلقيت قائمة تضم أكثر من 3100 إسم.

5 أيلول: بحسب صحيفة تشرين الرسمية، عدد الوفيات في دار الأيتام " زيد بن حارثة" الحكومي بلغ 60% من عدد الاطفال المسجلين: 41 طفل ماتوا في 1993 و 51 طفل ماتوا في 1994.

كانون الأول: عفو رئاسي "قانون 18" يشمل 5300 سجين متهمين بجرائم اقتصادية منهم حالات جرائم خطرة تمس إقتصاد الدولة. بيّض هذا المرسوم أموال وملفات حديثي النعمة الّذين تراكمت أرباحهم خلال 25 سنة.

25 كانون الأول: وفاة كريم الحاج حسين، السجين السياسي بعد أقل من 24 ساعة على إطلاق سراحه في حالة حرجة.

1996

كانون الثاني: إعتقال أربعين بعثيا مواليا للعراق.

ردا على حرمان معظم قيادات أحزاب المعارضة من حقوقهم المدنية، قررت لجان الدفاع عن الحريات الديمقراطية وحقوق الإنسان منح عضوية الشرف في المنظمة لكل ديمقراطي سوري حرم من حقوقه المدنية.

23 شباط: وفاة أكرم الحوراني في منفاه في عمان.

21 آذار: توقيف 31 كردي من المعارضة.

17 حزيران: وفاة الصحفي السوري رضا حدّاد بالسرطان بعد 15 عاماً قضاها في الاعتقال التعسفي دون تلقي العناية الطبية اللازمة.

تشرين الأول: 2800 شخص، عدد المعتقلين السياسيين السوريين، اللبنانيين والفلسطينيين في السجون السورية ومراكز التحقيق.

1998

إطلاق سراح المئات من السجناء السياسيين. لكن مع انعدام وجود منظور سياسي في البلاد.

1999

7 تشرين الثاني: الرئيس الفرنسي يلتقي بشار الأسد في باريس.

2000

31 آذار:

31 آذار كان يوماً أسودا بالنسبة للمعارضة: توفي الدكتور جمال الأتاسي، رئيس التجمع الوطني الديمقراطي في سوريا ومؤسس حزب الاتحاد الاشتراكي العربي، في مشفى الشامي في دمشق. في نفس اليوم توفي أيضاً في دمشق، العميد عصام أبو عجيب بطل حرب تشرين الّذي اعتقل في 1989/5/25 مع عدد من الضباط من الجيش السوري. أبو عجيب أمضى خمس سنوات في المعتقل بلا تهمة ولا محاكمة وأطلق سراحه وهو بحالة صحية سيئة جداً.

10 حزيران: موت حافظ الأسد.

الطبقة الحاكمة في السلطة تعين إبنه بشار الأسد خلفا له.

الفهرس

توطئة 2

درعا 4

الجامعة 33

الموت 60
العمل السري 76
العاصفة 96
التفكك 110
AMARJI 125
فهرس الاحداث 144
فهرس الكتاب 164

الصفحة الأخيرة

أشكر أمي الّتي علمتني أن الحرية الّتي تسكننا أقوى من السجون الّتي نسكنها.... ولذلك فإن الحرية ستنتصر

معتقل سوري...

ها نحن الآن نقف أمام لحظة لم يعد الماضي فيها قادراً على قيادة المستقبل، لأن عجز السلطة عن متابعة العمل بطرق قد تجاوزها العالم يشير إلى نهاية حقبتها. مازال القادم مستترا ولم يكشف عن وجهه بعد، في مجتمع يتصف في أعماقه بالغموض وفي سلطة فاشلة تتقنع بلباس المنتصر.....

هيثم مناع